أميرة

بنت تونس

أميرة بنت تونس (رواية)

عادل الحمداني (كاتب عُماني)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

لوحة الغلاف: أميرة العبيدي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced،stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-487-0

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(1503/ 3/ 2022)

306

الحمداني، عادل سالم

أميرة بنت تونس/ عادل سالم الحمداني. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(288) ص

ر. إ: 1503/ 3/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

عادل الحمداني

أميرة

بنت تونس

رواية

هذه الرواية من نسج الخيال،
أي تشابه مع الواقع من حيث: الأحداث أو الأسماء أو الآراء
بالتأكيد هو محض الصدفة..

إلى...

أميرة بنت سالم

هذه الرواية كتبت من أجلك..

أنت النجمة المعلقة في سماء حياتي لتمدني بالذكريات والأمنيات والأحلام..

(1)

«يُفترض أن لا نؤلف الكتب إلا لنقول
فيها ما لا نجرؤ على البوح به لأحد».
إميل سيوران

قبل الساعة الثانية ظهرًا فتحت أميرة عينيها والإرهاق لا يزال يحتل جسدها، يدعوها للغوص مجددًا في غيبوبتها النهارية ومغادرة رغبتها في قضاء بعض الوقت برفقة جدتها. ما فتئ ضميرها يعكّر مزاجها منذ ثلاث ليالٍ يوبخها بلا هوادة، فمنذ وصولها إلى تونس وهي لا تكاد ترى جدتها إلا قليلًا. سهرٌ بالليل حتى الفجر ونومٌ أغلب النهار.

قليلة هي اللحظات التي تجمعها بجدتها على مائدة الطعام في الباحة التي تتوسط البيت المصمم بشكل شبه دائري، بإطلالة علوية لغرفه الخمس التي يتوسط ثلاثًا منها حمامان مشتركان. لكل غرفة من الغرف الخمس شبابيك خشبية تطل على حديقة خلفية يوصِل إليها باب بالقرب من المطبخ، تُستخدَم لنشر الملابس ورعاية الطيور من الحمام والدواجن في أقفاصها. في تلك الحديقة لعبت أميرة في صباها وهي تدلل طيورها التي ينتهي الحال بها تباعًا على مائدة الطعام.

بين الاستسلام لرغبة الجسد ومقاومة نداءاته المتكررة، والاستجابة لقرار اتخذته الليلة الماضية بمنح جزءٍ من وقتها لجدتها «للّا خديجة» أو «نانا خديجة» كما تحب أن تناديها منذ أن كانت طفلة تملأ أركان الدار بدبيب حركتها في الأسابيع القليلة التي تكون حاضرة فيها. «على الأقل لا أكون في نظرها مثل ناصر.. مثل السراب في هذا البيت لا أثر ولا قيمة»، حدثت نفسها وهي تتخيل شقيقها ناصر الغائب كل الوقت، متذرعا بمشاغل إدارة شركة السياحة المسجلة باسم عائلة سليماني ومرافقته للأفراد والمجموعات السياحية. تعرف أنه يكذب، تعرفه جيداً. الوقت الذي لا يكون مرتبطًا فيه بزبائن الشركة يكون متسكعا في مقاهي ومتاجر تونس. تعرف ما يمر به من فراغ رغم قدرته العجيبة على إخفاء دواخله عن الآخرين فيبدو أمام من يرافقهم كالشاب الممتلئ بالحياة، والحياة التي يحلم بها ليست تلك التي أُجبر على قبولها.

استوت جالسة على السرير. همست مخدتها «لا يزال الوقت مبكراً، خذي لك دقائق إضافية.. لن تذهب خديجة إلى أي مكان». نظرت للمخدة المجعّدة الغائص جزء منها للداخل، وبابتسامة ساخرة هزت رأسها بالرفض: «لا لن أمنحك الفرصة لخداعي.. لا يمكن أن تخدعيني كل يوم». ولكي تؤكد قرارها الحاسم قلبت المخدة على الوجه الآخر ووجهت لها لكمتين بقبضة يدها، ضاحكة من خيالاتها. «قريبًا سوف أفقد عقلي مجددًا.. بعد كل ما مررت به لا غرابة لو فقدت عقلي». اجترَّت

ذكرياتها دفعة واحدة فارتفعت سخونة وجهها وانكمشت ابتسامتها. تأتيها الذكريات هكذا بغتة بلا سابق إنذار ولا مناسبة تبررها. بقيت الأسئلة كما هي في دواخلها: لماذا كلما أتذكر جزءًا من حياتي تكفهر حالي، ويرتسم العبوس على وجهي؟ ألم أعاهد نفسي على تجاوز كل شيء والبدء من جديد حياةً وأفكارًا ومشاعِر؟ مجيئي إلى تونس وقراري العيش فيها من أجل هذا الأمر. أليست هذه تونس التي أيقنت أنها الأنسب لهذه البداية؟

«وأطفالك؟»، صرخت المخدة بصوت مكتوم.. «هم بخير» ردت بحزم. وقبل أن تضيف شيئا أخذت مخدتها ورمت بها بعيدا في أقصى مدى ممكن من الغرفة. نظرت حولها جيدًا. هناك بالقرب من الباب تقبع طاولة صغيرة عليها مجموعة من الروايات التي لم تنتهِ من قراءتها بعد، ومجموعة من الأوراق تعودت تسجيل ما يعجبها من نصوص روائية وبعض الملاحظات والانطباعات. وعلى طرف الطاولة علبة سجائر غير مفتوحة. ليست من المدخنين لكنها بين الحين والآخر في أيام متباعدة تسحب نفسين أو ثلاثة حين يكون مزاجها متقلبا، أو يراودها الحنين لجزء جميل من حياتها السابقة ولحظات ممتعة عاشتها بكل جنون. وهي تنظر لعلبة السجائر مرَّ طيف رجل كان في ما مضى «حب حياتها وعشقها الأول والوحيد». من بعده لم تحب كما أحبت ولم تعشق كما عشقت ولم ترغب في أحد بقوة كما رغبت فيه.

«طالما ذكرتك به تعالي وخذي مني نفسا أو نفسين.. أحرقي ذكراه كي لا يؤلمك طيفه» نادتها علبة السجائر لكنها هزت رأسها بالرفض. «اليوم أنا في مزاج يسمح لي باستدعائه في مخيلتي ودعوته للبقاء في رأسي أطول وقت يرغب فيه».. ردت على علبة السجائر وهي تغمز بطرف عينها اليمنى وكأنها تقول: «لن أسمح لك أنتِ الأخرى بإغاظتي وتعكير نهاري».

ليس ببعيد عن علبة السجائر التي توشك على السقوط بأقل لمسة تقف مكتبة مصغرة مليئة بالكتب، كلها تقريبا روايات: عربية وأجنبية مترجمة وروايتان باللغة الفرنسية. امتلأت بما حوت عاما بعد آخر، ففي كل زيارة لها يسكن كتاب جديد أو أكثر. الرحلة من مسقط إلى تونس بساعاتها الطويلة لا تنقضي إلا وقد التهمت رواية خلالها. رفيق السفر الكتاب، ومن دونه لا متعة لديها تضاهي متعتها بالتحليق مع الكتاب ما بين السماء والأرض. الطائرة تحلّق بجسدها والروايات تحلّق بروحها، والحلم الذي لا يزال يراودها أن تكون ذات يوم الكاتب الشره للكتابة لا القارئ المتعطّش لحِبر غيره.

الرف الأول وضعت فيه مجموعة من الروايات العُمانية، مصفوفة بشكل مستقيم، وكأنها توحي لمن يراها بأنها لا تزال تنتمي لذلك البلد، وإشارة إلى أن قلبها معلّق في زاوية من زواياه أو مغروس في تربته أو منتصبٌ كجبال مسندم وظفار دون أن تهزه ريح أو تعصف به العواصف.

تنظر إليها رواية «نارنجة» بابتسامة حالمة تشبه ابتسامة «زهور»، فترد عليها بالمثل وتذكرها «جدتي لا تشبه جدتها. من جدتي جاءت أمي وجئنا من بعدها. جدتها لم يمسسها بشر، عاشت وماتت في سلام فلم تحمل وزر أرواح قد تكون معذبة».. أشاحت الرواية وجهها بعبوس فأطلقت رواية «الباغ» ضحكة عذبة مذكرة أميرة بزواج «ريّا» رغم معاناتها وغربتها؛ هربًا من الظلم الذي عانته هي وأخوها راشد. هزت أميرة رأسها: «كلتاكما كالعينين في الرأس. ليس أعز من إحداكما إلا الأخرى». سقطت من رواية «الطواف حيث الجمر» دموع «زهرة» الهاربة من جحيم القيود المجتمعية، كسجنٍ مشدد الحراسة، إلى الحرية المنشودة بحثًا عن حبيبها المهاجر إلى إفريقيا. نكّست أميرة رأسها وهي تقول: «لستِ وحدك الهاربة يا زهرة، لكنني لم أهرب بحثًا عن حبيب، بل بحثًا عن سلامي الداخلي. نتشابه أنا وأنتِ في صفة الهرب ونختلف في السبب».

ودّ الرجال في روايات: كهف آدم، والذي لا يحب جمال عبد الناصر، ودفاتر فارهو و... و... و.. المشاركة في الحديث لكنهم لزموا الصمت فلا شيء يُقال في حضرة النساء.

على بقية الأرفف روايات متنوعة، وفي طرف مهمل من الرف الأخير تقبع مجموعة من الكتب بينها الكتاب السياسي الوحيد: مُصلح على العرش.

نفضت شعرها ونثرته بيديها يمينا ويسارا وهي تتجه بنظرها للجهة المقابلة. تسريحتها الخاصة مكدَّسة عليها أشكال من مرطبات البشرة والشعر وعدة مكياجها التي لم تمس الكثير منها. أقنعت نفسها أن المرأة الجميلة ليست بحاجة لما يظهر جمالها. لا تخفى عليها نظرات المعجبين بجمالها، ولا تشك للحظة أن الله منحها من الجمال ما تشتهيه العيون وتسكن إليه القلوب وتتلهف عليه الأرواح، وأن عذوبة حُسنها لا تُقاوم بقدّها وتكوّر ملذاتها. تدرك أن ما تحوزه ليس بحاجة للكثير من الإضافات لتكون مكتملة بلا نقصان ولا تشوبها شائبة. تبتسم وهي تتذكر ذلك. لم يكن هذا السبب الوحيد لبقاء عدة المكياج دون استخدام؛ فبشرتها لا تتحمل الاستخدام المتكرر لهذه المجموعة من الكيماويات والخلطات الطبيعية. لا تلبث أن تظهر الحبوب والبقع الملونة المؤذية، ما يدفعها لأن تهرش وكأن بعوضة قرصتها.

أمام السرير مباشرة خزانة ملابسها. على اتساعها وتعدد أرففها ومساحتها تكاد تختنق من مئات القطع من الأقمشة والثياب والأحذية والملابس الداخلية. تبتسم وتطبع قبلة في الهواء باتجاه الخزانة: «تحملي يا صديقتي العزيزة.. ستتخففين قريبًا من حمولتك هذه. هذا وعد مني».. تسمعها تزمجر قائلة: «كاذبة أيتها الغريبة. كنتُ في سلام وأنت لست هنا. تلك العجوز أرحم وأكثر إنسانية منك. ممتلئة بالحب عكسك تماما». تقرر أن تتجاهلها متوعدة إياها بالمزيد من العذاب.

على الطرف القصي من الغرفة أُهمل صندوق خشبي عتيق تطرّزه رسومات متداخلة بمسامير نحاسية، تُعَد وفق الموروث الشعبي التونسي جالبة للخير وطاردة للحسد. تكاد الرسومات تختفي بفعل تأثرها بعوامل الزمن، وقد حرصت خديجة على الاحتفاظ بصندوق عرسها المليء بالأقمشة والحُلّي القديمة وعلبٍ تفوح منها روائح معتّقة.

ذات يوم مازحت أميرة جدتها وكانتا تعيدان تنظيف الغرفة بطلب إخراج «السحّارة» من الغرفة؛ لأنها تذكرها بـ«سحّارة» زواجها.

قالت:

- سحّارتي كانت نذير شؤم.

ردت خديجة:

- إذا كان كَلَامك صحيح، فلازم صندوق عرسك مزيّن بمسامر حديد.

تتعجب أميرة أنه لا يزال هنا في تونس من يعتقد بأن المسامير النحاسية والفضية تجلب الخير وتبعدا الحسد عكس المسامير الحديدية. وتتزايد دهشتها بعدد من المعتقدات الشعبية، فالرجل المسافر يُرَش خلفه الماء حين يخرج من البيت جلبًا للخير ولكي يعود سالمًا، وقص الأظافر بالليل يجلب الشر، وحين يحلم المرء بأنه يلبس حذاء جديد فذلك فأل حسن.

وتتعجب أن جدتها لا تزال تحتفظ بصندوق متوسط الحجم تطلق عليه «الكنويطة» تظل حريصة على أن يبقى مغلقًا. تخبرها خديجة أنها

تحتفظ فيه بوثائق تخص جدها ومذكرات بخط يده، لكن أميرة شاهدتها بالصدفة تخرج منه أوراقًا نقدية وحليًا من الفضة والذهب.

انتعلت سباطها الأزرق بفروته القطنية العلوية. الأزرق لونها المفضل. الأزرق في كل مكان في حياتها، من أجل ذلك لا بد أن تذهب إلى «سيدي بو سعيد» كلما وجدت الفرصة متاحة وسنحت لها الظروف، بل إنها تتعذر بأي عذر كي تكون هناك. الأزرق يتعانق مع السماء في كل مكان. في الأبواب، في النوافذ والشرفات، في المقاهي والطرقات، في الأرصفة والأزقة. تتخيل أنها لو حلّقت من علو لرأت الأزرق يطغى على الأبيض، يخفيه كفضيحة تستوجب الستر والكتمان. الأزرق لا يشبهه شيء في السماء والبحر والأرض، لا يشبهه إلا الأزرق نفسه.

حين تكون في «سيدي بو سعيد» تنسى «نزوى» التي تحبها بأفلاجها المائية وحاراتها القديمة بما فيها حارة العقر التي تعشقها، وتنسى «مطرح» بكورنيشها وسوقها، وعبق تاريخ عُمان القديم في سلمه وحربه، وصراعات القوة بين المتناحرين على السلطة في السنوات العجاف الماضية، وعذابات الفقراء وجوعهم، وتنسى «صور» بنسيم هوائها وذكرياتها فيها، وأساطيل بحارتها وتجارتهم بين الشرق والغرب، وأشرعة صواري سفنها، وملامح الصلابة على وجوه رجالها ونسائها.

خلعت قميص النوم ولفت جسدها بمنشفتها ذات الوبر الناعم، واستوت واقفة أمام المرآة تتأمل وجهها وقد بدى عليها التعب. تساءلت كم عدد

الكيلوجرامات التي خسرتها منذ وصولها إلى تونس. رغم ذلك لا تزال تحتفظ بتقاسيمها الرئيسية: الأكتاف العريضة، الامتلاء الأنثوي، والخدود الوردية المكتنزة. استطاعت الحفاظ على رشاقتها وتناسق جسدها.

هنا يختلف نمط الحياة عن نمط حياتها السابقة، في الأكل والسهر والنشاط البدني والسكينة وعدم التقيّد بقوالب ثابتة لأيامها ولياليها. تجبرها الحياة هنا على الحركة باستمرار ما بين التجوال المستمر برفقة السياح، والاعتماد على نفسها في الحصول على ما تريد من متطلبات. تدرك جيدًا أن هذا هو اختيارها وقرارها وما ترى أنه الأنسب لتجاوز ما مرت به.

دلفت إلى الحمام وغمرت حوض الاستحمام بالماء، ثم سكبت صابونها الخاص المعطر وغاصت فيه فلم يظهر سوى وجهها. دفء الماء أشعرها بالاسترخاء قليلًا وأعاد لها ذكريات قديمة. أغمضت عينيها وأخذت نفسا عميقًا وأطلقته بهدوء، وغمغمت: «كل واحد منا يهرب من شيء ما في حياته لكننا مهما بذلنا لا نستطيع الهرب مما في دواخلنا وما نحمل همه على أكتفانا».

لاح طيف قيس في خيالها. هو حاضر دائمًا في كل يوم من أيام حياتها، يكاد لا تمر مناسبة دون أن تربطه بها. هذا الطعام تعرف أنه يحبه، هذا المكان تمنّت أن تكون فيه معه، تلك السيارة تشبه سيارته، هذا الشخص يحمل نفس اسمه، هذه الأغنية أهداها لها ذات يوم، وفي لحظة شيطانية

حدثت مرة واحدة قالت: «هذه القبلة كان من الأجدى أن تكون قبلته».. خمسة عشر عامًا بقي في قلبها كاتمة حبه، لكنها لم تستطع أن تطأ بقدمها القرية التي كانا يسكنان فيها. النزر اليسير من أخباره يصلها، أو ما يكفي لتعرف أنه لا يزال بخير. لم تحمل الحقد عليه، ولم تحمّله مسؤولية فراقهما، كانت تدرك أن الدنيا فرّقت بينهما بتدخل بشرَيّ لئيم. أدركت في ما بعد أنه لم يهنأ كثيرًا في زيجاته الثلاث التي انتهت اثنتان منها بالطلاق تباعا، «لابد أن مكاني بقي شاغرًا لم تستطع إحداهن أن تملأه ولا أعتقد أن الثالثة ستتمكن من ذلك» تقول دائمًا لنفسها.

حين انتهت كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف، تذكرت أن جدتها في هذا الوقت تمارس هواياتها المفضلة بتحضير ما تشتهيه من الغذاء. لا ينافسها في لذة الطعام الذي تحضّره إلا الطعام الذي تحضّره أمها. ورثت الكثير من أمها، وأمها ورثت الكثير من جدتها، لكن القاسم المشترك بينهن التأني في اتخاذ القرار، وإذا عزمن على فعل لا يترددن في القيام به. ورثت عن أمها الصبر والنفس الطويل وعن أبيها العناد وإنفاذ ما عقدت العزم عليه.

خمس خطوات بالتمام وكانت خارج الغرفة تطل برأسها على الصحن الداخلي للبيت العتيق الذي ورثته جدتها عن زوجها. لم يتغير فيه الكثير منذ أن كانت طفلة حين تجيء مع أمها. لا تزال تتذكر كل شيء هنا. لم يتغير فيه شيء غير غياب «سي أحمد» والحركة البطيئة لجدتها خديجة وتقدمها في السن. بقي البيت كما هو تقريبًا. الأشجار التي تحتل زوايا

صحن الدار تغير بعضها وكبر بعضها الآخر. مساحة من الجمال بروائح أوراقها ومنظرها البهيج.

كأغلب البيوت التونسية جمع بيت جدها مكونات عديدة من الموروث الثقافي التونسي. الداخل عبر الباب الرئيسي سيلاحظ تصميمه على شكل مقوّس، وزخرفته برسومات مسمارية على هيئة أقواس ومآذن، وعلى جانبيه وفي منتصفهما رسمٌ لسمكتين صغيرتين.

يقود الرواق المستطيل إلى الصحن الداخلي الواسع المكشوف منتصفه على السماء، ويستقر على الجانب الأيمن منه كرسيان كبيران متقابلان، تتوسطهما زربية قيروانية مستطيلة ذات تشكيلات وألوان مختلفة، وقد وضعت عليها طاولة مغطاة بقطعة مميزة من القطيف.

يشكل الصحن الداخلي في البيت التونسي ما يُشبه القلب النابض للساكنين فيه، فحوله تتحلق غرفة الاستقبال وما كانت تسمى قديمًا بيت القعاد، وغرفة إقامة الضيوف مجهزة بما يلزم، ومطبخ يحتل مساحة كبيرة، وعلى زواياه تتوزع نوافير صغيرة يتم التحكم فيها يدويًّا وعلى أرفف متناسقة في اللون والحجم صُفَّت مجموعة من الفضيات تأخذ أشكال الجمل والنخلة وأباريق زينة. على طرف الكرسي الملاصق لغرفة الاستقبال تقف طاولة مستديرة صُنع سطحها من الرخام المصقول الممزوج باللونين الأبيض والأسود يعلو ارتفاعها عن مسند الكرسي بعدة سنتيمترات، ووضعت عليها مكحلة فضية ومرش الزهر.

بعد استقرارها بقليل صرفت العاملة التي تخدم جدتها وكلفتها بساعات عمل أقل، ما بين كنس الدار وغسلها وتنظيف المطبخ والاهتمام بغسيل ما اتسخ من الثياب. لم تكن تلك الأعمال تأخذ منها إلا النزر اليسير من الوقت. أبقت على قدر الأجرة كما هو، وأقنعت جدتها أن للعاملة أطفالًا يستحقون رعايتها وزوجًا له حقٌّ عليها، وأنها ستتكفل بما تبقّى من أعمال وبرعاية جدتها إن احتاجت للرعاية وتلبية متطلباتها العاجلة منها والآجلة. أوفت بوعدها قدر ما أتاحت لها الظروف وما استطاعت من الإمكانيات. أما خديجة فكانت راضية بما تقدمه لها أميرة، سعيدة بأنها وجدت من يؤنس عليها لياليها وتترقب عودته وتستشعر حسه في الدار، لكنها تعتب في سرّها على أميرة تَرْكَها لأطفالها وانْفِصالَها عن زوجها، وهي المرأة التي – كما تراها – تنضح بالأنوثة وهي في سنّها هذا، أكثر مفاصل عمرها نضجا ورغبة.

فردت جسدها برفع يديها لأعلى نقطة استطاعت الوصول إليها، مطلقة صوتًا متموجًا يشرح بوضوح حاجتها للعودة في أسرع وقت للنوم من جديد. لكنها كانت قد اتخذت القرار مرددة: «لا تراجع لا استسلام.. لا تهاون لا خذلان»، مرسلة ضحكة من الأعماق أطلقت ساقيها عبر السلم الخرساني لترى جدتها.

(2)

«هذه النجاحات تعوض الإنسان بعض الإخفاقات الأخرى في الحياة. الحياة لا يمكن أن تعطينا كل شيء»

رواية «الذي لا يحب جمال عبدالناصر»

سليمان المعمري

وقفت خديجة في منتصف المطبخ تحضّر وجبة الغداء وقد أحاطت بها جرات كبيرة تحوي الزيت والدقيق وأنواعا متعددة من المعجنات، غير منتبهة لوقع أقدام أميرة، طفلتها المدللة.

كانت رائحة الطعام تملأ أرجاء المطبخ. تلك الرائحة التي تفتح شهية أميرة للأكل وتدفعها لتذوق ما يقع بين يديها. دائما ما تجادل أمها أن الطعام الذي تعده جدتها لا يقدر على تحضيره أفضل شيف في العالم، فله مذاق خاص يثير ذكريات طفولتها عندما كانت تأتي إلى تونس لقضاء عطلة نهاية العام الدراسي حين لا يكون والداها مشتغلين بعملهما الصحفي.

حتى اللحظة لم تكن خديجة متيقنة من استيقاظ أميرة لتناول الغذاء معها، وقد خشيت أن يكون حال غدائها كحال الفطور، إذ لا يزال طبق اللبلابي المتروك لأميرة لم يمسّ إلى جانب فطائر البامبلوني بالعسل.

تقدمت أميرة لتحتضن جدتها من الخلف طابعة قبلة على رأسها.

«خديجة يا خديجة.. آش تعمل، وأنت عندك بنت بنتك تعرف تطيّب». ضاحكة فاجأت جدتها..

«بنت بنتي ما تعرف كان النوم والسهر، وكأنها موش عايشة في العالم هذا إلا لملء الأمل بالفراغ».. ردّت الجدة وشعور بالفرح يسري في أوصال جسدها الثمانيني.

رسمت على وجهها تعبير الحزن، لكنها لم تتردد في إغراق الجدة بسيل من القُبل كيفما جاء على خدها ورأسها ويديها، لتغوصا في موجة من الضحك العذب تعودتا على ممارسته وكأن فارق العمر بينهما لا يزيد على بضع سنين.

- «أميرة اليُوم كالحاضرة الغائبة»
- «أميرة قررت اليوم تشارك أمها الثانية شويّة من نفسها، بش ما تقول لهآش جدتها أنها ما تعرفش كان النوم والسهر وملء خزانات العالم بالحكايات الفاضية إلا من الهراء»..

ردّت أميرة وهي تطبع قبلة على يد خديجة.

نصف ساعة كانت قد مضت حين أنهت السيدتان، الكبيرة والصغيرة، تحضير أطباق صغيرة من الكسكسي والطجين والسلطة المشوية والسلطة التونسية بنكهتها التي يطغى عليها الليمون وزيت الزيتون.. وبينما قالت الجدة في داخلها: «هذا الطعام تأكله عائلة» قالت أميرة لنفسها «من تعوّدَ على البرياني والمكبوس والأكلات القادمة من الهند بمذاقها الحار، عليه أن يجرب الأكل التونسي ليعلن توبته النصوح مما اقترفته معدته، ويحمد ربه ألف مرة إن تُقبَل توبته».

سألت خديجة:

- ياخِي بش يجي الناصر يأخذ بَايُو من النعمة؟

ردت أميرة وفمها يهرس أول قطعة من الطجين:

- ما تستنْاش يروّح قبل ما الليل يطيح.

بالنسبة للجدة لم تكن تترقب أي واحد منهما. تعوّدت على غياب ناصر منذ أن قرر العيش معها بعيدا عن أمه وأخته. تحدث نفسها منذ عدة أيام أنها ستتعود على غياب أميرة هي الأخرى وكأنها بعد لم تعد. أما أميرة فقد رحلت بخيالها إلى أيامها في عُمان، حين كانت تتلذذ بوجبة البرياني بالدجاج ومرقة اللحم على الأرز الأبيض، وحين كان السمك يأتيها مثلجا من المحالّ الكبيرة بأسعار مبالغ فيها في بلد يطلّ على بحار واسعة على امتداد عريض من الشمال إلى الجنوب. لم تكن تصدق أن ذلك البلد البحري لا تتوفر فيه كميات تغرق الأسواق من خيراته وتهوي

بأسعاره للأرض. «لكنه الخير الذي لم يحسن أهله الانتفاع منه»، تحدّث نفسها وهي تنظر في أنامل جدتها بعروقها الخضراء المتغضنة.

قبّلت خديجة أطراف أصابعها معلنة انتهاءها من غدائها:

- الحمد لله.. نعمة دائمة..

«دائمة يا رب».. أمّنت أميرة على قول جدتها لكنها واصلت وجبتها.

تشعر أنها لا تكتفي من الأكل الذي يحمل أنفاس الجدة. ومن قبل كانت لا تستطيع تناول الأكل الذي تقوم هي بإعداده.

بعد انتهائها من تنظيف الأطباق استأذنت جدتها في الصعود لغرفتها.

- آش رايك نتفرجو في مسلسل أولاد مفيدة الليلة؟ اقترحت الجدة.

ضحكت أميرة:

- لا يا جدتي. لا أولاد مُفيدة ولا شوفلي حل. يكفي وأنا صغيرة تعلقت بمسلسل الخطّاب ع الباب بسببك.

بدورها تعلقت الجدة بالعمل وبالشخصيات التي رسمها الكاتب علي اللواتي من خلال شخصية منانة لمنى نور الدين، وشخصية الشاذلي التمار لرؤوف بن عمر، وشخصية فطومة لرملة العيّاري، وأدوار سميّة رحيّم وعبدالحميد قياس ونجيب بلقاضي و....

قالت أميرة:

- عنديّ اقتراح خِير يا جدتي.. نطلع أنا وأنتِ نتعشى في البرّة ونسترجعوا ذكرياتنا القديمة. وبالمرة نحكي لك عْلَاش قررت العيش في تونس بشكل نهائي.

هزت خديجة رأسها بالموافقة.. تحركت الحفيدة من مكانها..

«ما تنساش تصلّي يا بنتي».. قالت مذكرة أميرة، وهي النصيحة التي تكررها منذ أن كانت صغيرة.

- ما ننساش..

ردّت لكنها لم تعد تتذكر متى آخر مرة استقبلت القبلة لتصلي. توقفت عن الصلاة منذ فترة طويلة، ربما منذ أن سقطت في براثن الشك في وجود الله. مرحلة من عمرها تحاول الآن مداراتها عميقا في نفسها. نادمة على ما اقترفت من ذنب. توقفت عن الشك وعادت للصواب لكنها لا تتذكر أنها واظبت على الصلاة لخمسة فروض متواصلة، ولا تتذكر بالفعل متى آخر مرة صلّت فرضين متتالين.

صعدت إلى غرفتها تاركة جدتها في الفناء الداخلي تتلو مع نفسها أذكارها التي تعودت تلاوتها. لم يكتب لخديجة زيارة بيت الله الحرام لكنها تُعرف بين الناس بالحاجة خديجة، أما أميرة فحجّت من قبل مرتين واعتمرت ثلاث مرات لكنها نسيت كيف هي الكعبة.

***

إلى طاولتها الصغيرة جلست، حيث يبدو كل شيء في غير موضعه الصحيح، كحياتها بشكل عام؛ لا شيء يسير في مكانه المفترض. ترى أن «الأشياء ليست في أماكنها» ولا تتوقع أنها ستكون في أماكنها الصحيحة. يثيرها المنظر إذا لاحظت أن خديجة أعادت ترتيب الفوضى في هذه الغرفة؛ فتتعمد تحريك كتبها وأقلامها ودفاترها وتوزيع رزم الأوراق على ثلاثة مجموعات ورميها على الطاولة كيفما صادف.

نظرت إلى رواية «نازلة دار الأكابر» التي لم تغادر موضعها على الطاولة منذ أن وضعت فيه لأنها لم تقرر بعد البدء في قراءتها. اشترتها بعد أن سمعت من يشيد بالرواية، وتشجعت أكثر لاقتنائها أن الكاتبة تحمل نفس اسمها الأول: أميرة، «أميرة غنيم».

أي نازلة تقصد أميرة؟ تساءلت أميرة فردّت زبيدة الحاضرة على لسان الآخرين: «عن شيء يشبه ما رأته عينيك هناك وعِشته بنفسك ولكن في نسخته التونسية. عن الاحتكار والتسلّط والاستغلال، عن الاستفراد بالرأي وكتم الآخر، عن عذابات من ليس بيدهم حولٌ ولا قوة ولا صوتٌ يُسمع».

مطّت شفتيها وأغمضت عينيها ولم يصدر عنها أكثر من همهمة متوجّع. أدرّكت المقصود؛ فحين لا يُحب الآخرون سماع غير أصواتهم يفقدُ من يرغبُ في البوح القدرة على تقبّل الحياة والبقاء فيها. البعض

يعتبر أن حماية الفاشلين والدفاع عنهم حماية لأنفسهم ووسيلة لزيادة قوتهم ونفوذهم.

فكّرت: تختلف الأوضاع السياسية والمكونات الثقافية والمجتمعية والمسبّبات التي قادت لكل ما يحدث، لكنْ القطران يتشابهان – إلى حدٍ ما – في المعاناة والألم، في الجوع والفقر، في الحاجة للبوح والخلاص من الكتمان، في الانعتاق من دوامة الضياع وفقدان الأمان الاجتماعي، في الرغبة اللحوحة للسلام الداخلي وللراحة النفسية.

سحبت مجموعة من الأوراق وقلمًا أزرقَ ودوّنت: «*كل يوم يمرّ يقرّبنا من الموت. نحن حين نكبر في العمر نصغر في مدة البقاء بهذه الحياة، وكما قيل نحن نتقدم في السّن أكثر مما نتقدم في بقية الأشياء. هل كانت حياتي مثالية للحد الذي يجعلني أكون راضية عن نفسي وعمّا مر بي وما اتخذته من قرارات.. لست أدري*».. تركت القلم يسقط على الكلمات ثم عاودت التقاطه لتكتب: «*أتأمل هيئتي أمام المرآة. في هذا الوقت من النهار ينساب شعري الناعم ليغطي كتفي وصدري وما ظهر من ساعديّ....*».

تراودها الرغبة الملحّة للكتابة، لأن تصبح كاتبة، لأن تعبّر عن نفسها وتجربتها في الحياة وتجربة أمها والناس الذين عاشت بينهم. في رأسها العديد من الأفكار، وفي هذه الدفاتر الكثير من العبارات الصالحة للاستخدام في أكثر من موضع وأكثر من طريقة، لكن الرغبة وحدها لا

تكفي. «سيأتي يوم أتخفف فيه من العاصفة التي تسكن فيّ. سينفجر البركان في الأخير وسأتخلص من حمولة ذاكرتي»، حدّثت نفسها ثم ما لبثت أن عاودتها القناعة أنه «لا يتحرر المرء بهذه السهولة من ماضيه. لا يتخلص المرء بهذه الطريقة من هذه الرمال المتحركة لوساوسه»[1].

نازعتها الرغبة في مغادرة الدار والتسكع كيفما جاء، لكنها لجمت تلك الرغبة منصاعة لقرار البقاء قريبة من جدتها. اليوم بالنسبة لها مناسبة لممارسة طقوسها المعتادة حين ترغب في لحظات الكسل المحببة إلى قلبها. اليوم عطلتها الخاصة وليس لديها مواعيد مؤكدة لفوج سياحي كما اعتادت أن تفعل حين تجيء إلى تونس في الأسابيع التي تقضيها برفقة جدتها خديجة وشقيقها ناصر. دورها يقتصر على مرافقة العوائل الخليجية التي لا تحبذ الخروج مع مرشد سياحي وتفضّل أن تتجول نساؤها مع واحدة من بنات جنسهن.. «*في كل الأحوال لم تعد الأفواج تتوافد على تونس كما كانت عليه من قبل*» تؤكد لنفسها.. لم تعد الأفواج السياحية بنفس زخم حضورها منذ الأحداث والتغييرات السياسية التي عصفت بالبلاد وغيّرت من شكل كل شيء تقريبًا، وأعادت تشكيل الثقافة الشعبية في ما يتعلق بحرية التعبير والمشاركة السياسية في شؤون البلاد. يخبرها ناصر ما سمعه وشاهده: «*هناك من اعتبر ما حدث خلاصًا من عهد استبد طويلا بحياة ومصير الناس وجب استئصاله من جذوره دون*

(1) رواية نداء الملاك، غيوم ميسو، ص310.

رجعة، وبتر أطرافه الفاسدة والمفسدة لكل ما تصل إليه»، ويضيف: «*على النقيض يرى آخرون أن تونس لن تعرف نعيمًا حتى وإن كان منقوصًا، وأن البلاد ستغرق، إن طال الزمن أو قصر، في وحل من الشتات والضياع والفقد*».

أما هي فاكتفت بالفخر أن هذا البلد – حيث ولدت أمها وجدتها وجدها – هو من قاد بقية الدول العربية وألهمها التغيير مهما كانت درجة نجاح ذلك التغيير، وأن هذا البلد لم يسمح للتدخلات الخارجية بالتوغل فيه رغم مغريات الأموال التي وُعد بها مقررًا حل مشاكله الداخلية بيد أبنائه وإن تعاركوا وتخاصموا، وإن سالت في أزقة حياة ناسه دماؤهم، فحين يتدخل الغريب في شؤون أهل البيت لا يهمه غير قضاء مصالحه وإن لبس ثوب الورع والصّلاح. لأهل تونس تجارب مع الفرنسيس والطليان والألمان منذ زمن طويل، تجارب تعلّموا منها الدرس جيدًا.

أرادت مواصلة الكتابة علّها تصبح روائية كما تتمنى، لكن هاتفها أعلن وجود رسالة عبر تطبيق «السناب شات»، بل كانت أكثر من رسالة توافدت على التوالي. المرسل صديق لا تعرفه، بدا لها أنه غريب علّق على مقطع بثته حول تفجيرين إرهابيين، وقع الأول منهما في نهج شارل ديغول القريب من شارع الحبيب بو رقيبة، والثاني قبالة الباب الخلفي لإدارة الشرطة العدلية في منطقة القرجاني، وخلّفا قتيلا وثمانية جرحى بينهم خمسة من العناصر الأمنية.

تذكرت أنها سجلت رسالة صوتية تطمئن متابعيها أن الوضع لا يدعو للقلق، وأن التفجيرين ليسا بتلك الخطورة على حركة الذاهبين إلى هناك. لا تتذكر بالضبط متى أصبح أحد متابعيها لكنها خمّنت أنه لم يمضِ وقتًا طويلًا بعد في تونس.

- *تونس آمنة بإذن الله.. واللي حصل ما رح يأثر على السياحة فيها.*

يحدث أن تنسى الرد على الرسائل التي تصلها لذا سارعت للرد..

- *تسلم خويا.. بإذن الله ما فيها شيء.*

برهة وتصل رسالة أخرى:

- *أنا زائر لتونس.. وين ممكن تنصحيني أروح أماكن سياحية.*

«واضح أنك زائر» قالت لنفسها..

- *شوف خويا.. تونس من شمالها لجنوبها تْنَجِّمْ تقول سياحية بتاريخها وثقافتها ومعالمها وطبيعتها.*
- *أمس كنت في الطريق رايح لشارع الحبيب بورقيبة لكن العناصر الأمنية قالوا لنا نرجع بسبب التفجير.*
- *إيه أسلم لك.. الوضع موش واضح..*

تأخر في الرد فسارعت لسؤاله..

- *خويا إنت من وين؟*

دقيقة مرت قبل أن يرد..

- *أنا من الخليج العربي.. إنتو تسموها بلاد النفط والغاز.. والجِمال.*

ضحكت وهي تحدث نفسها «سيظل الخليج العربي يلاحقك طول عمرك.. دمك أزرق كزرقة ذاك الخليج».

كتبت له: «*ممكن نساعدك في القيام بجولة سياحية في العاصمة تونس*».

- *صحيح؟! تقدمي لي خدمة ما رح أنساها.*

أعطته وعدًا باللقاء في شارع الحبيب بو رقيبة لأخذه في جولة سياحية في المكان.. حدثّت نفسها بما أنه غريب فالأكيد أنه لا يعرف في تونس غير هذا الشارع، أو ربما لم يصل إليه إلا اسم الشارع بأشجاره الشامخة ومقاهيه ومطاعمه اللاتي تضج بالحياة وتنتعش بالسكينة وترتوي بالجمال، وبمحاله التجارية المتعددة وكل ما فيه يعطي إيحاءات غير مباشرة بأنه نسخة أخرى من شارع الشانزليزيه في باريس.

اتفقت معه على اللقاء في اليوم التالي بعد أن تأكدت من مكان إقامته وجدوله لذلك اليوم. قرّرت أنه لا بد أن يقف أولا على قلب تونس التاريخي والسياسي، ففي الأخير يوصف الشارع بأنه متحف تونس المفتوح للتاريخ والأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية.

قبل أن تنسى حرصت على تبادل أرقام هاتفيهما، فالتواصل بعد الآن وهناك تحديداً إلى أن يلتقيا لن يكون إلا عبر خدمة الواتساب.

فكّرت أن تعاود المحاولة لتكون روائية قبل أن تستيقظ خديجة مكررة لنفسها تعهدها على أن تخصص لها ما تبقى من هذا اليوم لتكون معها.. «من العيب أن أتركها وحيدة ونحن حولها»، قالت بصوت حماسي فأصدرت المخدة همهمة ساخرة وضحكت دون أن تقول شيئًا.

(3)

«المستقبل لم يُكتب بعد، لم يكتبه لك
أحد، أنت فقط من تكتب مستقبلك».

دكتور ايميت براون
فيلم «العودة إلى المستقبل»

في إحدى الغرف المطلة على الطريق الجانبي لفندق ***Laico Tunis*** – أو كما عُرف في وقت سابق بفندق «أبو نواس» – ألقى سعيد بجسده على الفراش، مُمّنِيًا نفسه بالسفر في أحلامه لساعتين على الأقل قبل أن يغادر في رحلة التجوال المسائية كما خطط سابقًا، وكما اتفق مع مرافقه التونسي والمتعهد له بتلبية ما يحتاج.

منذ أن وقعت عيناه على الفندق من بعيد وقبل أن تجتاز السيارة التي أقلته من المطار البوابة الخارجية للفندق، أيقن أن الفندق لن يكون أقل من فئة خمس نجوم، بجمال المبنى الخارجي ثم بنظافة غرفه واتساع قاعاته وتميز الوجبات التي يقدمها.

«من حسن حظي أن المؤتمر خُصصت له إحدى قاعات الفندق» حدّث نفسه. حين تم إشعاره باختياره للمشاركة في مؤتمر «حرية التعبير في الدول العربية بين الواقع والطموح» تردّد كثيرا في قبول السفر إلى

تونس، ليس بعد الأحداث التي يسمع عنها تقع بين الحين والآخر. انفجار هنا وهجوم هناك واضطرابات سياسية ووضع غير مستقر. على الأقل هذا ما تحمله الأخبار الواردة من تونس. لم يكن ليقبل بهذه المهمة إلا بعد أن اطمأن إلى أن الجهة المنظمة للمؤتمر خصصت السكن في نفس مكان انعقاد المؤتمر، وتأكيدات بتنظيم حركة التنقل وفق إجراءات أمنية متفق عليها سابقًا مع جميع الدول المشاركة. حينها أقنع نفسه أن لا شيء يدعو للقلق وأنها أيام ستمضي كما مضى ما قبلها.

في مطار مسقط الدولي، في قاعة الانتظار، جلس سعيد يراقب حركة المسافرين. لكل واحد منهم حكايته الخاصة: عائلة تنتظره، أصدقاء يترقبون عودته، حبيب متلهف لرؤيته، هموم لم يُكمل حلها، فرحة متشوق للحاق بها. نظر لتذكرة السفر، أمامه ساعة ونصف الساعة قبل أن يحين موعد اللحاق بطائرة الخطوط الجوية القطرية على متن الرحلة رقم **QR1149** المجدولة عند الساعة الرابعة وأربعين دقيقة فجراً، المتجهة إلى مطار حمد الدولي لتصل بعد الخامسة بعشرين دقيقة بتوقيت الدوحة.

من هناك بعد ثلاث ساعات كان عليه التوجه إلى تونس عبر الرحلة رقم **QR1399**، ليقضي أكثر من ست ساعات بين محاولة تعويض ما فاته من النوم والتحديق في النائمين عن يمينه ويساره غير مبالين بالمطبات الهوائية وبكاء الأطفال الرضع وضحكات العائدين إلى حضن الوطن.

بعد الثانية عشرة بعشر دقائق هبطت طائرة البوينج الممتلئة بالركاب على أرض مطار تونس قرطاج، مفرغة حمولتها ومتهيأة لالتقاط حمولة أخرى تعود بها إلى الدوحة.

فور خروجه من ساحة القادمين لمح شابا تونسيا يحمل لوحة كتب عليها اسمه. سارع الشاب التونسي إلى مساعدته في دفع عربة الحقائب وهو يرحب به في تونس متمنيا له إقامة سعيدة وممتعة. توجه إلى أقرب صرّاف آلي وسحب مبلغًا قدّر أنه سيكفيه للأيام المقبلة، بعدها اشترى لنفسه شريحة هاتف مزودة ببيانات إنترنت لشركة **ORANGE**، تتضمن 10 جيجابايت للبيانات المتنقلة بسعر لا يتجاوز 25 ديناراً تونسيًا. حسبها في رأسه، ذلك يعني مبلغ ما بين 3 إلى 4 ريالات.

قال لمرافقه التونسي وهو يهرش رأسه:

- نفس الأسعار تقريبًا عندنا في عُمان.
- روعة.. الخدمة هذي من شركات الاتصالات ما تكلفش. هذاكا علاش ما لازمش يبالغو في سوم الاتصالات والنت.

ضحك سعيد وهي يتذكر أسعار الاتصالات وبيانات الإنترنت في عُمان «فعلًا لا وجه للمقارنة بين خدمات شركات الاتصالات هنا وهناك» حدّث نفسه.

أعجبه خياله الواسع واستلذ بأحلامه فأكمل يشرح لمرافقه..

- عندنا في عُمان خمس شركات اتصالات تتنافس على تقديم أفضل الخدمات بأقل الأسعار بعروض مذهلة. من شدة التنافس بينها يحتار الواحد منا أي شركة اتصالات يختار، فصرنا نتنقّل من شركة إلى أخرى نركض ورا عروض الشركات. جميعها شركات ظلّ.

لم يفهم مرافقه عبارته الأخيرة، لكنه استحسن ما قبلها فرفع كفّه الحرّة داعيًا رب العباد أن يرزق التونسيين نفس هذه الشركات، وأن يتنعموا بما تنّعم به العُمانيون. سعيد في سرّه كان يردّد: «الله لا قال. الله لا قال».

قبل ذلك في مسقط، في المطار الدولي الفخم، كان سعيد في انتظار موعد رحلته حين طرأت على باله فكرة وهو يقلب حسابه في تطبيق السناب شات. اتجه بالخارطة في التطبيق إلى تونس، وعلى زر «إضافة صديق» وجه الدعوة لعدد من المجهولين لقبول الصداقة. «بنت تونس»، كما تُعرّف عن نفسها، أول من قبل الدعوة. ظهرت لديه مجموعة من سنابات «بنت تونس» وهي تتنقل في مكان ما في تونس دون أن تظهر بوجهها. تصف المكان وما يحتويه، وأبرز ما يهم السائح فيه.

«تونس تشبه عُمان وتختلف عنها» قال. الأولى تقع في شمال قارة مترامية الأطراف مقابل بحر استراتيجي هو البحر الأبيض المتوسط والثانية في أقصى الوطن العربي بإطلالة على ثلاثة بحار: بحر العرب، بحر عُمان، والخليج العربي. تشتركان في السواحل البحرية والجبال

والكثبان الرميلة لكن إحداهما تعرف بالخضراء والأخرى لم تسمح درجات الحرارة المرتفعة وطقسها غير الممطر في أن تلامس الخضرة إلا مساحات محدودة منها، حتى الجبل الأخضر ليس بأخضر بل أقرب للّون البني الفاتح منه لأي لون آخر. تشتركان في المواقع الأثرية القديمة وتختلفان في استغلال ذلك لجذب السياح، إحداهما وظفت مقوماتها التاريخية والأخرى لم تُدرك بعد الكنز الذي تضمه.

رفض المقارنة بين المتشابهتين والمختلفتين والمتناقضتين. «*لا أحد يشبه أحد، ولا أحد يقارن بآخر*» يعرف جيدًا أنه لن يكون في يوم من الأيام مثل جده الأكبر «سعيد بن سالم» حتى وإن حمل اسمه وجيناته الوراثية: جده لأبيه بل هو تحديدا جد أبيه. ذاع صيته في الستينات والسبعينات من القرن العشرين وعرفه الناس بشدته وقوة بأسه، كما عرفوه بكرمه وخيره الذي نال الكثيرون نصيبًا منه. يحكي له والده عن «سعيد بن سالم» المشهور بلقب عائلته «أولاد الحار» وثروته التي كوّنها من التجارة عبر البحار ومحاصيل مزارعه. ثروته التي خسر أغلبها في يوم واحد. «ولدّ الحار» لم ينافسه في تجارته ويحسده عليها غير حمود بن زاهر ربيب طفولته، وأكثر شخص أحسن إليه وقرّبه فكانت المنافسة بينهما على أشدها، لكنها ازدادت ضراوة وتغيرت لمجرد أنه ناداه ذات يوم ممازحًا ب «ودّ الهيل» كناية عن متاجرته ببيع الهيل، فسار اللقب عليه وكاد الناس أن ينسوا اسم حمود بن زاهر. حملها «ودّ الهيل» ضغينة في قلبه وكأنه

وجد لنفسه مسوغا ينفض بسببها ما كتمه في قلبه فصار يتربص بعدوه الجديد، صديقه القديم، وحين حانت الفرصة لم يتردد في اقتناصها.

يخبره والده أن «ودّ الهيل» اتفق مع عدد من المنتفعين فأحرقوا سفن جدهم الراسية بأمان محملة ببضائع متنوعة تستعد لنقلها إلى البحرين والبصرة وصور، واتفق مع آخرين فأحرقوا بعض المزارع في غفلة من العاملين فيها. ضربة واحدة موجعة وخسائر تكبدها «ولد الحار»، ولم يستطع أن يثبت المتورط فيها حتى ظهرت الحقيقة بعدها بسنوات حين أصبح اسم حمود بن زاهر في مقدمة كبار التجار وأكثرهم امتلاكا للأراضي والمزارع والسفن التجارية.

ظلت عبارة والده سالم بن راشد حاضرة في رأسه وهو يقول:

«يبقى الخنوخوش الفاصل بين بيت جدي سعيد بن سالم وبيت العم خلفان بن صالح من أكثر الخناخيش رسوخًا في الذاكرة، فعبره حدثت الكثير من المطاردات بين جدي ورجاله من جهة وبعض خصومه. لكن الحدث اللي ما أنساه تعرض عمي ناصر لعدة طعنات غادرة بنصل حاد قطّع أمعاءه. وهو الحدث اللي حطم جدي ووالدي وحطمنا معه».

كان ناصر أكثر أبناء سعيد بن سالم شبهًا بوالده في الشكل والجسارة والهمة العالية. عُرف عنه شجاعة مطلقة أدخلته في صراعات كثيرة تمكن من تجاوزها، لكنه وقع في يد السلطات التي قررت حبسه في غرفة عليها حراسة داخل قلعة منيعة تطل على البحر، ولم تؤتِ مساعي سعيد بن

سالم ثمارها في الإفراج عن ابنه فبقي سنتين كاملتين رهين الحبس، حتى قررت السلطات الإفراج عنه، لكنه لقي حتفه بعد ذلك بثلاثة أيام فانكسر «ولد الحار» فلم يعد ما كان عليه قبل تلك الحادثة.

ذهبت محاولات أبنائه راشد وخميس أدراج الرياح. استسلم لعزلته فكاد ما تبقى من تجارته وماله أن يذهب حتى قرر أبناؤه وبناته تولي الأمور نيابة عنه. اهتم راشد بمزارعه وتابع خميس تجارة البحر ومحالّه، وأدارت أخواتهم شؤون البيت والعناية بالمفطور قلبه.

انتفض من ذاكرته على صوت رنين الهاتف الداخلي للغرفة. كان المتصل أحد المشاركين معه في المؤتمرفقدّم الكثير من الاعتذارات لما قاله في كلمته خلال المؤتمر. شرح أنه لم يكن يقصد الإساءة لعُمان أو الانتقاص من مكانتها بين الحاضرين.

في معرض حديثه عن حريات التعبير في الوطن العربي ضرب الحقوقي الجزائري مثالًا بما قال إنه انتهاكات حقوقية في سلطنة عُمان، مشيرًا إلى وقوع حوادث اعتقالات في صفوف الصحفيين وبعض الأفراد لمجرد تعبيرهم عن وجهات نظرهم أو حديثهم في الشؤون العامة.

حينها طلب سعيد التعقيب على ما جاء في كلمة زميله..

- الإخوة والأخوات المشاركين في هذا المؤتمر. بداية أود تسجيل كلمة اعتراض على ما جاء في كلمة الأستاذ عزيز كونها تضمّنت إشارات منقوصة وتلميحات مبالغ فيها، عارية عن الصحة لا

أساس لها ولا تستند على حقائق يُعتدّ بها. الحقيقة أننا في عُمان نولي مسألة حرية التعبير أهمية بالغة تنطلق من الرؤية الحكيمة لسلطان البلاد، وهو ما تجسّد في مجموعة القوانين والتشريعات التي تكفل حرية التعبير عن الرأي.

قلب صفحة دفتر الملاحظات قبل أن يُضيف:

- القضايا الداخلية في عُمان قابلة للنقاش بكل حرية وبمنتهى المصداقية والشفافية، شرط أن تتوافق مع قوانين جرائم الاتصالات وتقنية المعلومات وتنظيم العمل الإعلامي والجزاء العُماني. الكل في عُمان من حقه التفاعل مع تلك القضايا دون مضايقة أو تقييد.

«ولكن الواقع يتحدث»... قال عزيز فقاطعه سعيد وكان قد اتخذ قراره بقول ما يريد دفعة واحدة.

- أرجو المعذرة الأستاذ عزيز. الواقع هو ما سأخبرك به. حرية التعبير مكفولة للجميع كما قلت لكم. وللجميع الحق في ذلك بما لا يتجاوز الضوابط ولا يتعدى حرّيات الآخرين أو ينتهك خصوصياتهم أو يلصق بهم تهما دون دليل ملموس. هذه الحال موجودة في كل الدول العربية بما تنص عليه قوانين كل دولة. فلا يوجد استثناء في بلدانكم عما يمكن أن يحدث في الدول الأخرى.

صمت قليلا قبل أن يضيف:

- الحوادث التي تحدثتَ عنها أستاذنا العزيز لا ترقى لوصفها اعتقالات فهي لا تتجاوز تحقيقات قصيرة يتم فيها الاستفسار عن بعض الجوانب ثم يُغادر الشخص دون أن يمسه سوء. والحالات القليلة التي بقي فيها البعض في الحبس جرت بعد التثبت من حدوث تجاوزات محددة وفقا للقانون. وأنا هنا أتحدى أن يثبت أحدٌ عكس ذلك. أما إلقاء القول هكذا دون التأكد منه فهو مرفوض تمامًا، وأنا على يقين أن أي واحد منكم لن يتقبله على بلده.

«والصحيفة التي أغلقت؟» تساءل عزيز.

- الإغلاق جاء بحكم من المحكمة. رأت أن تجاوزات وقعت وأنها لم تكن الأولى، فقد سبقتها حوادث أخرى، كما رأت المحكمة أن ما قامت به الصحيفة يستحق الحكم الصادر في حقها. بإمكان كل واحد منكم متابعة حيثيات القضية بتوسع. أود التأكيد هنا على استقلالية القضاء في عُمان ونزاهته، وما أريد قوله أيضًا والتأكيد عليه أن سلطنة عُمان ملتزمة بالحفاظ على حرية الأفراد في التعبير عن رأيهم، ولا يتم مصادرة الآراء ولا التضييق على أحد منهم. لسلطاننا قولٌ يجري على كل لسان: «نحنُ لن نسمح لأحدٍ أن يُصادر الفكر».

ساد الصمت بين الحضور..

أغلق سعيد الهاتف وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء.

«لا فائدة من البقاء أكثر.. أحتاج لرؤية الحياة في تونس».. حدّث نفسه.

فتح تطبيق الواتساب في هاتفه وبعث برسالة لمرافقه يشعره بالرغبة في الخروج ثم فتح محادثة جديدة..

- *أهلا.. موعدنا بكره الساعة الثالثة بعد الظهر لكن الليلة أريد أخرج للسهر.. وين تقترحي عليّ؟*

بعد دقيقة جاء الرد..

- *هلا بيك خويا.. إذا تحب إمشي ل* ***Billionaire Gammarth*** *باش تنبسط كثير».*

وأتبعت عبارتها بإيموجي مبتسم.

- *هذا إيش بالضبط؟*

«نادي ليلي». ردّت ثم أضافت *«وفق الديوان الوطني التونسي للسياحة هو مطعم سياحي.. لكنّي نخبرك من توّا ذاك يعني أنه أقرب لنادي ليلي»..*

ضحك وهو يتخيل فتاة تونسية تقترح لشاب لا تعرفه ولا يعرفها بأن يذهب لملهى ومشاهدة فتيات يرقصن ومقارعة الشراب..

«ملهى ليلي؟» سألها ليتأكد..

- *لا يـــروح مخـــك بعيـــد خويـــا.. ملاهينـــا غيـــر ملاهـــيكم.. هههههههههه.*

ثم أعقبتها بعباراتها التي أوقعته في ضحك متواصل: *«أنتم أهل الخليج تصرفوا أموالكم على رؤية أجساد ماهياش متاعكم وشراب ما ينفعكمش وتطلعوا من غادي بعقول موش خير من اللي كانت عليه»*.

«كلنا في الهمِّ عربُ» رد. قرر الأخذ بنصيحة مرافقه التونسي الذي بعث له رسالة هو الآخر يقترح عليه الذهاب إلى **Café Lounge The Gate** مؤكدًا له أنه سيعجبه. ليس مثل أبناء البلد يعرفون أين يوصلونك بحسب ما تريد.

***

على مقربة من المقهى بمنطقة ضفاف البحيرة أوقف المرافق التونسي سيارة المهمات المخصصة للضيوف، وترّجل منها سعيد بعد فشله في إقناع مرافقه بالدخول معه وتناول العشاء. اتفقا على اللقاء في اليوم التالي بعد انتهاء جلسات المؤتمر.

عبر المدخل الرئيسي للمقهى المزدحم بزبائنه على اختلاف فئاتهم: مجموعة شباب من مختلف الأعمار تحلّقوا حول طاولات متقاربة عليها مختلف صنوف الطعام، بينما تعلو أصواتهم بالضحك والكلام. ومجموعة أخرى من الأسر حرصت على اصطحاب أطفالها لقضاء وقت

عـائلي حمـيم. وفتيـات تجمعـن للاحتفـال بمناسـبة مـا تكدّسـت حـولهنّ هدايا مغلفة وضعت بانتظام على الأرض.

تجاوز سعيد الساحة الداخلية خلف النادل الـذي طلـب منـه الجلـوس في الخارج حيث انتظمت طـاولات منخفضـة تحيط بهـا كراسي بتصـميم متناسق الألوان. في السـاحة الخارجيـة كـان الجـو لطيفًـا يسـمح الجلـوس بأريحية وبتناول الطعام، والمكان أقل صخبًا مما هو عليه في الـداخل. بـدا له ما حوله أكثر جمالاً بالإضاءات الخافتة ونسـائم الهـواء العليلـة. طلـب وجبة خفيفة ونرجيلة بطعم التفاح كـان قـد لمحهـا في طريقـه إلـى السـاحة الخارجيـة في متنـاول بعـض الزبـائن، فأعجبـه شـكلها الصـغير وطريقـة تصميمها من الزجاج الشفاف، إذ يحيط الأنبوبة الموصـلة للـرأس صـحن زجاجي مجوف وضعت فيه قطع مـن الـثلج وصـحن أصـغر وضـع تحـت الرأس مباشرة ويتصل بالأنبوبة الزجاجية خرطوم سحب الدخان.

ليس ببعيد عنه على بعد طاولتين جلست سيدة في منتصف الثمانين من عمرها - علـى مـا يبـدو- وفتـاة في الثلاثينـات تتجـادلان بصـوت مـنخفض. الصـغيرة تُصـرّ علـى أن أحـلام جيلهـا تحققـت بعـد الثـورة، بينمـا الكبيـرة تخبرها أن أحـلام الكبـار في السـن طُمـرت. رددت العجـوز بضـجر: «أمـة ماتت علـى نفاسـه والـدّار طاحـت علـى بقيـة ناسـو».. ضـحكت الصـغيرة فعاجلتها الكبيرة: «خلّيها في القلب تجرح ولا تطلع من الفم وتفضح».

(4)

«ربما لذة الحب في هزائمه وخساراته».

رواية «الرولة»

يوسف الحاج

على بعد أقل من ألف وخمسمائة متر من شارع الحبيب بورقيبة دلف سعيد إلى غرفته في الطابق الرابع من الفندق. أمامه ثلاث ساعات قبل أن يحين موعده مع «بنت تونس». فكّر كثيرًا كيف سيكون لقاؤه بهذه الشابة. لم يكن قد خطط للتعرف على أي فتاة في تونس خلال رحلته هذه، لكن ها هو يضرب موعداً للخروج مع فتاة تونسية في جولة داخل العاصمة.

قبل مجيئه إلى تونس كان كل ما تمناه أن يجد متسعًا خارج جلسات المؤتمر لزيارة بعض المواقع السياحية والمطاعم العامة. من خلال خبراته السابقة لا تتيح المؤتمرات وحلقات العمل والمهرجانات واللقاءات الرسمية أي مجال للتعرف على البلد الذي يحتضن فعالياتها.

يُهدر المشاركون في هذه التجمعات نهارهم ولياليهم ما بين جدول مزدحم بالسرد اللفظي والمجاملات الرسمية والقيود الأمنية. فور وصوله إلى تونس اتخذ قراراً بالتمرد على كل ذلك، فعقد العزم على التجول في تونس مهما كانت التحذيرات من خطورة الوضع الأمني.

وحيدًا جاء من عُمان لا يعرف عن تونس غير أنها بلد الحبيب بورقيبة وزين العابدين بن علي وشاعر الخضراء أبو القاسم الشابي والمصلح الاجتماعي الطاهر الحدّاد، بلد لطفي بوشناق وصابر الرباعي وهند صبري، بلد أحمد الحفناوي الذي هرِم قبل ثماني سنوات ولم يهنأ باللحظة التي حلم بها. لا يعرف عن تونس أكثر من أنها شرارة الربيع العربي وأنها الخضراء، وأنها بلد نسور قرطاج، بلد مدّرسيه التوانسة الذين علموه في المدارس الحكومية.

لا يعرف عنها أكثر من ذلك. حتى حين أضاف بنت تونس في السناب شات لم يتخيل أكثر من حاجته لسؤالها عن مكان ما أو أن يطلب اقتراحها حول موقع هنا وآخر هناك.

خلال ما تبقى له من وقت قبل موعده المرتقب رغب في أخذ قيلولة قصيرة لاستعادة نشاطه والتخلص من ترهات زملائه الحقوقيين وشعاراتهم وقصصهم التي نثروها في جلسات المؤتمر. لم يكن يزعجه أكثر من التنظير والتشدق بالعبارات المطاطية حول مسألة هي من أكثر المسائل إثارة للجدل وأكثرها قابلية للتأويل: «حرية التعبير». سأل نفسه: أيُّ تعبير ينشدون وأي حرية يريدون؟ ألم يُكتب في قدر العرب أن يبقوا أسرى حظيرة الأفواه المكممة؟ أليس الله يعاقبهم على جُبن قلوبهم وسواد سرائرهم؟

يدرك أن أغلب من يتحدثون عن ضرورة منح الآخرين حق حرية التعبير عن آرائهم لا يتحملون نقد الآخرين لهم، وكأن حرية التعبير يجب أن لا تقترب من ساحتهم الخاصة ولا تتعرض لقصورهم وأخطائهم. هؤلاء -من وجهة نظره- أخطر على العالم ممن يجاهرون بمحاربة حرية الرأي، أو ممن يضيقون الخناق على مبدأ الرأي والرأي الآخر.

خلال جلسات اليوم التزم الصمت ودوّن بعض الملاحظات لتسجيلها في التقرير المطلوب منه كتابته بعد انتهاء المؤتمر ورفعه لمسؤوليه. راودته رغبة ملحة في مغادرة القاعة أكثر من مرة، لكنه قاوم رغبته تلك ولم يهوّن عليه ما به من ضجر غير فترات الاستراحة المجدولة. فيها وجد متنفسه.

يكاد يكون الوحيد الذي يبالغ في تأنقه خلال حضوره لجلسات المؤتمر. قبل سفره إلى تونس أنفق أكثر من مائتين وخمسين ريالًا عُمانيًّا لشراء مجموعة متنوعة من الملابس يدرك جيدًا أنه لن يلبسها في مكان آخر، على الأقل ليس بالمنظور القريب. توجه إلى محل **M&S** وانتقى مجموعة من بنطلونات بلون أسود وكحلي وأزرق داكن وتيشيرات سوداء وبيضاء بأكمام قصيرة وقمصان سوداء وبيضاء وزرقاء بأكمام طويلة. كان من المقرر أن يأخذ معه على الأقل بنطلون جينز أزرق مائلًا للسواد بخصر ضيق، لكنه تراجع مكتفيا بإضافة حذاءين رياضيين سهلي الارتداء وعدد من الملابس الداخلية مصنوعة من القطن الفاخر.

لـم ينسَ عطـره المفضـل: «كيـان» برائحتـه الزكيـة المحببـة إلـى قلبـه الممزوجة ما بين المسك واللبان. أعجبته فكرة العلامة التجارية «عراقة» في المزج بين اللبان العُماني والمسك ليخرجوا بهذا العطر الشرقي الفوّاح. وحتى قبل أن تبدأ توزيع منتجها كان سعيد قد اقتنى مجموعة منه.

تسـاءل: «هـل مـن حسـن التصـرف إنفـاق كـل هـذا المبلـغ علـى هـذه المجموعة من الملابس باهظة الثمن وهو متيقن من أنها ستخزن في أحد الأرفف لفترة طويلة جدا؟». هـز كتفيه بعـدم الاكـتراث فكـل مـا أراده أن يعيش اللحظة ويتأنق وكأنها المرة الأخيرة في حياته. «من يدري» قال وكله أمل في رحلة أخرى سواء في مهمة عمل أو للسياحة.

ضبط منبه الهاتف وغط في النوم..

***

بمحاذاة الرصيف الجانبي لـدوار بـرج السـاعة وقفـت سيارة الأجـرة. ترجلت منها أميـرة بعـد أن ناولـت السـائق أجرتـه. بمحـاذاة الـدوار وقـف ثلاثة من العناصر الأمنية لتنظيم حركة السير بعد إغـلاق الطريـق المـؤدي إلى الداخل لشارع الحبيب بورقيبة ضمن إجراءات أمنيـة احترازيـة عقـب التفجيرين الأخيرين.

وقفـت أميـرة – ذات البشـرة الصـافية الخاليـة مـن الحبـوب والـنمش والعيـون الواسـعة – علـى ناصـية الطريـق فـاردةً طولهـا البـالغ مئـة وسـتة وسبعين سنتيمترًا. لا توحي ملامح وجهها أنها تجـاوزت بقليـل السادسـة

والثلاثين من عمرها. وجهها شبه دائري، يحوي أنفـًا مستقيما يظهر أسفله خط خفيف غائر فوق الشفة العلوية الأكثر امتلاء من الشفة السفلى، وزاد جمال عينيها حاجبان كثيفان عند النقطة التي يلتقيان فيها وتقل كثافتهما بالتدريج باتجاه الطرفين المتعاكسين، ويبرز ذقن نحيف وغمازتان صغيرتان تظهران بين الحين والآخر. إلى اليسار أعلى شفتها العلوية تستقر شامة صغيرة يخال المرء وهو ينظر إليها في موضعها ذاك أنها اصطناعية وقد وضعت لدواعي زيادة الحُسن حُسنا. حين تبتسم يمكن رؤية أسنان بيضاء منتظمة حرصت على العناية بهما مثلما كانت تحرص على الحفاظ على صفاء بشرتها والعناية بشعرها المقصوص بعناية ليصل إلى منتصف جسدها.

كان لها شعر أسود طويل متموج يظهر في بعض خصلاته لون أشقر غامق تحرص على أن يبقى مسدلاً، وكأنها تريد أن تعوضه عن سنوات حرمانه من الحرية ومعاناته في حبسه الانفرادي تحت أقمشة يتغير لونها كل يوم بتغيّر مزاج كل شيء من حولها. لم يكن لأحد أن يمنعها لو أرادت إطلاقه.

كثيرا ما كانت صديقاتها في عُمان يتغامزن بالقول إنها تشبه «ميغان بون» وأنها تكاد تكون نسخة طبق الأصل منها حين تكون حزينة وحين تترقرق الدمعة في عينيها، لكنها تعرف جيداً أن كثيرًا من ملامحها وصفاتها وطباعها أخذتها من أمها تونس.

كانت ريحٌ خفيفةٌ تُداعب شعرها، ونسمة هواء عليلة تلامس خديها وهي تجول ببصرها حولها، وأصوات القادمين والمغادرين تملأ المكان، فيما السيارات تواصل الدوران حول برج الساعة. على يسارها يلوّح عنصر أمن بيده لسائق سيارة يحثّه على التحرك، فيما يعيد زميله إغلاق الشارع بحاجز حديدي بعد أن سمح لدورية أمنية بالمرور باتجاه مقر وزارة الداخلية. وعلى يمينها مجموعة من الأشخاص يهرولون للّحاق بسيارة أجرة توقفت جانبا، وهناك رجل في منتصف عمره يمسك بيد طفل، ويده الأخرى تلتقط صورا أخيرة قبل مغادرته للمباني المحاذية لشارع الحبيب بورقيبة، وعلى مقربة منه شاب وفتاة متشابكا الأيدي يتهامسان بفرح غير مبالين بالعيون التي تشاركهما سعادتهما. «في تونس تكمن الحياة بشتى متطلباتها» قالت في داخلها وابتسامة رضا ترتسم على وجهها.

استقر رأيها أن تونس أفضل حالًا من دول الخليج العربي، رغم أنها لا تملك من البترول والغاز كما يملكون هناك. ترى أن ذلك أفضل لتونس فلا أحد يتحسف على أموال بلادهم المهدورة، ولا على مواردها غير المستغلة، ولا على غياب التخطيط، ولا على تخبط مسؤوليها في إدارتهم للمال العام. هي مقتنعة أن التونسيين اكتفوا بما بين أيديهم وأنهم يرسمون لأنفسهم خطًّا يسيرون عليه، وأهدافًا يسعون – رغم قلة حيلتهم – لتحقيقها، عكس تلك الدول الغنية التي لم تدرك حجم النعمة التي تفرّط

فيها. ترى أن تونس بها من التنوع الحضاري والثقافي ما يشبه التنوع في عُمان فأحسنت، قدر استطاعتها، استغلالها.

هيأتها بدت متناسقة إلى أقصى حد، فقد ارتدت بنطلونًا واسعًا غامق اللون يقترب من اللون الأسود، وقميصًا أحمر بأكمام قصيرة تصل إلى الرسغ، نُقشت عليه رسومات تشبه من بعيد تفاحتين بحجم كبير تلتف حول كل واحدة منهما خطوط حلزونية عريضة. على كتفها علّقت حقيبة نسائية ذات لون رمادي، ولَفَّت حقيبة سوداء حول خصرها، فيما انتعلت حذاءً رياضيًّا مسطحًا باللون الأسود مزينًا بخطين أحمر وأبيض، وعلى معصم يدها اليمنى لفت مسبحة خضراء تتدلى منها حلقة معدنية، وبقيت يدها اليسرى خالية من أي شيء عدا جهاز الآيفون الذي تحمله، وحين فردت خصلات شعرها خلف رأسها بان قرط دائري أبيض. بالنسبة لها هذا أقصى ما تستطيع القيام به، وقد خلا وجهها من أي مساحيق عدا حمرة خفيفة على شفتيها تكاد لا ترى.

فكرت أنها بحاجة لتناول قهوة مرّكزة تعيد بها نشاطها، فكان خيارها الأول التوجه للمقهى المنصوب في أول الشارع بكراسيه المستظلة تحت الأشجار والمغرية للركون إليها. طلبت قهوة **(Doppio Espresso)** وعلبة ماء وكوبا مليئا بالثلج، واتخذت مكانها على طاولة شاغرة. لا يزال أمامها ساعتان على الأقل قبل أن يحين موعد لقائها بالشاب الخليجي. خطر ببالها هذا الصباح الاعتذار منه بعد أن شعرت بخمول يكتسح

جسدها، لكنها تراجعت عن ذلك فهي من تلك النوعية من البشر الذين إذا أعطوا كلمة لا يتراجعون عنها كما هي حال مواليد برج الأسد، وثانيا لأنها استسلمت لرغبة ملحّة في لقائه. نداء خفي دعاها لعدم التخلف عن موعدها مع ابن الخليج، الخليج الذي فيه أفراحها وأحزانها وذكرياتها بحلوِها ومُرِّها.

فتحت محفظتها فوقع نظرها على صورة ابنتها الصغرى ذات السنوات الخمس فسرت في جسدها قشعريرة. تعرف أنها اتخذت قرارا مؤلما بالهرب إلى تونس وترك ابنها قيس وابنتيها العنود والريم عند طليقها وجدَّتِهم. وإذا كان القرار مؤلما لها فهو بالنسبة لأطفالها أكثر إيلاما وقسوة، فلا يمكن أن يتصوروا مبررا مقنعا له مهما حاولت ومهما شرحت، لكنها في تلك اللحظة التي اتخذت فيه قرارها رأت أنه الأنسب للجميع والأكثر عقلانية.

قيس في العاشرة من عمره الآن، الطفل الذي أصرت على أن تسميه بنفسها، الاسم الذي تنطقه في اليوم الواحد عشرات المرات، الاسم الذي يذكّرها بالحب الأول في حياتها. قيس المدلل، الذي بقي مدللًا حتى بعد أن رزقت بطفلتين حملتا ملامح أمهما. ظل قيس في مكانته في قلبها ولم يتزحزح.

هل من الخبث أن تسمّي بكرها على اسم من أحبت لكي لا يفلت لسانها ذات غفلة باسمه من غير شعور أو انتباه؟ وهل يستحق الحبيب الذي تخلى عنها أن تُخلّد ذكراه في حياتها وتحتفظ باسمه في حضنها؟

أصرّت على أن تسمي ابنها البكر قيسًا. كما يحدث أن يسمي بعض الرجال إحدى بناته على اسم امرأة تعلّق بها وأحبها، تسمّي بعض النساء أحد أبنائها على اسم رجل دخل قلبها ومنّت النفس بأن تكون زوجته. يتشابه الرجال والنساء في حفر مجرى لمسار ذكرياتهم، يربطون بشكل أو بآخر الذي بين أيديهم بما كانوا يتمنون أن يكون. وكما لا تعرف الزوجة أن ابنتها هذه هي في الحقيقة امرأة أخرى في قلب زوجها، لا يعرف الزوج أن ابنه الذي تضمه زوجته على صدرها وتدلله وتفضّله على إخوته وتتعلق به هو ذكرى رجل آخر مرّ بحياة زوجته لم تنجح في أن يكون هو في حضنها أو تكون هي بين يديه في الواقع لا في الخيال.

القلوب مستودع الأسرار؛ إذا ما أصبحت مرئية ومكشوفة رأينا ما يذهلنا ويصعقنا، مثلما هي الذكريات ملاذنا الأخير للسلوى والتصبّر، منها نستمد جَلَدنا وفيها نفرّغ همومنا، وكان الله في عون الخائبين.

قبل خمسة عشر عامًا نشأت قصة حب في قلبها، وكانت في سنوات دراستها الأولى بكلية التربية. قيس الابن الأصغر لزاهر بن حمود وأكثرهم انطواءً على نفسه، فلا يكاد يراه أقرانه في القرية الساحلية إلا ما ندر، فلا يشاركهم اللعب على الشاطئ ولا يرافقهم في جولاتهم إلى سوق

السمك القريب، وفي المرات القليلة التي يشاهد فيها يكون وحيدًا بيده كتاب يقرأه. كانت تلمحه بين الحين والآخر وتراه أكثر حين تزور مع أمها أمه. ذات يوم تلاقت نظراتهما فبرق شعاع في عينيّ كل واحد منهما، «كأنهما يلتقيان لأول مرة.. ثمة شعور اجتاحهما معًا، تمامًا كذاك الذي يوصف بأنه حب من النظرة الأولى»[1]. ابتسم فابتسمت ونكّست رأسها خجلة وتورّد خدّاها وتسارعت نبضات قلبه. منذ تلك اللحظة خرجت للحياة بذرة الحب بينهما.

هي ابنة سالم بن خميس وهو ابن زاهر بن حمود، أبناء عائلتين دفنتا الماضي وفتحتا صفحة جديدة، لكن النار بقيت تحت الرماد لم يُسكب عليها الماء لتموت. نشأ الجيل الجديد من العائلتين في ظروف مختلفة عما كانت عليه في زمن آبائهم وأجدادهم. تغيّرت المعادلة تمامًا، فلا يقدر أيٌّ كان أن يأخذ حقه بيده، ولا يتجرأ أحد على تجاوز سلطة القانون أو يتعدى على الآخرين، لكنّ المال سيد كل المواقف، من لديه المال لديه اليد العليا على الآخرين.

بعيدا عن العيون سرى الحب بين أميرة وقيس، كبر وتعاظم، في السر تبادلا رسائل مكتوبة، وأشرطة غنائية لكاظم الساهر ومحمد عبده وصباح اللامي: المطربين الذين شكلوا ذائقة ذلك الجيل. أهداها أغنية «زيديني عشقًا زيديني» وأهدته أغنية «اختلفنا مين يحب الثاني أكثر»، وحين أرسل

(1) رواية حدائق الرئيس، محسن الرملي، ص197.

لها أغنية «بين العصر والمغرب» رقصت على أنغامها والسعادة تكاد لا تسعها.

كانت لها حياتان، واحدة تلك التي تعيشها بين أهلها والناس من حولها وتتفاعل فيها مع كل ما يتماس ويتقاطع ويعترض طريقها، والأخرى هلامية في خيالها وسرها لا يراها غيرها ولا يعرف عنها أحد، فيها تنسج خيوطها الخاصة وتبني جدرانها وتهدم ما لا يلائمها، وفيها أسكنت قيسًا وسكنت معه. إلى الثانية تهرب عندما تضايقها الأولى وعندما ترغب في نسيان ما يسيئها فيها أو لتخفف من أمر أرهقها. كانت بالنسبة لها الملاذ الأجمل، وليس فقط الآمن.

أروقة جامعة السلطان قابوس شهدت لقاءاتهما المباشرة السريعة، وكان للمكتبة الرئيسية النصيب الأكبر من هذه اللقاءات. على طاولة مليئة بالمراجع جلست تكتب وتسترق النظر باتجاه إحدى زوايا المكتبة حيث جلس ليس ببعيد عنها. وضع ورقة في أحد الكتب وتعمد وضعه على طاولتها فابتسمت فهذه إحدى طرقه في تسليم رسائله.

على الورقة وجدته كتب..

إذا مر يوم ولم أتذكرْ ... به أن أقول صباحك سكرْ
ورحتُ أخط كطفل صغيرٍ ... كلامًا غريبًا على وجه دفترْ
فلا تضجري من ذهولي وصمتي ... ولا تحسبي أن شيئًا تغيرْ
فحين أنا لا أقول أحبك ... فمعناه أني أحبك أكثرْ

إذا ما جلستِ طـويلًا أمامـي كمملكـةٍ مـن عبيـرٍ ومـرمرْ
وأغمضتُ عن طيباتك عيني وأهملت شكوى القميص المعطرْ
فلا تنعتيني بمـوت الشعور ولا تحسبـي أن قلبي تحجرْ
أحبك فـوق المحبـة لكن دعينـي أراك كمـا أتصـورْ

انتشت بقصيدة نزار قباني والكلمات التي أرسلها قيس لها. تعمّد أن يسقط جزءا من القصيدة..

إذا جئتني ذات يوم بثوبٍ.. كعشب البحيرات.. أخضرُ.. أخضر
وشعـرك مُلقًـى علـى كتفيـكِ.. كبحـرٍ.. كأبعـاد ليلٍ مبعثر
ونهدُك.. تحت ارتفاف القميص.. شهيّ.. شهيّ.. كطعنة خنجر
ورحـت أعـبّ دخـاني بعمـق.. وأرشـف حبر دواتي وأسكر
فلا تنعتينـي بمـوت الشعـور.. ولا تحسبـي أن قلبـي تحجّر
فبالـوهم أخـلقُ منـك إلهًـا.. وأجعـلُ نهـدكِ.. قطعة جوهر
وبالوهم.. أزرعُ شعرك دِفلى.. وقمحًا.. ولوزًا.. وغابات زعتر

استمر الحال على هذا النحو لثلاث سنوات لا يعرف ما بينهما أحد من أقاربهم، فلم يتحدث عن حبه ولم تبح بما في قلبها، ولم تلحظ تونس ما يعتلج في قلب ابنتها، لكنها رأت فيها إقبالا على الحياة وهمة للتفوق في دراستها الجامعية. قرر قيس التقدم لخطبتها وكانت لا تزال في سنتها الدراسية الأخيرة وكان للتو توظف بعد تخرجه في كلية الطب. فتح أمر خطبتها أمام والده زاهر بن حمود وأمه رشيدة بنت محمد فهبَّت ريح نثرت الرماد وأوقدت النار

المتوارية. أعاد للذاكرة خلافات العائلتين القديمة، فرفض والداه زواجه منها وأصرت والدته: «بنت التونسية ما تعيش بينّا. بنت تونس ما لها مكان هنا. ونسلك ما يدخل فيه عرق ما عُماني». أظهرت الوجه الوحيد للنفاق المجتمعي، وجها مختلفا للصورة التي بدت عليها وهي ترحب بتونس وابنتها حين تزورانها، ولم يختلف موقف والده كثيرًا.

سقط مريضا بين الحياة والموت. وسقطت معه. انتشر خبرهما في أرجاء القرية التي يقتات بعض أهلها على مثل هذه الحكايات، فأصبح اسماهما يترددان على الألسن، والشامتون وجدوا ما يغيّرون به رتابة أيامهم. ببساطة «يكون الأمر أكثر تسلية حينما يقع الآخرون»[1].

أخفق الأطباء في معرفة سبب علته، والعرّافون تفننوا في طلباتهم. وحين عجز زاهر بن حمود عن إخراج ابنه مما هو فيه جاءه الشيطان بفكرة قد يكون فيها الحل: «شوّه سيرتها في عينيه ولطّخ سمعة عائلتها». رسم الخطة في رأسه بتفاصيلها.

- سمعيني زين يا رشيدة. الولد رح يضيع من بين يدينا. بنت تونس لعبت بعقله وسلبت روحه وفواده.
- مو تريدني أسوي؟ لا تقول لي أزوجه لبنت التونسية.
- من قال لك نزوجه بنت سالم بن خميس. لو تنطبق الأرض على السما ما أشامجهم. أبوي الله يرحمه مات وقلبه شال على جدهم.

(1) رواية غدًا، غيوم ميسو، ص185.

- والحل يا زاهر. مو الحل؟

عدّل جلسته وقرّب وجهه منها..

- نسّوي عمارنا موافقين على زواجهم ونماطل مع الولد لغاية ما أنفذ اللي في راسي.. إذا سارت الأمور كما أريد ولدش وحده بيجي يقولك ما أريدها بنت تونس.
- خبرني مو باغي تسوي..

بدأ في شرح ما يدور في رأسه وهي تستمع إليه والدهشة تعلو وجهها..

- حرام عليك يا زاهر. حرام عليك. ما ترضاها لبناتنا كيف ترضاها لبنت الناس؟
- ما بيدي حيلة يا رشيدة. يا يموت ولدنا أو نتصرّف باللي نقدر عليه.

أبلغ زاهر ابنه بالموافقة على أن يخطب له بنت سالم بن خميس وأمّنّت رشيدة على قول زوجها بالقول: «دام إنّك باغنها ومصرّ عليها ما نقدر نوقف في طريق سعادتك». عادت له الحياة وملأ قلبه الأمل. سارع والفرحة لا تسعه يزف البشرى لحبيبته.

قطع حبل تفكيرها النادل وهو يسألها إن كانت ترغب في شيء آخر. تنبهت أن أمامها ربع ساعة.

- لو سمحت **Café au lait**.

(5)

«الحياة ليست إكراهًا. فلو أن كل امرأة منحت حق رفض زوجها، من غير انتقاص لكرامتها وعفتها وشرفها، لما حدثت الخيانة الزوجية، ولما حدث الزنا أصلاً».

رواية «فسوق»

عبده خال

خرج سعيد من عباءة نومه على صوت منبه الهاتف. احتاج لبعض الوقت ليدرك الوقت المتبقي أمامه للحاق بموعده مع الفتاة التونسية. لم يمضِ وقتٌ طويلٌ في النوم لكنّه كان كافيًا لاستعادة بعض نشاطه. أشعل جهاز غلي الماء وكان قد قرر أنه بحاجة لقهوة مُرة ليستعيد حيويته.

بعد القهوة حان وقت الاستحمام.

ترك الماء البارد يغمر رأسه وينسكب بهدوء وهو يفرك جسده بقطعة الاسفنج، محتفظا بعادته القديمة في الاستحمام بالماء البارد مهما كانت درجة حرارة الطقس، كإحدى العادات التي ظلت ملازمة له وتغادره في مرضه حين تسري برودة الحمى في جسده. وكما هي عادته يلازم حمامه

لوقت طويل يسلم جسده لتدفق الماء، فبات أهله وأصحابه يعتبرونه من فصيلة الضفادع.

الساعة التي قضاها في النوم كانت بالنسبة له كافية لاستعادة حيويته ونشاطه. استنزف الكثير من طاقته في جلسات المؤتمر المقسمة على فترتين طرح خلالها المتحدثون العديد من القضايا التي تصب جميعها في خانة الحقوق المدنية العامة وحرية التعبير على وجه الخصوص. لديه اليوم بطوله في التجول.

لا يعرف ماذا سيصادفه مع الفتاة التي ارتبط بموعد معها ولا يعرف كيف سيكون نهاره معها. الحقيقة أنه يشعر بحماس لمثل هذه المغامرة. الخروج بمفرده ورؤية الحياة في تونس دون الارتباط بقيود المؤسسة المنظمة للمؤتمر وتخوفاتها على سلامة المشاركين فيه.

لديه قناعة، أن من يرغب في رؤية الجانب الآخر لأي بلد عليه أن يطلق العنان لنفسه وينطلق في ذلك البلد كيفما جاء. اليوم جاءته الفرصة لخوض هذه التجربة وإن كان ليس بمفرده.

سريعًا أصبح جاهزًا للخروج. اختار البنطلون الكحلي والتيشيرت الأسود ولبس عليه قميصًا أبيض تركه مفتوحا. في بهو الفندق نظر للساعة الكبيرة المعلقة على الجدار وكان الوقت يشير إلى أنه يمتلك خمسين دقيقة، فقرر التوجه للمقهى المقابل لمكتب الاستقبال وطلب قهوة وقطعة حلوى خمّن أنها ستعجبه من مظهرها الخارجي.

في مثل هذا الوقت من الظهيرة لا يخلو المكان من الحركة، وعلى المقاعد الموزعة على ثلاث مجموعات جلس بعض قاطني الفندق وضيوفهم يتبادلون أطراف الحديث، تحيط بهم ست نخلات باسقات انتصبت في منتصف المكان.

جرفته الأمنيات فتخيّل أن ثريّا معه في هذه اللحظة، لكنها رحلت فلم يعد يجمعه بها أي رابط بعد الآن، رحلت وتركت فراغاً لا يطاق، يؤلمه بين الحين والآخر، يزعجه، يكدّر أيامه ولياليه، ينُغّص عليه لحظاته الخاصة، يُرادوه الشعور بالوحدة ويسيطر عليه الحزن، بات أكثر قناعة أن «في قلب كل رجل، فراغا ما، شجّة ما، شعورا بالهجران والوحدة»[1].

لن تتكرر تجربته معها قبل نحو ثلاث سنوات حينما كُلف بمهمة عمل في مصر لمدة أسبوع حرص خلالها على اصطحاب زوجته. لم تكن مهمة عمل عادية بالنسبة له، فلقد تحولت بفضل صحبته لزوجته إلى فرصة للسياحة. «لو كان زواجنا مستمرا لكانت معي الآن في تونس» قال في نفسه. حتى اللحظة لم يعرف بالضبط ما الذي دفعها لطلب الطلاق. فشلت كل محاولاته في ثنيها عن قرارها المفاجئ، وفشلت جهود أمها في معرفة ما حدث كي تصر على طلب الطلاق. هكذا فجأة أعلنت أنها لا تريد الاستمرار في حياتها الزوجية معه.

– صدقني يا سعيد ما أقدر أستمر أعيش معك.

(1) رواية نداء الملاك، غيوم ميسو، ص93.

- ثريا إيش اللي صار؟ فهميني؟ قولي إيش قصّرت معك؟ إيش سويت عشان تتغيري لهذي الدرجة؟ غلطت عليك أو شيء؟
- لا والله سعيد ما عليك قصور. بس..... وصمتت.
- بس إيش؟ قولي....

استغرقت في صمتها وهو ينظر إليها. بينها وبين نفسها قالت: «ما أقدر أقولك إني ما قادرة أتحمل أكثر. جسمي معك وقلبي مع شخص ثاني. خمس سنوات وأنا ضامة في داخلي ومتحملة وصابرة. قلت يمكن في يوم أنساه أو يذبل حبه في قلبي لكن ما قدرت أنسى ولا قدرت أتعافى منه. ما أريد أخونك يا سعيد. ما أريد أظلمك أو أظلم نفسي».

لم تستطع البوح بما في داخلها فلاذت بالصمت.

حملت بعض أغراضها وانتقلت للعيش في بيت أمها. لم تأخذ الكثير معها لا الملابس ولا الذهب ولا أدواتها الخاصة، حتى الهاتف الذي أهداها إياه قبل ثلاثة أشهر تركته. أعطى نفسه أملًا بأنها ستعود، وأن ما تمر به انتكاسة عاطفية أو رغبة اشتياق للبيت الذي نشأت فيه.

لا يتذكر أنه قام بفعل يدفعها لهذا القرار، لا بالفعل ولا بالقول ولا بالتلميح ولم يبخل عليها بشيء. كانت بالنسبة له الملاك الذي يمده بالحياة والسعادة. عاملها بالحب والعشق، كانت في عينيه الدنيا بكل ما فيها. لم يتخيل في يوم أنهما سيفترقان أو أنها ستتخلى عنه. «هل يكون عدم الإنجاب هو سبب هذا التحول الدراماتيكي في حياتها؟» تساءل،

لكنها تعرف أن قرار عدم الإنجاب هو قرارها هي. هي من طلبت تأجيل الإنجاب رغم مرور خمس سنوات على زواجهما. لم يكن يمانع في التأجيل ولم يفتح الموضوع معها منذ أن اتفقا على ذلك. رغم كل علامات الاستفهام التي دارت في رأسه لكنه كان مستعدًا لفعل أي شيء تريده وتقديم رغباتها على رغباته وأحلامها على أحلامه.

تزوجها قبل خمس سنوات وهو لا يعرفها من قبل. من بين عدة فتيات اختارتهن أمه وأخواته تعلق بها حين رآها. تقدم لخطبتها فاشترطت أن تراه وتتحدث معه. عشر دقائق كانت كافية بالنسبة لها للموافقة عليه. سألته عن أفكاره وطموحاته وعن نظرته للمرأة وللزوجة فرد عليها بما يؤمن به. سألته عن خططه للعيش مع التي سيتزوجها فأجاب صادقًا. سألته إن كان يمانع أن تكون حرةً في اختيار ما تراه مناسبا لها دون أن تتجاوز حقوقه وواجباته الزوجية فوجدت أنه كان صريحا وواضحا معها. في تلك الدقائق العشر تعلق بها أكثر وأكثر. ليس جمالها فقط ما جذبه إليها أكثر فلقد رأى أن عقلها أكثر جمالًا ونقاءً. في تلك الدقائق العشر لم ينتبه للمعة دمع في عينيها وحزن حاولت مداراته بصعوبة.

وقف كثيرًا أمام منزل أمها، وكله أمل أن تسمح له بالحديث معها أو أن يراها. الوحيدة أمها التي استقبلته والألم يعتصر قلبها. هي الأخرى لا تعرف ما الذي حدث بينهما، ولم تقدر أن تفهم من ثريا سبب قرارها هذا.

«ماه ما صار شيء. سعيد إنسان طيب ومحترم والعيب عدّاه». ردت على إلحاح أمها حين حاصرتها بالأسئلة.

- زين ليش باغية تتطلقي منه.
- بس ما أقدر أواصل في الزواج هذا.

لم تستطع الأم استيعاب ما تقوله لها «إذا الولد زين وما أذاها في شيء. ليش مصرة على الطلاق؟ غريب أمرها هذي البنت»..

- ما فيه شيء اسمه بس ما أقدر أواصل في الزواج.
- والله العظيم يا أمي ما سوا لي شيء.. يعني لازم أطلع فيه عيوب عشان تقتنعوا إني لازم أطلّق منه؟ لازم أفتري عليه وأقول إنه ضربني أو سبني أو غلط عليّ. ما بقول كذا. اللي أقدر أقوله إني باغية أتطلّق.
- انتي أكيد جنّيتي يا ثريا. عقلك ما صاحي ولا ما فيه بنت تطلب الطلاق من كذا والهوا. لازم يكون فيه سبب مقنع وواضح ويستاهل.

فقدت السيطرة على نبرة صوتها فزمجرت..

- أيوا أنا جنّيت. استخفيت. عقلي راح. المهم ما أريد أرجع لسعيد. وإذا ما تريديني أعيش معك هنا بروح بيت واحد من إخواني.

تركتها أمها وهي تحوقل والأفكار تتأرجح في رأسها غير مصدقة أن هذه حال ابنتها الوحيدة التي اعتبرتها الأرجح عقلا بين إخوتها. وقبل أن

تلامس قدمها الدرجة الأولى من السلم وهي في طريقها للجلوس مع سعيد أومضت في رأسها فكرة فعادت مسرعة لغرفة ابنتها..

- ثريوة.. لا تكوني باغية تطلّقي عشان تتزوجي ذاك الرجال المتزوج اللي كنتي تريدي تتزوجيه قبل خمس سنوات؟

دون أن تضع عينها في عين أمها قالت..

- اطمني ماه. ما باغية أتزوج حد. باغيه أعيش كذا حرة لا زوج ولا أولاد. لو أنا قبل خمس سنوات نفس اللي أنا عليه الحين ما يردني عن أني أتزوجه حتى لو انقلبت الدنيا فوق تحت. لكنّي ما باغية أتزوجه لا هو ولا غيره..

وقبل أن ترد أمها أضافت:

- بالمناسبة ماه، قبل خمس سنوات ظلمتوني إنتي وإخواني، قطعتوا عليّ سعادتي. الشخص الوحيد اللي حبيته رفضتوا إني أتزوجه حتى لو كان هو متزوج. أبوي اللي هو أبوي، واللي تقولي عنه قاسي وما في قلبه رحمة لمجرد إنك اتطلقتي منه وأنا صغيرة، وافق وقال ما عنده مانع.
- أبوش وافق عنادا فيني. إذا قلت أنا يمين هو يقول شمال. متأكدة إنه في داخله ما مقتنع ولا مرحب بفكرة زواجك من واحد متزوج وعنده أولاد. بس لأني قلت ما موافقة هو قال موافق..

- عموما ماه.. ذاك الرجال راح في حال سبيله. ما أعرف عنه شيء من قبل خمس سنوات. لكن زين ذكرتيني بشوف مو معدّل الحين بعد كل هذي السنين اللي فقدناها.

هزّت أمها رأسها دلالة الحيرة وقلّة ذات اليد وخرجت تكلّم نفسها غير مصدقة أن التي تتحدث معها هي «العاقلة» كما كانت تصفها. ضربت كفيها إحداهما بالأخرى كمن يتأسف على الحال الذي صارت إليه الأمور.

ثلاثة أشهر من التردد على بيت أمها والمحاولات الفاشلة لإقناعها بالعدول عن موقفها كانت كافية ليدرك سعيد أنها لن تتراجع عن طلب الطلاق فطلّقها. طلّقها وقلبه يعتصر ألمًا ويخبر نفسه أنه لن يجد مثلها.

نظر للكرسي المقابل فتخيل أن ثريا تجلس عليه وتتحدث معه. تخليها بكامل جمالها وأناقتها وحديثها العذب. أحب فيها كل شيء حتى حين تغضب تبدو في عينه جميلة. تعوّد أن لا يفتح الحديث معها إذا لاذت بالصمت. ولأنها الآن تلوذ بالصمت في الكرسي الخالي أمامه ترك الصمت يتسيّد اللحظة.

«حان وقت لقاء بنت تونس».. قال وهو يقوم من مكان ويتجه مسرعا باتجاه الخارج. «مسافة الطريق بين الفندق وشارع الحبيب بورقيبة لا تتجاوز كيلومترًا ونصف تقريبًا والوقت المتبقي يكفي لقطع تلك المسافة في هذا الطقس المعتدل رغم أننا في أواخر شهر يونيو».. أضاف.

(6)

«الحقيقة دومًا، مهما كانت مؤلمة أفضل من الكذب»

رواية «شيفرة بلال»

أحمد خيري العمري

جاءتها رسالة نصية منه يخبرها بأنه أصبح قريبا من شارع الحبيب بو رقيبة، فردت عليه أن يسير في منتصف الشارع بين الأشجار الظليلة الممتدة على طول الطريق وسيجدها أمام محل **ZARA** تنتظره.

وقفت تلتقط صورا للمكان وصورا لها: صورة وهي تبتسم، وهي تنظر للأعلى، وهي ترفع شعرها، وهي تخرج لسانها. صور كثيرة ستحذفها في النهاية. تبدو لمن يراها ليست أكثر من امرأة تستمتع باللحظة التي تعيشها. بالنسبة لها لم تكن تريد أكثر من الاشتغال عن الماضي الذي تركته خلفها والذكريات التي تصر على ملاحقتها. الذكريات توجعها، تدفعها لحافة الجنون وللحظات مدمّرة.

تتملكها قناعة بأن الكثير من البشر يتقدمون في السن أكثر مما يتقدمون في بقية الأشياء، وإذا كان الأمر كذلك تخبر نفسها عليها أن تعوّض نفسها عن الأيام والسنوات التي تراها ضاعت دون طائل.

انتبهت أن شابا وقف على مسافة قصيرة منها يتبسم. من خلال مظهره الرياضي واتساق جسده المشدود واستقامة جذعه خمّنت أنه في منتصف الثلاثينات من عمره، وأنه من ذاك النوع من الشباب الذين يحرصون على ممارسة الرياضة بانتظام والاهتمام كثيرًا بلياقتهم البدنية. لمحت كذلك اهتمامه بتصفيف شعر رأسه الكثيف والمرتب بحرص، وعنايته بتشذيب لحية خفيفة مقوسة، فيما غطى عينيه بنظارة شمسية شبه دائرية. قدّرت طوله بنحو مائة وسبعين سنتيمترا أو يزيد قليلا.

«لابد أنه ابن الخليج» قالت في نفسها وهي ترفع يدها تحييه. في نفس اللحظة ارتسمت علامات الدهشة على وجهيهما. كلاهما حاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه من قبل. «في البدء لم تتعرف إليه، إلى أن رأت عينيه المحمومتين تنظران إليها بثبات»[1]. عرفته وكتمت الأمر في صدرها. عقدت العزم على مصارحته في وقت لاحق، أما هو فبقي يعصر ذاكرته دون أن تسعفه ولو بخيطٍ يتشبث به. وقفا ينظران أحدهما للآخر دون أن ينطقا بحرف. من غير شعور حرّكت قدميها باتجاهه وكأن قوى خفية تدفعها بقوة إليه.

قالت وهي تمد يدها للسلام عليه:

- عَسْلامَة.. أَهَلا وسهلا بيك في تونس.. تشرفنا بمعرفتك.. أنا أميرة.

(1) رواية لأني أحبك، غيوم ميسو، ص17.

«أهلا بك.. الشرف لي.. وأنا ملك». قال ممازحًا ويده تضغط على يدها بلطف.

فلتت ضحكة منها. أعجبتها سرعة البديهة لديه وخفة الدم. في اللقاءات المشابهة لا يكسر الحرج بين غريبين إلا برفع الكلفة قليلا بينهما. على الأقل لم يعد غريبًا بالنسبة لها، ليس بعد الآن.

- أنا سعيد سالم من سلطنة عُمان.

«بالتأكيد أنت من عُمان» قالت سرًّا.

- يا مرحبا وسهلا بيك.. نورت تونس خويا سعيد. كيفاش لقيت تونس؟
- تونس منوّرة بأهلها. بصراحة بلادكم حلوة كثير. وناسها طيبين ودودين.
- هذا من طيبك وحسن أخلاقك..

رسمت ابتسامة على وجهها قبل أن تضيف وهي تشير إلى الطريق أمامها..

- مستعد نبدأ الجولة في المكان؟
- على بركة الله..

خطت أمامه باتجاه المدينة العتيقة فأصبحت على بعد مسافة منه..

«لحظة.. لحظة». قال وهو يمد خطواته ليكون قريبا منها «الله يرحم والديك خففي سرعتك. أريد أشوف المكان زين».. أضاف وهو يضحك.

- باهي.. ولا يهمك.. ردت على ضحكته بابتسامة عريضة.

أصبح محاذيا لها فلامست رائحة عطره أنفها. سحبت نفسا عميقًا لتتأكد من مكونات ما لامس حواسها. شدت بقوة على شهيقها مردّدة لنفسها: يااه كم هي جميلة هذه الرائحة. كم هو مثير هذا العطر «أذكر هذا العطر كما لو كان قادمًا من فترة زمنية سابقة لا أذكر عنها شيئًا لكني أذكرها. هل يكون للزمن رائحة»[1].

لف بجسده على جميع الاتجاهات فقالت:

- هذا الشارع من أهم الشوارع في العاصمة تونس. فيه من يعتبره متحف تونس التاريخي. خلال أكثر من سبعين سنة الشارع هذا حمل أكثر من اسم لكن من بعد الاستقلال عام 1956 ولَّى اسمه شارع لْحبيب بورقيبة. أول رئيس لتونس من بعد الاستقلال.
- مشهور هذا الشارع في الوطن العربي.. يمكن يكون أكثر مكان في تونس سمع عنه العالم.
- صْحِيحْ كلامك.. حتى هنا في تونس الناس من كل عموم البلاد تجِيّ للشارع هذا.

(1) رواية كريسماس، أحمد خيري العمري، ص135.

أمام كتدرائية القديس فنسون دو بول والقديسة أوليفيا وقفت أميرة.

- هذا المكان اسمه ساحة الاستقلال.. هذي الساحة شهدت في أكثر من مناسبة مظاهرات واحتجاجات شعبية.

نظرت إليه وهو يلف بعينيه في المكان..

- هل عندكم في عُمان ساحة مثل هذي الساحة؟

نظر إليها يفكر في الإجابة على هذا السؤال..

- في عُمان ما محتاجين مثل هذه الساحة.. لدينا في عُمان مساحة للتعبير عن مختلف وجهات النظر بكل أريحية وحرية. لدينا مثلا ساحات التواصل الاجتماعي نقدر من خلالها مناقشة اللي نبغى نناقشه. فيها كل واحد منا يقول وجهة نظره.

علت الدهشة وجهها «ساحة أفضل من الساحات الميدانية» قالت لنفسها.

- نحن في عُمان عندنا ساحة افتراضية تتسع لكل عُمان بشبابها وشيابها، بأطفالها وكبارها، بفقرائها وأغنيائها، بوزرائها ومسؤوليها. ساحة ما تحتاج جهد. كل اللي تحتاجه جهاز ذكي موصول بالإنترنت. هذي الساحة هي ساحة تويتر. في تويتر نقول كل اللي نريده ونحن جالسين في مكانا بين أهلنا وناسنا، نأكل ونشرب ونضحك وإذا ما عجبنا شخص نسوي له بلوك وإذا عجبنا موضوع أو نقاش أو مدح حشرنا العالم فيه.

هذه المرة كانت ضحكتها مدوية.. «هذا المخلوق ما طبيعي». هزت رأسها طالبة منه مواصلة حديثه.

- مثلًا إذا البعض إذا بغى يطالب بأي شيء يفتح هاشتاج يقول فيه اللي يريده. وحسب نوع المطالبة يمكن يكون ترند لأيام بس يضيف رقم جديد للهاشتاج.

ضحكت ولكمته بقبضة يدها على كتفه الأيمن..

- ما هو الهاشتاج اللي يتصدر الساحة عندكم؟

قلّب شاشة هاتفه وهو يقول:

- لحظة.. خليني أغيّر إعدادات الموقع في تويتر.. حاليًا.. رجع هاشتاج قديم كان متصدر الساحة عام ألفين وستطعش والحين رقم واحد في الساحة: #صحن_شاورما، هذا هو الملف الرئيسي اليوم.

لم تتمالك نفسها من الضحك.

- من باب الحرص على متابعة آرائنا كل الجهات الرسمية فتحت لها حساب في توتير للتواصل مع المغردين وتسجيل ملاحظاتهم والرد على استفساراتهم، وهذي سابقة رائعة تحسب لنا محد سبقنا في تنفيذها.

- باش تلقوا استجابة للمطالبات؟

رأت في عينيه مزيجا من القلق والتردّد والحيرة.

- أحيانًا.... أحيانًا.. الحكومة فتحت لنفسها حساب للتواصل مع الناس. في البداية تفاعلت معهم وتجاوبت مع مواضيعهم لكنها صارت في النهاية تعمل ريتويت للي يعجبها وتطنّش اللي يضايقها.

قالت إنها سمعت في نشرات الأخبار أن العُمانيين تجمعوا في أولى مظاهراتهم عند دوار الكرة الأرضية فأخبرها أن الدوار أزيل من على الكرة الأرضية وحلّ مكانه جسرٌ علوي حتى لا يفكر أحد أن يجعل منه مزاراً أو ذكرى للتاريخ.

انتظرت منه مواصلة الحديث لكنه لم يضف شيئًا. أراد أن يخبرها أن البعض لم يقدر حرية التعبير المتاحة له فجعل من تويتر مساحته الوحيدة. أراد أن يقول لها إن كائنات غريبة في أفكارها وعقدها النفسية تعيش هناك.

تحركت خلفه وهو يتجه نحو مجسم ضخم لعبارة **I LOVE TUNIS** باللون الأحمر وخلفها تمثال العلّامة عبد الرحمن بن خلدون وطلب منها التقاط صورة له. سألها إن كانت ترغب في التقاط صورة مشتركة معه لكنها اعتذرت بلطف. «لا يزال الوقت مبكرًا على التقاط السيلفي» قالت لنفسها وهي تتحرك أمامه.

غادرا الساحة باتجاه المدينة العتيقة بعد أن مرا بالنصب التذكاري لباب بحر، الفاصل بين المدينة العتيقة والمدينة الحديثة، ودلفا عبر زقاق ضيق وسط حشود تتحرك باتجاهين إلى الداخل والخارج.

تعرجت الأزقة الضيقة ببلاطاتها الحجرية المتناسقة تظللها أسقف من القماش والمواد المقاومة للشمس والمطر، وعلى ضفتيها تشابهت المحالّ التجارية. وهو يتجول في الزقاق المكتظ أبقى عينًا على المحالّ وعينًا أخرى على أميرة؛ فهو وإن كان مدهوشًا بالمكان لا يريد أن تبحث عنه كطفل انفصل عن والديه تائهًا وسط الأمواج البشرية.

كانت نظرات الباعة تكشف أنه الغريب عن الدار بهيئته وسحنة وجهه ودهشته، ومن خلال أصواتهم وهم يشجعونه على شراء معروضاتهم من بين العشرات المارين بجانبه في نفس اللحظة.

مشت أميرة أمامه وهو يوزع نظره على المحالّ التي اصطفت على جانبي الزقاق. يخترق الصفوف خلفها وهي تلقي بنظرها لتتأكد من مواصلته السير بالقرب منها. ظلت تراقبه وتساير حركته ووقوفه وتتبرع بالتحدث مع الباعة لتسألهم عن قيمة إحدى بضائعهم، أو لتنقذه من إلحاحهم، أو لتشرح له اسم وفائدة ما يقع بين يديه أو يشير إليه.

كانت تنقصه كاميرا تصوير كي يصبح تماما كأحد أولئك السواح الذين تعود التونسيون على رؤيتهم في هذا السوق. انتبه لدهشته التي تشبه انبهاره بالسوق المكتظ في مطرح في أول زيارة له إلى هناك وهو في العاشرة من عمره بصبحة والده. في ذلك اليوم خرج بحصيلة من الألعاب والحلويات ظل محتفظا بها لأسابيع.

كان المشهد في المدينة العتيقة وسوقها باهرًا، أطياف من البشر يستمتعون بالحركة فيه والشراء وتفقد المعروض في المحالّ، لكل واحد منهم هدف جاء لتحقيقه: بيع، شراء، تزجية وقت، ومثل سعيد اكتشاف جانب من الحياة في تونس.

في نفسه قال إن هذه التونسية تمثل جيلا قادرا على صنع المعجزات بقوة إرادته وشدة بأسه. كان في داخله شيء يمنعه من تأمل تقاسيمها الأنثوية، شيء نشأ معه منذ أن كان طفلًا بتربية دينية صارمة بقيت متوارية في أعماقه. ورغم أنه وجدها جميلة بملامحها وأكثر جمالًا بشخصيتها، لكنه في داخله يداري معركة حامية الوطيس مع ذاكرته لاستدعاء أي معلومة توصله لمعرفة أين رآها من قبل.

وقف على يمينها وهي تتأمل حقيبة مصنوعة من الجلد وتسأل عن سعرها. هزت رأسها استحسانا بقيمة الحقيبة لكنها تركتها بعد أن أخبرت البائع أنها ستأتي في وقت لاحق لأخذها.

- بغيت أسألك أميرة. أيش تشتغلي بالضبط؟
- الصراحة أنا حاليا نخدم مع خويا في شركة إرشاد سياحي. نتعامل مع سياح عرب وأجانب، نأخذهم لمواقع وأماكن سياحية وتراثية حسب جدول نتفق فيه معاهم.

هز رأسه دلالة الإعجاب بما تقوم به فيما واصلت حديثها:

- أنا دوري في كثير من الأحيان اصطحاب السياح الخليجيين خاصة نسائهم على خاطر يْحِبُّوا تكون معاهم مْرا.
- ممتاز.

ثم أضاف ضاحكا: «هذا يعني أنا اليوم زبون عندك».

- لا. لا. أنا اليوم في عطلة. لا تنسى أنا اللي اقترحت عليك الجولة هذي. انتي ضيف عندي مش غريب.

شكرها على موقفها وواصلا تحركهما بين صفتي المحالّ التي يعرض بعضها ملابس وأحذية وأدوات زينة، وبعضها الآخر أقمشة وملابس جاهزة ومشغولات جلدية لحقائب متعددة الأحجام والأشكال، ومجموعة أخرى تعرض هدايا تذكارية وتحفًا فنية مصنوعة باليد.

مشيا والباعة ينادون على الزبائن لاقتناء ما يعرضونه، فيما سعيد مأخوذ بكل هذا التنوع.

«هذا المكان يذكرني بسوق مطرح».. قال وهو يخترق الصفوف خلف أميرة مباشرة.

«يا سوق مطرح. يا ريحة اللبان والعطور والبحر» حدثت نفسها.. قالت:

- لكل سوق شخصيته وتاريخه وناسه وما يميزه عن غيره.. في كل بلد عربي هناك ما يشبه السوق هذا. خبرني على سوق مطرح.

- سوق مطرح من أقدم الأسواق في عُمان. عمره تقريبا يوصل 200 سنة ويمكن أكثر من كذا. يبدأ من بوابة بحر عُمان وطريق مطرح البحري وينتهي ببوابة المدينة القديمة.. قديما كانوا يسموه سوق الظلام.

«سوق الظلام؟» مارست دور الجاهلة بالمكان.

استطرد..

- سبب تسميته بسوق الظلام جات من كثرة الأزقة وتعرجاتها والمحلات اللي كانت تحجب الشمس في النهار. أما وقت تكون السحب فالمكان يصير أكثر عتمة.
- نْحن عنّا المدينة العتيقة بأسواقها المتنوعة وانتو عندكم مطرح القديمة وسوق الظلام. قالت وهي تقف تقلب محفظة يدوية صغيرة.
- صحيح.. لكل مكان خصوصيته اللي تميزه عن الثاني.
- قُلّي. هل سوق مطرح يقدم نفس المنتجات اللي تشوفها في السوق هذا؟
- سوق مطرح فيه أشياء متنوعة. لكن منتجاته بشكل عام تشبه المنتجات هنا. مثل ما هو الحال هنا، هناك تحصلي المشغولات اليدوية مثل الخناجر والفضيات والأقمشة والأواني النحاسية والفخارية وأنواع من البهارات واللبان والعطور.

ثم أضاف وهو يلمح شيخًا تونسيًّا يمشي الهوينا ومن خلفه شاب يحمل إبريقًا نحاسيًّا تفوح منه رائحة القهوة.

- وهذا يذكرني بمحمد ديزل واللي وراه يذكّرني بسالم بن شنون.

ابتسمت وفي داخلها فرحٌ لا يسعه صدرها..

مرّا بلوحة تعريفية مكتوب عليها «نهج الغرابل» مثبتة على أحد الجدران، تجاوزاها وعلى بعد خطوات اتخذا المخرج على اليمين بمحاذاة جامع الزيتونة. تأمل سعيد تقاسيم وجه شيخ تونسي يقف أمام محله وهو ينقش بمطرقة صغيرة ومسمار ذي طرف حاد على لوحة نحاسية رسومات وعبارات بحسب طلب الزبائن. كان النقاش يتقمص دور المعلم وهو يشرح لابنه الطريقة الصحيحة للنقش بيد ثابتة وتركيز عميق.

- على رحمة الوالدين، خوذ من عندي وما تندمش.. خدمة الرّوح للرّوح للذكرى والزينة.

خاطبه شاب يحمل بين يديه مجموعة من المشغولات النحاسية والسبح الملونة المنقوش عليها أسماء الله الحسنى. لم يشأ سعيد أن يرده خائبًا. نقده قيمة ما أخذ.

«الله يفتح عليك ويعطيك ما تتمنى».. عاجله الشاب قبل أن يغيب عن نظره.

توجها مباشرة عبر نهج غربال إلى سوق العطارين المحاذي لجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية. على جانبي الزقاق انتظمت مجموعة من المحالّ ذات المداخل المقوسة وقد علقت على جدرانها الجانبية أحجام مختلفة من القفة السعفية، وجرات مليئة بمنتجات عطرية وسكريات مصنوعة.

- السوق هذا يرجع تاريخه للقرن الثالث عشر، كأول سوق متخصص في بيع الزيوت العطرية بمختلف أنواعها التونسية والأجنبية.

قالت أميرة وهي تشير إلى مجموعة من القوارير تفوح منها روائح عطرية. حوّل سعيد بنظره تجاه صف من المحالّ تخصصت في تقديم عطور الياسمين والفل والمسك والعنبر وماء الورد والخزامى والحناء ومستحضرات التجميل.

أشار إلى لوحة معلقة عند مدخل محل كُتب عليها «هنا تعمير علاقة العروسة»..

- المثل التونسي يقول «لا وجيعة كوجيعة الضرس ولا هم كهم العرس» لكن العروس التونسية تحل كل همومها في المكان هذا.

غمزت بعينها.

- بصراحة وجود سوق متخصص بهذا الحجم فعلًا يُخلّص العروس وأم العروس من همِّ البحث عن المنتجات العطرية ومستلزمات العرس..
- صْحِيحْ.. المقبلة على الزواج تجي هنا وتدخل من محل لمحل وتشري مستلزماتها من الحناء والبخور والعطورات والحلويات والشمع وأساسيات جهاز العروس. هنا تلقى القفة السعفية أو علاقة العروس.

أضافت ضاحكة..

- حتى الفاسوخ تحرص على شرائه قبل الزواج.

«الفاسوخ؟» تساءل سعيد بدهشة.

شرحت له أن الفاسوخ هو نبات بري ينمو ويشتهر في بلاد المغرب العربي بنوعين: الأبيض والأسود. يتميز برائحة العطر وقد أطلق عليه فاسوخ لاستخدامه في فسخ أو فك جميع أنواع السحر، ويستخدم من أجل علاج السموم. الأبيض منه يستخدم للتعطير والتخلص من بعض السموم، والأسود يستخدم في صناعة مستحضرات التجميل والعناية بالبشرة وصناعة البخور وفك السحر.

تذكر سعيد المغبار المستخدم في عُمان -معتقد قديم- من قبل أهل المريض لفك السحر والعين عن مريضهم، عادة ما يتكون من جمر يوضع على الأرض وينثر فوقه اللبان وتوضع حوله القربان.

(7)

«إغماض العينين لن يغير في شيء. لا شيء سيختفي لمجرد أنك لا تريد أن تراه. بل ستجد أن الأمر ازداد سوءاً في المرة التالية التي تنظر فيها. هذا هو العالم الذي نحيا فيه».

رواية «كافكا على الشاطئ»

هاروكي موراكامي

كانت الساعة تقترب من الرابعة مساء حين فكّرت أميرة في التوجه إلى سوق الأقمشة عبر الطريق المؤدي إلى سوق التُرك، الواقع بين نهج سيدي بن عروس ونهج تربة الباي وعلى مقربة من جامع يوسف داي، لكنها استشعرت حاجتهما لالتقاط الأنفاس.

- ما زال لنا سوق القماش والتعرف على الأزياء التقليدية التونسية للرجال والنساء.

رد ضاحكا: «هذي الأسواق يحتاج لها جولة من أول النهار. اللي ما يشتري يتفرج».

ردت بابتسامة.

- الوقت يزربنا. أعتقد نحتاج نرتاح شْوَيَّا..

لم تنتظر رده فتوجهت إلى شاب تونسي يستظل بجدار وتحدثت معه قبل أن تلوّح بيدها لسعيد كي يتبعها. سارا في الأزقة الداخلية باتجاهات مختلفة حتى وصلا إلى مبنى قديم في محيط سوق التُرك، دخلاه ثم ارتقيا السلم الإسمنتي وعبرا غرفة تحتوي على سرير نوم قديمة بزخرفة عتيقة، وواصلا صعود السلم حتى أصبحا على سطح المبنى حيث يحتل مقهى **Tarrace El Bey** مساحة كبيرة منه.

رحب بهما أحد النُدّل ودعاهما للجلوس على مقاعد إسفنجية مكسوة بقماش ممزوج بعدة ألوان، تتوسطها طاولة منخفضة يمتد من وسطها عمود خشبي يحمل مظلة ذات لون أحمر، فيما تجاورها على نفس الشكل مقاعد بعضها غير مظللة.

ارتمت أميرة على أحد المقاعد وبقي سعيد يتأمل منظر المدينة من الأعلى. على امتداد البصر تعددت أشكال المباني القديمة والحديثة منها. أعجبه المنظر الذي يراه بارتفاع مآذن المساجد والكنائس والمباني متعددة الأشكال الموزعة في الاتجاهات الأربع. طلبت عصيري برتقال مع إضافة المزيد من قطع الثلج. حين رمى بنفسه على المقعد المقابل لها سألته عن رأيه فيما رآه حتى الآن..

- بصراحة تونس متنوعة الثقافات وثرية بالكثير من المقومات السياحية. فيها تناغم حضاري وتنوع ثقافي مميز. كثير من اللي شفته أدهشني.

- بالفعل.. التنوع الثقافي في تونس ما اقتصرش على الفنون والمعمار، حتى في الزي التقليدي فمّة تنوع بين شمال ووسط وجنوب تونس.

بدأت في سرد خصائص الأزياء التونسية التقليدية وشرح الفرق بين كل زيّ. فالنساء يرتدين الملية أو الحرام، والطقريطة، والجبة العكري، والطريون القيرواني، والسورية التونسية بمختلف أنواعها بحسب كل منطقة، والهرماشة الرفرافية، والتبديلة النابلية، والفوطة والبلوزة، والكبوس الغارق، والسفساري، ومريول فضيلة، والخلخال، والوشوش الجربي.

وتتنوع أزياء الرجال ما بين الجبة بأنواعها، والكسوة بعناصرها المتعددة كالصدرية والفرملة والبدعيتان والمنتان، والبرنس، والشاشية، والقشابية، إلى جانب البلغة المصنوعة من الجلد بأشكال وألوان مختلفة.

بقي سعيد صامتا وهو يستمع لكل هذه الأسماء التي تذكرها أميرة وتصبها صبًّا في أذنيه دون أن يعرف شيئا مما سمع. في داخله قرّر أن يبحث عن تفاصيل هذه الأزياء.

أطلقت ضحكة وهي ترى على وجهه علامات الدهشة والحيرة..

- يلزمك برشا وقت بش تعرف المكونات هذي الكلّ، متاع الأزياء التقليدية التونسية. بعضها يكاد يندثر وبعضها ما تلقاشو إلا في مناطق معينة وفي مناسبات محددة في تونس.

هز رأسه مؤيدا قولها..

قالت مُغيّرة دفة الحديث:

- سمعت أن عُمان زَادَا لها إرث تاريخي وحضاري كبير..
- صحيح.. غير كذا في عُمان تنوع وثروات تراثية تاريخية وجغرافية تخليها مميزة في هذا الجانب.
- هل استفادت عُمان من كل المقومات السياحية هذي؟

أخذ وقته في التفكير قبل أن يقول:

- طبعًا استفدنا.. عندنا استراتيجية وطنية للسياحة. خطة بعيدة المدى لعشرين سنة قدّام. من شدة اهتمامنا بالسياحة في عُمان وزّعنا المهام على عدة جهات حكومية: السياحة والتراث والثقافة والبلديات والمواصلات والكهرباء والمياه، وحتى وزارة الأوقاف في بعض الأمور لها أدوار معينة.
- لكن هكه تختلط الجهود وما تتوحدش. المفروض تكون المسؤوليات الكل في مكان واحد حاجة تضمن سرعة التخطيط ونجاح التنفيذ.
- المفروض كذا لكن نحنا في عُمان قررنا نتبع طريقة جديدة ووزعنا المهام على عدة جهات.. بهذي الطريقة خففنا العبء والحمل بحيث ما يكون عند جهة وحدة فقط. في عُمان هذي هي الخصوصية اللي نتميز بها.

- سمعت عنكم تنوع في الطبيعة ما بين جبال وصحراء وشواطئ. كيفاش وظفت عُمان التنوع هذا الكلّ؟

ابتسم وأشاح بوجهه عن عينيها..

- سوينا شبكة نقل واسعة ومتطورة تربط كل هذي المواقع الطبيعية بعضها ببعض. عملنا منتجعات سياحية طبيعية. دعمنا الشركات الأهلية في مجال السياحة وقدمنا لها التسهيلات والحوافز وذللنا كل الصعاب قدامها. بعض الأماكن مثل الأشخرة صارت تشبه المالديف، ومسفاة العبريين صارت تشبه صقلية لكن بدون بحر، وظفار تشبه سويسرا، ومطرح كأنها باريس، وجزيرة مصيرة تضاهي جزر هاواي..

أخذ نفسه عميقا وهو يكمل سرده..

- الجبل الأخضر وجبل شمس سوينا فيها منتجعات علاجية وترفيهية. حتى حي الوزارات حولناه معلم سياحي فيه الكثير من المطاعم والمقاهي والفعاليات الترفيهية.. و«هكّا» على قولتكم.

مرت ثوانٍ من الصمت قبل أن يضيف:

- مدينة مسقط طوال أيام الأسبوع مكتظة بالأنشطة والفعاليات الثقافية. الناس هناك يحتارون إلى أين يذهبون، فالمتاحف نشيطة، والمعارض متنوعة، وأكبر مكتبة ثقافية في مسقط تستقبل المئات

مـن الطلبـة والبـاحثين والمثقفـين، والمسـارح ممتلئـة بـالعروض المسرحية والفنية. باختصار الحياة الثقافية في مسقط لا نظير لها.

لم تستطع تمالك نفسها فضحكت وكأنها لم تضحك منذ زمن..

«حيّرت فيّ فضـولي بـش نجـي نـزور عُمـان في أقـرب فرصـة».. قالـت لتتوارى بعيدًا عن فضول دهشته.

- حياك الله في أي وقت.. البلاد بـلادك ونحـن أهلـك وناسـك. لكـن خلّـي زيارتـك تكـون في الشـتاء. الجـو عنـدنا صْـهْدة، لابـق نـار. الصيف حرفيًّا يشوي.

ارتسمت ابتسامة على وجهها. غيرها سيتساءل: هـل يكـذب أم يسـخر من الوضع أم أنه يداري خجله من الواقع أم أنه يشعر بالخيبة؟ أعجبتها لعبة الخيال هذه. قررت تركه يقول ما يشاء إلى النهاية. ففي النهاية هي تعرف الحقيقية كما يعرفها غيرها.

سـاد الصـمت بينهمـا وهمـا يرتشـفان العصـير بقطـع الـثلج القابعـة في الأسفل. تلاقت أعينهما أكثر من مرة فرسم كل واحد منهما ابتسـامة علـى وجهه: «كم هـي جميلـة ومتزنـة وقويـة هـذه التونسـية» قـال في نفسـه بينمـا قالت هي: «لماذا لم ألتقِ به من قبل. لمـاذا تكـون حياتنـا مرهونـة بصـدف القـدر وتقـاديره؟». تـذكرت فجـأة مقولـة لسـبونغ بـوب جـرت مجـرى الحكمة على لسانه: «لا تتأسف على نجمة ضـاعت منـك، فالسـماء مليئة بالنجوم وإن لم تكن من نصيبك فمن يدري لعل القمر نصيبك».

عبرت قشعريرة جسدها وهي تراه يبتسم. ابتسامته ساحرة ومن عينيه قرأت رجاحة عقله وثقته بنفسه. قارنته بزوجها، من كان زوجها حتى وقت قريب. لا يبدو عليه أنه يشبهه في الخُلُق وطريقة التفكير.

لم تلاحظ ما ينم عن سوء نية في التعامل معها. من خلال خبرتها في الحياة تعرف أن الكثير من الشباب خاصة حين يسافرون بمفردهم يبحثون عن علاقات صداقة غير بريئة، لا تقل عن أن تكون علاقات جسدية عابرة سرعان ما تنطفئ بانتهاء لحظة المتعة، لكنه حتى الآن في كلامه وطريقة نظراته لم يبدِ ما يدّل على أنه واحد من هؤلاء الشباب. تنكسر نظراته خجلا قدّام نظراتها.

سرح بخياله بعيدًا. استدعى ثريا في هذه اللحظة. لو كانت لا تزال زوجته لكانت الآن أمامه ترشف من هذا العصير، أو أنها ستكون ملاصقة له بجسدها، أو تشبك أناملها بين أصابع يده. «ما السر في أميرة؟» تساءل ولم يزل يبحث عن إجابة في ذاكرته التي يبدو أنها ستخونه هذه المرة. سخر من نفسه كيف له أن يفكر في ثريا بحضرة أميرة «لكم هو مؤلم أن يشتاق رجل لامرأة وهو بجوار امرأة أخرى»[1].

قلّبت أميرة نظرها في المكان. هناك في إحدى الزوايا وقف قيس يخبرها أنه قرر التخلي عن فكرة الزواج بها. لم تستطع فهم ما حدث أو سبب هذا التحول في الحب بينهما. كيف لها أن تقتنع أنه لا يستطيع إجبار

(1) رواية فلتغفري، أثير عبدالله النشمي، ص81.

والديه على الموافقة أو يتمسك بموقفه تجاهها. تأثرت كثيرا بما حدث ومرت عليها أشهر طريحة الفراش والألم يعتصر قلبها وجسدها. أما هو فلم تمضِ بضعة أشهر حتى بلغها خبر زواجه من فتاة لا يعرفها ولا تعرفه. فتاة لم تكن تحبه أو يحبها.

أصبح وضعها أشبه بفتاة لم تعد لديها الرغبة في الحياة فـ«عندما تفقد الفتاة وهي في مقتبل عمرها من تحب يصبح للحياة لون واحد لا غير: الأسود، ولا يعود يهمها بعد ذلك أنها ستتزوج هذا الرجل أو ذاك، هذا الفتى الوسيم الغني، أو ذاك العجوز البخيل المريض»[1].

بعد سنوات عرفت ما حدث. كانت حينها زوجة لعبدالله وكان هو زوجًا لامرأة غيرها وأبًا لأطفال ليسوا بأطفالها. خلال سنوات دراستها في الجامعة يحدث أن يمر عليها ابن عمتها إبراهيم ليرجعها إلى البيت حين يتعذر عليها العودة في الحافلة التي تقلها من الجامعة، ولأنه يسكن في الحيل الجنوبية يمر عليها لإيصالها بسيارته. والد قيس يعرف من يكون إبراهيم لكنّ قيسًا لا يعرفه، وقد استغل زاهر بن حمود هذا ليقنع ابنه أن من يقول إنه يحبها تخرج مع شخص آخر. لم يصدق قيس فيها ذلك حتى رآهما ذات يوم فصدّق كلام أبيه وكذّب قلبه ولم يكلف نفسه عناء معرفة من يكون أو حتى سؤالها عنه.

(1) رواية الذي لا يحب جمال عبدالناصر، سليمان المعمري، ص202.

نظرت أميرة إلى ساعة هاتفها وشربت ما تبقى من العصير وأشارت لسعيد بموعد الانصراف بالنقر على معصمها.

***

في طريق العودة سلك سعيد وأميرة نفس الطرق المتعرجة لسوق المدينة العتيقة بأزقته الضيقة. توقفت أميرة محتارة قبل أن تسلك عدة أزقة وتلج إلى باحة واسعة مسقوفة على شكل مثلث. تبين له أنهما دخلا فندق العطارين، وقد بدت الساحة الداخلية كمطعم مفتوح تطل عليه من جميع الاتجاهات شرفات مقابلة لغرف الفندق. على مسافات متقاربة توزعت طاولات دائرية ومستطيلة عليها مفارش بيضاء، وتحيط بها كراسي حديدية مطلية باللون الأسود، فيما تتوزع وسطها شجرة غريبة الشكل تعرف باسم شجرة «سبحان الخلّاق»، جُلبت خصيصًا من إحدى غابات تونس لتَفَرُّدها في أوراقها وثمرتها وقابليتها للحياة بعيدًا عن أشعة الشمس. أرسل نظره إلى زوايا فناء الفندق متتبعًا نباتات تمتد إلى الأعلى وهي مقيّدة بخيط رفيع.

على طاولة أسطوانية طويلة وضعت مجسمات نحاسية تزينها رسومات مشغولة باليد جلبت من أحد المحالّ المتخصصة القريبة. وفي الشرفة العلوية صُفت مجموعات مشابهة من الطاولات تتيح لقاطني الفندق رؤية الساحة السفلية والاستمتاع بالطعام والمعزوفات التي تقدمها الفرقة الموسيقية.

بدا المكان شبه خالٍ من الزبائن في تلك الساعة من النهار. جلسا إلى إحدى الطاولات الشاغرة، فيما كانت فرقة موسيقية تطلق تواشيح تونسية بصوت عذب خلف مطرب يمسك آلة عود متوسطة الحجم.

«المكان خيالي هنا». علّق سعيد وهو يرنو ببصره من حوله.

- استنى حتى تسمع الفن التونسي الأصيل..

أعادت على أسماعه المعلومات التي باتت تحفظها وتكررها كلّما جاءت إلى هنا: «على مدار عشرات السنين ظل الفندق مهملًا حاملًا بين جنباته تاريخه كمستودع ومكان لإقامة العطارين وزبائنهم القادمين من أماكن بعيدة، ليتحول بعدها إلى استراحة سياحية تحوي مقهى ومطعما وفضاء واسعًا للسياح والراغبين في عرض منتجاتهم من الصناعات التقليدية، كالحلي والزرابي والأقفاص المزركشة».

يحتل الفندق موقعا مميزا في سوق العطارين ومنه استمد اسمه. في السوق يعرض الباعة جميع أنواع العطورات من عطور الياسمين والعنبر والورد، وبعضا من الخلطات المصنوعة لمناسبات الأعياد والأعراس ومواد التجميل، إلى جانب أشكال من القفّة التونسية التقليدية المخصصة لهدايا العرس.

استمعا لمقطوعتين قدمتهما الفرقة قوبلت بتصفيق من القلّة الحاضرين. وقبل أن تبدأ الفرقة في عزف مقطوعة جديدة غادرا مطعم

فندق العطارين، وعادا أدراجهما من حيث جاءا حتى انتهى بهما المطاف عند ساحة الاستقلال.

حاذيا بخطواتهما على الرصيف الموازي للطريق القادم من جهة الشرق. لم تكن هناك سيارات تسير على الطريق الذي بدا مختلفا بالنسبة لها بعد منع مرور المركبات وفق الإجراءات الأمنية التي أعقبت التفجيرين الأخيرين. مشيا بالاتجاه المعاكس، وحين وصلا إلى فندق الهناء سارعت أميرة للدخول إلى الفندق وهي تدعو سعيد للمضي خلفها. دلفا من الباب الزجاجي وفي الداخل من جهة اليمين انتصب موظفان أمام منصة الاستقبال.

أمسكت أميرة بمعصم سعيد وسحبته خلفها بالاتجاه المقابل، وعلى زاوية متوارية وجدا مصعدًا لا يتسع لأكثر من أربعة أشخاص. كبست بسبابتها على زر طلب المصعد ثم دخلا تباعا إلى الداخل، وعلى زر يكاد لا تظهر عليه الأرقام طلبت الرقم 10 فصعد بهما وكأنه سلحفاة بلغت من العمر عتيا.

انفتح الباب أمامهما وخرجا منه ليجد سعيد نفسه في أعلى البناية وقد أحاط بالسور المواجه حواجز حديدية مطلية باللون الأخضر. من هناك كان المنظر أكثر جذبًا للانتباه.. من هذا المكان أصبح يرى تونس على مد البصر.

بقي سعيد في مكانه يتأمل تونس العاصمة، وحين انتبه جال ببصره يبحث عن أميرة فلم يجدها. في البداية لم يقع بصره عليها لكنها ظهرت بعد قليل من خلف جدار أبيض. أشار لها بكف يده وأصابعه علامة استفهام عن سبب اختفائها.

- وقفت غادي أخذ صور المدينة من الجهة الخلفية للمبنى.
- صدقيني يا أميرة. أتصور تسعين بالمائة من اللي زاروا تونس ما يعرفوا عن هذي البناية ولا عن هذا المنظر من فوق.
- صحيح. أنا كنت حتى فترة قريبة ما نعرفش عن المكان هذا. بالصدفة عرفته وتذكرت لما جينا قُدام المبنى أنك تستحق إلقاء نظرة.

على الجانب المقابل لفندق الهناء لفت انتباه سعيد مبنى ضخم بطراز معماري مختلف ومميز.

قال وهو يشير بيده:

- المبنى هذاك فريد بتصميمه الخارجي.

تبعت بنظرها ما يشير إليه.

- صحيح. مبنى المسرح البلدي هذا من أقدم المعالم الثقافية في تونس.

فتحت هاتفها وبحثت عن معلومات في محرك البحث جوجل قبل أن تضيف.

- مبنى المسرح البلدي يزيد عمره عن المائة وسبع عشرة سنة. بالتحديد تأسس في عام 1902 وكان يعرف من قبل باسم كازينو تونس البلدي أو الكازينو البلدي.

هز رأسه تعبيرا عن إعجابه بوجود معلم تاريخي مثل هذا.

- أتمنى تسنح لي الفرصة لدخول هذا المبنى.
- بالتأكيد. مهم تلقي نظرة على المسرح البلدي. بالنسبة للتوانسة هذا المعلم من أهم المعالم الثقافية في شارع لْحبيب بورقيبة. فيه تقام مختلف الفنون الأوبرالية والعديد من المسرحيات الشهيرة للفنانين التونسيين والعالميين. هذا المبنى قام بتصميمه المهندس المعماري الفرنسي «رسبلوندي» وهو نفس المهندس اللي صمم عددًا من المباني في تونس.
- عندنا في عُمان معلم ثقافي مشابه يتميز بطرازه المعماري الحديث تُستخدم فيه أحدث التقنيات التفاعلية، هو دار الأوبرا السلطانية في مسقط، تم افتتاحه قبل ثماني سنوات تقريبًا. خلال هذي السنوات الثمان أقيمت فيه حفلات الأوبرا والحفلات الموسيقية والمسرحيات والملتقيات الثقافية والفنية.

أمالت برأسها يمنةً ويسرةً وهي تشير إليه بالتحرك نحو مقهى يحتل زاوية من السطح يستخدمه رواد الفندق. على خطين متعامدين اصطفت

طاولات تحيط بها كراسي حديدية وضعت على كل واحدة منها مظلة للوقاية من أشعة الشمس والمطر.

طلبا قهوتين وعلبتي ماء.

مرت الدقائق الأولى من جلستهما وهما يلقيان النكات والحديث العام عن الوضع في تونس وعُمان. رفع حديث سعيد غير المتصنع الكلفة بينهما فصار يحدّث أميرة وكأنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات.

«من بين آلاف الأشخاص الذين نصادفهم في حياتنا نصادف الشخص المناسب ولكننا نصادفه في الوقت غير المناسب» حدثت نفسها وهي تنظر للبعيد مشتغلة بلف خصلات من شعرها.

- أميرة.. وجهك ما غريب عليّ.. أنا شفتك في مكان بس ما قادر أتذكر وين.

«أكيد ما غريب عليك.. لكنك ما تتذكر» قالت في نفسها وابتسامة ترتسم على وجهها.

قالت ضاحكة:

- أنا من الأساس كنت نجمة في السماء. ولمّا طُحْت من السماء طُحْت هنا في تونس.

لكنه ظل في داخله يُصرُّ على أنه رآها في مكان ما حاول أن يتذكر لكنه فشل.

مرت دقيقة صمت قبل أن تضيف:

- الحقيقة أنا عدّيت أغلب عمري خارج تونس. رجعت عندي شهرين وإلا ثلاثة. كنت نجي لتونس بين الحين والآخر، في الآخر استقر بي الحال هنا.
- وين كنتي عايشة؟
- تو نحكي لك كل شي في وقت آخر.. توا حاول تتذكر أي نجمة أنا.

ألحقت قولها بضحكة كان لها وقع جميل على قلبه. في لحظة ما قد لا تتكرر كثيرا يتسرب إلى القلوب نور لا ينطفئ. في تلك اللحظة زاد معدّل خفقات قلب سعيد. لم يكن يتصور أن ذلك سيحدث له سريعا هكذا منذ أن فارقته ثريا.

كرر محاولاته للتذكر وحين عجز عن التذكر قرر أن يغير الحديث ويسألها عن طبيعة الطقس في تونس طوال العام.

- بشكل عام الطقس في تونس لطيف. كما تشوف نحن في فصل الصيف الجو منعش، أما في الشتاء فالموسم تكثر فيه الأمطار والبرد يكون قاسي.. آش الطقس في عُمان؟
- في كتب الجغرافيا في أحد الصفوف الدراسية تقول معلومة إن الطقس في الصيف في عُمان معتدل، لكني أؤكد لك: الصيف في عُمان حار والرطوبة عالية لدرجة أن الواحد منا ما يطيق عمره ولا يتحمل يطلع تحت الشمس.

ضحكت وهي تتذكر صيف عُمان الحارق. نظرت لساعتها وكان الوقت يقترب من الغروب. شعرا بأنه حان وقت المغادرة..

تركا المكان واتجها نحو المصعد ونزلا من المبنى وحين خرجا إلى شارع الحبيب بورقيبة لاحظا تزايد عدد الناس الذين يتحركون في كل الاتجاهات. توجها نحو دوار برج الساعة ما بين واجهات المباني وصف المقاهي التي وزعت طاولاتها وكراسيها على الرصيف. كان المكان يعج بالزبائن والنُدل الذين يحملون طلبات زبائنهم ما بين بعض المأكولات وأكواب الشاي والقهوة..

وصلا إلى الدوار ووقفا يتأملان وجه بعضهما بعضا.

«مر الوقت سريعًا».. قال سعيد والتوتر بادٍ عليه.

«برشا».. ردت ثم أضافت.. «آش رأيك نتقابلو الليلة في كرنيش حلق الوادي؟ نحب نْورِّيك جانب جميل من الحياة التونسية الشعبية».

التمعت في عينيه فرحة غير خفية. ابتسم فابتسمت بدورها من غير إرادتها. انجذبت لسحر ابتسامته.

- يا ريت والله. ما عندي أي ارتباط بالليل. الزين في هذا المؤتمر إن كل جلساته الفترة الصباحية حتى بعد الظهر.
- وقتّاش يوفّي المؤتمر؟
- بعد يومين. وموعد السفر بعد ثلاثة أيام.

قالت وفي داخلها تتمنى أن يبقى لفترة أطول من الأيام الثلاثة:

- ممتاز. عنّا ثلاثة أيام نستغلها بأكبر قدر ممكن بشّ تشوف مدن تونس. وإذا تقدر تأجل السفر يكون الوضع أحسن.

دون تردد أجاب:

- أكيد أقدر إذا حجوزات الطيران متوفرة. لكن لازم أروح بكرة مكتب السفريات أشوف موعد جديد للسفر.
- ممتاز.. نتقابلو الليلة في كرنيش حلق الوادي. لما تخرج من الفندق ابعث لي رسالة وقول السائق يوصلك الكورنيش وأنا توّ تلقاني نستنى فيك غادي.

تصافحا وافترقا كل ذهب في اتجاه. هي لكي تلحق بالقطار وهو ليعود مشيًا إلى الفندق. لم تكن الشمس قد غابت بعد، لكنّ ظلاما خفيفا يتوسع رويدًا رويدًا. توارت الشمس وانتشر الظلام في الأرجاء.

(8)

«يغدو العالم جميلاً حينما تكون سعيدًا، ويصبح قبيحًا حين تكون حزينًا. ألوان الحياة تتبدل بين الفرح والحزن من الداخل، فالداخل هو مصنع الألوان».

رواية «منبوذ الجبل»

عبدالله ناجي

استقرت على مقعدها في القطار المتجه إلى المرسى على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. للتنقل ما بين وسط المدينة والمرسى حيث تسكن مع جدتها، قرابة تسعة عشر كيلومترا، تفضّل أميرة دائمًا استخدام الشبكة الحديدية السريعة، كأحد مشاريع النقل الجماعي العمومي، مستفيدة من التكلفة الرمزية لهذه الوسيلة والأجواء الصاخبة للمسافرين بمختلف شرائحهم وأعمارهم.

إلى جانبها جلست عجوز يقارب عمرها عمر جدتها خديجة، وخلفها طفلان برفقة والدتهم تفننا في مضايقة بعضهما البعض، فيما بقيت أمهم عاجزة عن السيطرة عليهما.

على طول خط تونس – حلق الوادي – المرسى تستمتع بالمحطات التي يمر بها القطار. فما بين محطاتها العديدة تعلقت بالمناظر التي يخترقها مسار القطار، بدءا من نقطة الانطلاق وسط العاصمة، مرورا بمحطات البطاح وحلق الوادي وحلق الوادي الجديدة والكازينو وصلامبو وحنبعل وقرطاج الرئاسة وسيدي بوسعيد وسيدي الظريف، وانتهاء بمحطتها الأخيرة في المرسى. رحلة لا تخلو من المتعة والدهشة.

لا تجد أي صعوبة في التنقل عبر القطار، لكنها تجد صعوبة في فهم كيف لا يستطيع بلد غني بالموارد النفطية أن ينشئ سكة حديد مشابهة تربط بين مدنه ومحافظاته لنقل السكان والبضائع. وكيف لم تتمكن من عمل منظومة نقل عمومي تربط بين المدن بعضها البعض وتربط المناطق الرئيسية داخل كل مدينة. تساءلت: هل تعاني من قلّة المال أم غياب الإرادة أم شح العقول التي تُحسن الإدارة؟ عجزت عن فهم ما يحدث هناك، لكنها على قناعة بأن البعض ليست لديهم مشكلة في الموارد، بل مشكلتهم الأكبر في إدارة تلك الموارد على نحو سليم.

استعادت لحظات لقائها بسعيد. ابتسمت وهي تتذكر ابتسامته وخياله في وصف الأمور بطريقة ساخرة. لم يخطر ببالها لحظة واحدة أنه يتعمد الكذب رغم أن أغلب ما قاله بعيد عن الواقع. يحدث أن يشعر المرء بخيبة الأمل من واقع مجتمعه فيتصور واقعًا في خياله يتمنى أن يكون حقيقيًّا. هي أيضا، بشكل أو بآخر، خاب أملها في صلاح واقعها وخاب

ظنها في الكثيرين ممن حولها، فوجدت – كما قيل في مثل هذا الوضع – أن حب الذات لا يعد أنانية.

تشعر بخيبة تشبه خيبة طفل رفع سقف أمنياته فعاجلته الدنيا بواقعها المُرّ، أو كخيبة طفلة انتظرت والدها العائد بهديتها التي وعد بها فنسي وعده أو تناساه. لذلك «تبقى بعض الخيبات في قلوبنا مرسومة لا يمحوها ألف ندم، ولا حتى مليون اعتذار»[1].

فجأة جرفتها الذاكرة إلى عبدالله وسؤال ملحٍ ظل يتردد بين الفينة والأخرى: كم مرة خيّب عبد الله ظنها فيه؟ لم تعد تتذكر.

حين تقدم عبدالله لخطبتها كانت للتو قد بدأت في التعافي من آثار فشل زواج لم يتم وقصة حبّ انتهت بفشلٍ صادم. كانت لا تزال تئن من تداعيات حبّها لقيس وفسخ الخطوبة بينهما، وغدر إبراهيم لها وتركها بعد شهر من عقد قرانهما. صدمتان في غضون ست سنوات. الأولى حطمتها لأكثر من عامين وكادت بسببها أن تنهي حياتها، والثانية قضت على ما تبقى من ثقة في الناس من حولها.

كانت الأفكار تعصف بها والشك يملأ قلبها. هل من ذنب اقترفته لتُعاقب بهذا الشكل وبهذا التتابع من القسوة.

تقدم عبد الله لخطبتها فوافقت على الفور حتى قبل أن تعرفه جيدا. شاب يقربها في العمر من أسرة عرف عنها الورع والصلاح، ويعمل مثلها

(1) رواية وتمضي الحياة، مشعل حمد، ص23.

في السلك التربوي، وجامعي. لم تكن ترغب في أكثر من فرصة للهرب من دوامة التفكير التي تعصف بها. حسبت أن الزواج من عبدالله سينسيها قيس وسيعالج غدر إبراهيم لكنها لم تنسَ.

مرت السنوات وبقي عبد الله أسير عاداته، وبقيت هي في عزلتها الخاصة. عاش حياته الخاصة بين السفر والسهر ومغامراته التجارية. معه سافرت وسهرت، وبمساعدته أسست لنفسها مؤسستها الخاصة في مجال الأزياء والموضة والتجميل، هدفها أن لا يبقى لديها وقت للتفكير لكنها رغم ذلك ظلت تفتقد نفسها التي أرادت أن تكونها.

من حولها كانوا يتخيلون حياتها مع عبدالله مثالية إلى أقصى حد لزوجين متفاهمين ومنسجمين. امرأة متعلمة ذات حُسن وشخصية منفتحة، ورجلٌ مقتدر ماديا لا ينقصه التعليم والثقافة.

عبد الله في نظرها أفضل من ابن عمتها إبراهيم، لكنه لم يرقَ أبدا ليكون مثل قيس. المال وحده لم يكن كافيا، القلب ظل يخفق بعيدا عن عبد الله. منذ اليوم الأول لزواجها اكتشفت أنها منحته الجسد دون القلب. لا تملك قلبها، ومن لا يملك التحكم في قلبه لا يُلَم، فتلك المضغة خارج نطاق السيطرة، رغم ذلك بقيت وفية له، أمينة على حقوقه صائنة للعهد معه. لكن.. هل قابل الوفاء بالوفاء والأمانة بالأمانة والعهد بالعهد؟ تشك الآن في ذلك بعد ما اكتشفته ورأته بعينيها. هي لعنة ظلت تلاحقها، وذنب

لا تعرف ما هو لتعاقب عليه، أو هي اختبارات قاسية تقدمها لها الحياة لتتبيّن قوتها وصبرها.

الحقيقة كانت أمامها لكنها لم ترها. طوال سنوات زواجهما منح كل واحد منهما الآخر مساحته الخاصة. منحا بعضهما البعض الثقة وحرية الاختيار واحترام وجهة نظر الآخر حتى إن لم يتفقا على رأي واحد. «كانت غالبًا ما تردد بأن الثقة بين الزوجين عنصرٌ مهم أساسي في الحياة. تقول بأنّه من دون الثقة لا يكون الحب حبًّا حقيقيًّا، وفي هذه النقطة كانت على حق»[1].

بعض التصرفات أنبتت الشك في قلبها. سفره المفاجئ في الداخل والخارج، رحلاته غير المخطط لها، الاتصالات التي ترده في أوقات متأخرة من الليل، رسائل الواتساب المتكررة، اشتغالاته الغامضة بالهاتف وارتباكه حين يتفاجأ بوجودها. مرة تلو الأخرى يزداد لديها يقين أنه يخفي امرأة أو أكثر في حياته وأنه يخونها بعلاقات نسائية. «لا شيء يكسر المرأة إلا شكّها في أن لزوجها سريرًا آخر. تظلّ بين التصديق والتكذيب، فلا هي تصدّق تمامًا فتقيم جنازته في قلبها وتتهيأ للنسيان، ولا هي تكذّب تمامًا فتقدر على وصاله كأن شيئًا لم يكن»[2].

(1) رواية نداء الملاك، غيوم ميسو، ص137 بتصرف.

(2) رواية نازلة دار الأكابر، أميرة غنيم، ص363.

أطلت في صدرها نبتة الشك: في بعض الليالي كانت تدعوه فيصدها، في النهار تسأله المشورة في أمر صعب عليها فيرد ساهيًا ويجاريها دون اقتناع، تطلبه في أمر فيأتيها من غير حماسة ويغادرها متعجلا. تتعجب من تقلب حاله ومزاجه بين الحين والآخر، لم تكن تحسب ذلك أكثر من هموم اشتغاله في السمسرة على الأراضي والعقارات، أو أنه محاصر بين مشاكل أخوته وأولاد عمومته. أقل من ذلك بكثير حدّثها الشيطان عن اشتغاله بامرأة أخرى أو بنساء أُخريات. لم تطرد الفكرة هذه فهي تعرف طبيعة رغباته الفطرية وفورتها.

حالها اختلف عما كانت عليه معه. كثيرة هي اللحظات الممتعة التي قضتها بين يديه. قابلت ثورة شهوته بالمثل فلم تتردّد في طلب المزيد ولم تتوانَ عن إعطائه ما يريد. بركانٌ ثائر في داخلها يطفئه بجدارة، وتدفق سيل جارف من قبله تتركهُ ينساب في مجرى واديها دون أن تعيقه أو تحوّل مساره. تعادلت كفتاهما في الأخذ والعطاء. تلك كانت حاجة الجسد لا متعة القلب.

في المقابل هي حاضرة في حياته جسديا وعقلها شارد في البعيد. كأي امرأة تحترم وتقدس رابطة الزواج لم تقصر في الحقوق ولم تتأخر عن سد الفجوات الناقصة في حياته، لكنه -دائمًا- يرى في عينيها ألمًا تداريه دمعة تترقرق دون أن تسقط. سمع بوحًا في اختلاجات وجهها، وانتكاسات بصرها. ترك لها الفرصة للانفراد بنفسها كما تريد. وكما التزمت بواجباتها التزم هو بحقوقها، لكنه غاص كثيرًا في الوحل وهي انجرفت خلف قلبها

رغم إدراكها أن انجرافها خيانة لا تقل عن خيانة الجسد «فليس أغبى ممن يقنع نفسه بأنّ خيانة القلوب أقلّ شناعة من خيانة الأجساد»[1].

الصحة، والفراغ، والمال الوفير الذي بين يديه، والرفقة الفاسدة أهلكت دينه وأخلاقه «هناك أشياء كثيرة لا نستطيع أن نراها بوضوح إلا بعد زمن»[2]. لم يكن مقدرًا لها من قبل أن تعرف شيئًا عن حياته السرية، كانت مجرد شكوك بدون أدلة، وحدس خالطه توجس، وريبة من صدق تلك الشكوك.

الصدف وحدها قادرة على كشف ما نحاول مداراته والتستر عليه. في اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى -وكما جرت العادة كل عام- كانت برفقة عبد الله وأطفالهم في طريقهم إلى بيت أمها حين جاءه اتصال على هاتفه أربكه وغيّر وضعه. تلقى المكالمة دون أن يقول أكثر من كلمات مقتضبة غير مفهومة.

- خير عبدالله من هذا اللي متصل.

بارتباك واضح أجاب:

- خير إن شاء الله. هذا واحد من الربع يذكرني إنه ينتظرني أمرّ عليه عشان نروح الرحلة إلى الأشخرة.
- أيوا أعرف إنك رايح الأشخرة لكن أشوفك ما على بعضك.

---

(1) رواية نازلة دار الأكابر، أميرة غنيم، ص420.

(2) رواية كافكا على الشاطئ، هاروكي موراكامي، ص55.

- بصراحة ما مرتاح لواحد من الشباب المفروض يروح معنا. متضايق إنه بيروح معنا. دمه ثقيل. ما نزل لي من زور.

لم تقتنع بالرد لكنها ليست المرة الأولى التي لا يكون فيها على غير طبيعته. لاذت بالصمت. الصمت ملاذها الأثير. وأثيرها الخاص يملأ الفراغ في حياتها، فيه تجتمع أجزاء دقيقة من شخصيتها وتكوينها النفسي المعقد.

بالنسبة للجميع: أميرة وأطفالها وأمها تونس سليماني وناصر، كان العيد فرصة للاقتراب من بعضهم بعضا، ومناسبة يستعيدون فيها ذكرياتهم المشتركة، ويسترجعون حكاياتهم مع والدهم الذي رحل فجأة قبل سنوات وتركهم يواجهون أبناءه من زواجه الأول وأمهم والصراع معهم في المحاكم لتقاسم الورث.

بعد نحو ساعتين من وصولها تذكرت أنها نسيت حقيبة ملابس أطفالها. اتصلت بعبد الله لكن هاتفه كان مغلقًا «يمكن يكون طلع»، قالت في نفسها ومع تعذر الاتصال به لم يكن أمامها غير الذهاب بنفسها وإحضار الحقيبة. أخذت سيارة تونس وغادرت على عجل.

في الجراج الداخلي وجدت سيارة عبدالله ذات طراز **BMW X5** بلونها الأبيض، وإلى جانبها سيارتها المرسيدس **S 300** ذات اللون الرمادي فخمّنت أنه قد ترك سيارته وذهب برفقة أصدقائه أو أنه لا يزال يستعد للذهاب. فتحت الباب ودلفت إلى الداخل ومن بعيد سمعت

ضحكات ممزوجة بأصوات غير مفهومة. الصوت قادم من المطبخ. تقدمت بخطوات خفيفة وحروف الكلمات تتشكل بوضوح. بعض الكلمات ارتسمت بنبرة عبد الله لكن الكلمات الأخرى نسائية. بالقرب من الباب المفتوح وقفت وسمعت عبد الله يضحك وهو يتغزل في امرأة ما.

- اليوم كله لك يا قمر.. سمعته يقول ضاحكا.

وجاء الرّد بصوت متغنجٍ وفرح..

- منتظرة هذا اليوم من زمان عبودي..

عبودي!! هذه الكلمة لم تقلها له من قبل ولا مرة. كانت تكتفي بكلمة عبادي تناديه بها فيرد مباشرة: عبادي الجوهر فيضحكان أو يرد: عبادي الصف الأول ابتدائي.

«إنت متأكد إن زوجتك بيت أمها». قالت وهي تلف برأسها إلى الوراء لتطبع قبلة على خده.

«وحدي موصلنّها هناك. وسيارتها هنا». ردّ وأعاد لها القبلة بالمثل.

أطلّت أميرة برأسها فرأته يحتضن امرأة وهي تقف أمامه تجهز طعامًا لهما «سالت قطرة عرق على طول عمودها الفقري. سمعت قلبها وهو يدّق في صدرها. ارتعشت يداها وأحسّت أنّها تترنّح على ساقيها»[1]. كادت أن تصرخ، أن تزأر فيهما، أن تهجم عليهما «من هذه المرأة التي

(1) رواية نداء الملاك، غيوم ميسو، ص87.

تحتل مطبخي وتنتحل دوري ويلفها زوجي بذراعيه؟» تساءلت.. «وهل يهم من تكون؟ هل يهم اسمها أو شكلها؟ كل ذلك لا يهم الآن». في البداية لم تتعرف عليها لكنها أخيرًا تذكرت من تكون فتملكتها صدمة أعظم من صدمتها الأولى.

أحست بدوار خفيف وزغللة في عينيها، وقدماها لم تقدرا على الثبات. ارتعشت يداها وحبات عرق طفحت على جبينها. تماسكت. تمسكت بإطار الباب وأسندت جسدها على الجدار. فكّرت وقرّرت سريعا أن تقف وترى ثم طرأت ببالها فكرة أخرى. أخرجت هاتفها وحولته إلى وضعية الصامت وفتحت كاميرا الهاتف وبدأت التصوير. أحضان وقبلات حارّة ومداعبات جنسية مثيرة وضحكات عالية. تغنجت له بدلال وكأنه زوجها فلاطفها ومازحها وكأنها زوجته.

سجلت ما فيه الكفاية وتركتهما حين استقرا على طاولة الطعام يتناولان ما أمامهما. توجهت إلى الصالة ورمت بجسدها على إحدى الكنبات المواجهة للمطبخ ووضعت رجلا على أخرى وبدأت في مشاهدة زوجها وعشيقته في الهاتف الذي بين يديها وكأنها تراجع ملف أدلة جديدة تدعم شكوكها. مرت ربع ساعة ثم سمعتهما يقتربان من الخروج من المطبخ وحين رأياها أسقط في أيديهما. هي صرخت وغطت وجهها بيدها اليسرى فيما يدها اليمنى تجمع شتات قميصها المفتوح على صدر عريضٍ ناصع البياض، أما هو فوقف مذهولًا يحاول أن يخرج

الكلام من فمه فلم يستطع قول شيء، أو أن يرفع قدمه من مكانه دون أن يقوى. مرت دقائق وهما على هذه الحال وأميرة تنظر إليهما بعينين ثابتتين ثم أشارت لهما بالجلوس وابتسامة في غير وقتها ترتسم ببلادة على وجهها.

انصاعا صاغرين وجلسا دون أن يتكلما..

- سلامات. مالكم صرتوا خرسين؟ انقطعت أحبالكم الصوتية؟ أو نسيتوا الكلام؟

- .....

- تكلّموا.. ضحكوا.. قبل شوي كنتوا ماخذين راحتكم. ضحك ومغازل وبوس.

ثم وهي تغمز للعشيقة..

- وين التغنيجة يا روح عبودي؟ مالك ما تتكلمي.

أخيراً نطق عبدالله..

- أميرة خليني أشرح لك.. أنا.....

قاطعته..

- ما وقت الشرح الحين عبدالله.. كل شيء بتقوله ما منه فايدة.

لوّحت بهاتفها وهي تضيف: «عندي هنا فيديو مدته خمس دقائق تقريبا فيه كل شيء صار في المطبخ قبل شوي. من باب الاحتياط حوّلت نسخة إلى تلفوني الثاني وبريدي الإلكتروني».

- أميرة...

وضعت سبابتها على فمها..

- لا تكمّل.. لا تقول شيء.. لو مكانك ما أتلكم لمدة شهر. لو مكانك بستحي على وجهي. جايب في بيت الزوجية عشيقتك. هذا البيت فيه أطفال. فيه زوجة. فيه حياة زوجية مقدسة. يعني مكان طاهر مثل دور العبادة. عندك فنادق بالهبل. عندك شقق مفروشة. عندك مزارع واستراحات. ليش جبتها هنا بالذات؟ أو إنك باغي تجربها في بيت زوجتك وعلى فراشها؟

- أنا غلطان. أعترف بغلطي...

قاطعته مرة أخرى واضعة سبابتها من جديد على فمها بحركة عصبية..

- تشبّ. لا تتكلم ولا كلمة. خليني أخلص.. انت فعلا غلطان ما مرة وبس. ألف مرة. مليون مرة. كيف جاتك الجرأة تخون زوجتك بهذا الشكل وبهذي الطريقة. كيف جاتك الرجولة تخون صديقك. هذي زوجة صديقك محمود. أنا أعرفها. صديقك يا غبي.. تعرف إيش معنى صديقك؟

تعالى بكاء العشيقة..

- سمعيني يا بنت الناس.. الله يستر عليك ويهديك ويصلح حالك.. صحيح إنتي حشرة مثله وتستاهلي أدوسك بنعالي لكن أنا ما بفضحك ولا بفضحه إلا في حالة وحدة.

ثم وهي تنظر بحزم وصلابة في عيني زوجها..

- عبدالله.. هذا البيت تسجله باسمي وتحط في حسابي عشرين ألف، عشرة آلاف عنك وعشرة آلاف عنها. عاد إنت وإياها تفاهموا وتقاسموا المبلغ بينكم أو ادفع عنها رسوم الخدمات اللي قدمتها لك.
- عشرين ألف؟؟ قال مفزوعا.

ردت بحزم..

- أيوا عشرين ألف. عندك أكثر من هذا المبلغ. سمسرتك للأراضي مخلتنك هنقري.. ما بكون طمّاعة يكفي عشرين ألف. اعتبرها ثمن سكوتي.
- أميرة....
- خليني أخلص.. بعدها تطلقني وتكتب على نفسك تعهد إن قيس والعنود والريم يبقوا معي. تقدر تشوفهم على فترات وتلتزم بمصاريفهم وطلباتهم. عندك ثمانية وأربعين ساعة.. غير كذا أقسم برب العباد اللي خلق الحيوانات مثلك ومثلها لتكون فضيحتكم بجلاجل. ما بس أهلك وأهلها يعرفوا بخلي كل الناس تعرف. أمك وأبوك وربعك في الشغل وزوجها وأهلها. حتى صديقاتها وزميلاتها وزملائها في العمل.

تعالى بكاء العشيقة وأميرة تنظر إليها باحتقار.

تتعجب الآن من نفسها كيف كانت في تلك اللحظة باردة الأعصاب. تتساءل من أين جاءتها القوة لتحمّل ما رأته ولقول ما قالت.

أدركت أن عبد الله خاف من صلابتها بعد أن عاش سنوات يقتات من ضعفها وصومها عن ملذات ومغريات الحياة. كانت قوية في تلك اللحظة لكنها انهارت بعد أن غادر عبدالله وزوجة صديقه. بكت مثلما بكت حين تركها قيس بل كان ألمها مضاعفا. نضجت المعاناة وازدادت الجروح تقرّحًا وانبلجت مشاعرها القديمة وأحلامها الموءودة. استحضرت كل مصائب العالم في بكائها.

حمّى باردة سرت في جسدها فلم تعدْ تدري أهي من الغضب أم من الخوف على مستقبل حياتها وحياة أطفالها، أم من الحزن على حظها العاثر الذي ما فتئ يثبت لها أنه يجافيها.

استحوذت عليها أسئلة لم تعرف إجابتها. لماذا ينجح البعض في علاقته العاطفية ويفشل البعض الآخر؟ كيف لامرأة في نفس وضعها تقبّل خيانة شريك حياتها الزوجية بينما تقيم أخرى الدنيا ولا تقعدها؟ هل الأمر ناتج عن تراكمات العشرة بينهما وتأثير إحسان سابق وإساءة قديمة؟ سؤال واحد هزّها: ماذا لو كانت متزوجة من قيس وخانها كما خانها عبد الله؟ أرعبتها الفكرة وتملكتها الحيرة: أتسامحه أم تعاقبه كما عاقبت طليقها؟

على أي ذنب تعاقبها الحياة بهذا الشكل؟ تردد السؤال كثيرًا في رأسها.

أرهقتها الأسئلة وأتعبها التفكير فخرجت إلى أقرب متجر للتسوق وبكل جرأة اشترت علبة سجائر أمام أنظار زبائن لم يعتادوا رؤية هذا الفعل. تبعتها النظرات المندهشة. عادت إلى منزلها وأحرقت صدرها بسيجارة تلو الأخرى. كانت بحاجة إلى أن تحرق شيئا ما عوضا عن حرق كيانها وتدمير روحها. حين انتهت من موجة الحرق تلك كانت منفضة السجائر تفيض بما حملت. تناثر الرماد حولها.

على ظهرها سياط التعذيب وعلى أكتافها هموم العالم وفي رأسها دقت مطارق حديدية. انهمرت دموعها حتى أحست بحرقة في مقلتيها آلمتها. تخيلت الدمع دما وعينيها منبع نهر. بكت حتى فقدت وعيها وحين استفاقت كان قرارها عدم البقاء في عُمان.

قررت أن تختار حريتها الخاصة. «أليست الحرية، في نهاية المطاف، هي أن تقرّر أنت مصيرك بشجاعة»[1]. أرادت أن تتجاوز كل ما مر من حياتها وترك كل شيء خلفها بما فيهم أطفالها وأمها واللحاق بأخيها ناصر إلى تونس. كانت تلومه على قراره وتعيّره بأنه ضعيف لا يقوى على مواجهة تحديات الحياة، لكنها اليوم ترى أنه محق فيما قام به.

من هذه التي تتحمل فقدان الحب والحبيب وتتحمل غدر ابن عمتها وتطليقه لها بعد أن عقد قرانه عليها، ثم وفاة والدها وصراعها مع إخوتها حول الميراث، ومن بعد كل ذلك خيانة الزوج في بيتها. لم تعد قادرة على

(1) رواية غسق الكراكي، سعد محمد رحيم، ص245.

التحمل أكثر. حان الوقت للرحيل. في لحظة ما يكون الرحيل أفضل عمل نقوم به في حياتنا، أفضل ما نمنحه لأنفسنا حين نشعر بالاختناق.

توقف القطار في محطة المرسى فلملمت ذكرياتها خلف رأسها، وربطت أفكارها بخيط قطني أزرق، ونفضت حزنها وألمها من على وجهها، واستوت منتصبة في مكانها، ورغم الجرح الذي نبشته ذاكرتها ابتسمت حين تذكرت ابتسامة سعيد وضحكته. ستخبر جدتها عنه وستستأذنها في دعوته للعشاء معهم في البيت. ستقول لها «ريحة أبوي الغالي هنا.. عُمان جاءت إلى تونس».

(9)

«إن الأشياء التي تحدث لنا في حياتنا مكتوبة في حياتنا السابقة، وإنه حتى في أصغر الأشياء لا وجود للصدفة».

رواية «كافكا على الشاطئ»

هاروكي موراكامي

«الحب لا يقع صدفة، فهناك تخطيط مسبق بين قلبين، وكذلك لقاءاتنا، أصبحت لا تقع صدفة، فهناك ترتيب خفي بين روحين، ربما هو استدعاء روحي مشترك من الطرفين»[1]. بمثل هذا القول يمكن وصف ما كان مقدرًا لسالم بن خميس منذ أن أخرجته أمه من رحمها. لعبت الصدفة دورا في حياته، غيّرت الكثير في أيامه ولياليه وحوّلته إلى النقيض من شخص يمارس تفاصيل أيامه برتابة الأيام التي يهدرها موظف حكومي لم يجد ما يحفّزه أو من يهتم به فأمضى سنين عمله محبطًا.

في أحد أيام شهر مارس من العام 1981 وكان الوقت عصرًا، جلس سالم على مكتبه بصالة التحرير في جريدة عُمان يراجع مجموعة الأخبار الواردة إلى القسم الذي يشرف عليه، على طاولته وُضعت رزم من

(1) رواية مبنوذ الجبل، عبدالله ناجي، ص144.

الجريدة ومجموعات مبعثرة من الأوراق، وحوله يتحرك صحفيون في جميع الاتجاهات وأصواتهم تتعارك في الهواء.

أمامه خبران من المقرر أن يتصدرا الصفحة الأولى لعدد يوم الغد عليه أن يدققهما بعناية. الأول يرصد افتتاح محطة الأقمار الصناعية في منطقة خصب بمحافظة مسندم تحت رعاية سمو السيد ماجد بن تيمور، تتضمن توفير خدمات الاتصالات السلكية واللاسلكية وخدمات التلكس والتليفون وتغطية المنطقة بالبث التلفزيوني، والخبر الآخر يتناول وضع حجر الأساس لميناء خصب التجاري تحت رعاية معالي حمود بن عبدالله الحارثي وزير الكهرباء والمياه رئيس لجنة تطوير مسندم.

لم ينتبه سالم بن خميس لوصول مدير التحرير حتى لمح ظل شخص يقف أمام مكتبه فرفع رأسه ليرى الوجه المبتسم أمامه. كان مدير التحرير محبوبا لدى زملائه في الجريدة.

- مساء الخير أبو خميس.

وقف بوجه بشوش يرحب بمديره. ينادونه في العمل باسم أبيه رغم أن أكبر ذريته بنت تدعى مريم. كذا جرت العادة، يُنادى المرء بأبيه في كلتا الحالتين: إذا لم يكن له ذرية بعد أو إذا لم يكن له أبناء ذكور.

- مساء النور والسرور أبو طارق. حياك الله.
- ما بعطّلك عن شغلك.. على السريع جيت أذكرك إن الوفد التونسي بكره رح يبدأ مهمته في مسقط. قبل شوي مكتب صاحب

السمو بلغنا إن صحفيّة تونسية رح تكون معنا في الجريدة والباقي وزعوهم على التلفزيون والإذاعة.

- ما ناسي أبو طارق. لكن وين بيكون عملها وإيش دورها بالضبط.
- عشان كذا جيت أقترح عليك تكون معك في الفترة الأولى وبعدها بنشوف الوضع كيف.
- ولا يهمك أبو طارق.. تحت أمرك.

كانت عُمان تستجمع عافيتها بعد سنوات عجاف. تدور عجلة التنمية في كل مكان ولم تكن الجريدة الاستثناء من كل ذلك. كثفت جهودها وسخرت مواردها المتاحة لخدمة الفرد والمجتمع ومؤسسات الدولة، ولأنها لا تمتلك الخبرات البشرية الكافية من أبناء البلد، فتحت عُمان الباب أمام استقطاب الخبراء والموظفين في بعض التخصصات من الدول ذات الموارد البشرية، ووقعت اتفاقيات تعاون متعددة مع حكومات العديد من الدول.

في المجال الإعلامي، وقعت وزارة الإعلام والثقافة اتفاقًا مع حكومة تونس لاستقبال صحفيين وإعلاميين تونسيين يشاركون بخبراتهم وأقلامهم في مرحلة التأسيس الصحفي، أثمر عن إرسال تونس عددا من إعلامييها وخبرائها للمشاركة في مرحلة التأسيس تلك.

قبل نحو خمسة أشهر، احتفل سالم وزملائه في الجريدة بتحول الإصدار من أسبوعي ونصف أسبوعي إلى إصدار يومي عدا يوم الجمعة.

كان ذلك اليوم مميزًا بالنسبة لسالم وزملائه. بدأت التحضيرات قبل وقت طويل حتى جاء يوم السابع عشر من نوفمبر لتصدر الجريدة بترقيم جديد لم يحمل الرقم 501 بل الرقم 0، ما يعني تحوّلها إلى جريدة يومية، لتبدأ في اليوم التالي بالرقم 1 على الصفحة الأولى من صفحاتها الثمان.

وهو يهم بمغادرة مكتبه في نهاية النهار، أعاد سالم قراءة الرسالة الرسمية التي وصلته وعليها أسماء الصحفيين التوانسة. تحت بند جريدة عُمان كُتب اسم «تونس أحمد سليماني» وعلى الجانب المقابل عبارة: انتداب لمدة ستة أشهر قابلة للتمديد.

***

حين وصل إلى مكتبه في الجريدة وجد تونس سليماني تنتظره واضعة ساقًا على أخرى وفي يدها كوب شاي أحمر قدمه لها أحد العاملين في القسم. يبدو عليها أنها ممتلئة بالثقة والحياة. قدّر عمرها من النظرة الأولى ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين عاما، وحين وقفت لتحييه قدّر طولها بنحو مترين، ولمّا صار قبالتها كان عليه أن يرفع بصره لينظر في عينيها.

الواقع أنه فشل في تقدير عمرها فلقد كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، لكن هيئتها وبنيتها الجسدية يعطيانها عمرًا أكبر من عمرها؛ وفشل في تقدير طولها فلم يكن يتجاوز المائة وواحدًا وثمانين سنتيمترًا. لم ينتبه إلى قصر قامته حاله حال الكثير من العُمانيين. من بين بقية زملائها في

الوفد التونسي كانت أصغرهم سنًا، لكن سيرتها المهنية ونشاطها الصحفي سمحا لها لتكون ضمن اللذين تم اختيارهم للسفر إلى عُمان.

استنزفا عبارات الترحيب في دقائق، بعدها شرح لها باختصار طبيعة العمل وخطط الجريدة، وأعطته نبذة عن مسيرتها في العمل الصحفي في القسم الجهوي والقسم الثقافي بوكالة تونس إفريقيا للأنباء (وات) تحت إدارة هادي عنابي، ومشاركتها في تلك الفترة في بعض الأعمال البرامجية في التلفزة التونسية.

سريعًا اندمجت تونس سليماني في عملها بالجريدة، وبعيدًا عن أي ارتباطات في الغربة تفرغت لمهمتها بالعمل لساعات طويلة في تنقيح وتجميع وإعادة ترتيب الأخبار، ومتابعة المراجعات اللغوية والتنفيذ وقت صدور كل عدد.

قضت برفقة سالم وقتًا أكثر مما قضته مع زملائها التوانسة في التلفزيون والإذاعة. مع كل ذلك الوقت مع سالم نشأ بينها وبينه انسجام وود متبادل، ولم تكد تمر ثلاثة أشهر على عملها في الجريدة حتى وجدا نفسيهما منجذبين لبعضهما بعضا فتغيرت لغة الحوار وانفتح قلباهما الناضجان على بدايات حب واحترام واهتمام.

كان سالم بن خميس متزوجًا ولديه ابنتان: مريم ونور، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير في الزواج مجددا والارتباط بتونس. لا يعرف علاقة تصلح أن تكون معها غير الزواج. بعد ستة أشهر تزوجا.

***

حكت تونس لأميرة وناصر قصة لقائها بوالدهم وزواجها منه بعد ذلك. لم يخلُ زواجهما من بعض المنغصات من عائلته وعائلتها. العُمانيون لم يألفوا كثيرًا في ذلك الزمن زواج العُماني بغير العُمانية، فكان الحدث للكثيرين من أقارب سالم ومعارفه مستهجنًا وللآخرين صادمًا، والقليل منهم لم يكترث طالما هذه رغبته وحياته الخاصة، لكن عددًا منهم شمت بعائلة «أولاد الحار».

في ليلة لا برد فيها ولا حر افترشت تونس وأميرة وناصر حصيرة في الحديقة الخلفية لمنزلها بالخوير، وكان سالم قد رحل عن دنياهم قبل سنوات قليلة. جرتهم الذكريات للأيام التي كان فيها معهم. اشترت تونس هذا المنزل بعد تقسيم الورث بينهم وبين زوجته الأولى وأبنائها: مريم ونور وليث وغيث. كان نصيبهم مجزيًا، فالخير الذي ورثه سالم عن والده خميس بن سعيد من الكثرة أنه كان يكفي لجيلين آخرين ما بين أراضٍ زراعية وأخرى تجارية ومبانٍ سكنية مؤجرة وعدد من المحالّ التجارية.

لم يكن تقسيم الورث سهلا. طمعت الزوجة الأولى في حق تونس وطفليها وبذلت ما تستطيع ليكون من نصيب أبنائها لكنها فشلت.

- حين وصلت إلى عُمان بداية الثمانينات من القرن الماضي كانت الحياة في ذلك الوقت مختلفة عما هي عليه اليوم. الناس يرزحون تحت خط الفقر، والبيوت قديمة متهاوية، والكثير من الخدمات

غير متوفرة، الطرق غير مرصوفة، وخطوط الهاتف غير متوفرة، والكهرباء لم تصل بعد إلى أغلب أحياء المدينة. مدينة متأخرة في كل شيء لا تشجع على البقاء فيها. «في تلك الأيام كانت الأخلاق عالية رغم أن الحياة صعبة. لا كهرباء، لا ثلاجات، ولا ماء، ولا تلفزيونات»[1].

في سنّي ذلك كنت مفعمة بالحماس لخوض تجربة جديدة في بلد لم أكن أعرف عنه شيئًا. كل ما كنت أعرفه أن عُمان تحاول اللحاق بركب التنمية والتخلص من عزلتها السياسية وتخلفها الاقتصادي والاجتماعي، وأنها تمر بمرحلة انتقالية صعبة تتطلب مساعدة من الخارج، وكانت تونس من أوائل الدول التي استجابت لنداءات طلب العون. ذلك ما عرفته حين طُلب منا – أنا وزملائي الصحفيين – الذهاب إلى عُمان للعمل لمدة ستة أشهر ونقل خبراتنا إلى العُمانيين.

استطردت في حديثها..

- في جريدة عُمان التقيت بوالدكم وعملت معه. عمره يقارب عمري. المرة الأولى التي رأيته فيها لم يترك فيّ أي انطباع محدد. رجل يلبس ثوبًا أبيضَ متجعدًا وعلى رأسه عمامة بيضاء لفت كيفما جاء ببشرته الحنطية وشاربه الكثيف ولحيته غير المشذبة. كل من حوله تقريبًا كانوا هكذا، فلم يكن يشغل بالهم في ذلك

(1) رواية الذي لا يحب جمال عبدالناصر، سليمان المعمري، ص180.

الوقت كيف يبدو هندامهم، لكنهم بالتأكيد كانوا أفضل من غيرهم.

كل يوم عدا أيام العطل الرسمية كنا نقضي ساعات طويلة في تجهيز المادة الصحفية، وينتهي دورنا بصدور العدد الجديد للجريدة، بعدها أغادر عائدة إلى فندق الفلج المستأجر لإقامتنا فيه، ويغادر والدكم إلى بركاء ليكون مع زوجته وابنتيه ووالده. في فترات العمل كنا نتحدث ونحكي عن حياتنا الخاصة. حدثني عن زواجه وابنتيه وعائلته وقريته، وحدثته عن بلدي تونس ووالدي ووالدتي وبعض من الأعمال الصحفية التي قمت بها والبرامج التلفزيونية التي اشتغلت على إعدادها، وكما هي كل العلاقات تنشأ بين جميع الأطراف مشاعر خاصة، فإما أن تكون على شكل نفور وإما على شكل انجذاب. بيني وبينه حدثت ألفة ومودة وومضة حب مقيدة.

التفت أميرة إلى أخيها مبتسمة وغمزت بعينها..

- أبوك وأمك حبّوا بعض بعد ثلاثة أشهر من أول لقاء بينهم.. شباب هذي الأيام يحبوا من أول ساعة.

رد ناصر على ابتسامتها بضحكة خفيفة وهو يضرب بكفه على ظهرها.

- أعرف وحدة حبّت من أول نظرة وطاحت مريضة لأن اللي تحبه طاح مريض.

شاركتهم تونس ضحكهم ومزاحهم بتذكير ناصر بقصته مع زميلته في وزارة الإسكان.

- وأنا أعرف شابًّا أحب زميلته في العمل وعاش قصة حب تصور أنها أسطورية اتضح في النهاية أنها من طرف واحد.
- لا يا أمي.. ما كانت من طرف واحد. أنا متأكد إنها كانت تحبني مثل ما حبيتها لكن صار شيء مني زعلها. قال مبررًا ما حدث.
- وأنت الصادق يا ولدي، الحقيقة أنها كانت تريد استغلال وظيفتك وصلاحياتك من أجل مساعدتها على الحصول على أرض تجارية في روي بطريقة غير قانونية. ولأنك رفضت قالت في نفسها هذا الولد لا فائدة منه. ردّت تونس فسكت ناصر.

شعرت أميرة أن الأمور ستخرج عن مسارها لو لم تتدخل. هذا الموضوع بالنسبة لناصر بالغ الحساسية. الفتاة التي كان يعتقد أنها تحبه خيّبت ظنه. فبعد أن كان متأكدًا من حبه لها وحبها له اتضح أن هدفها مصلحة شخصية. كل مرة يُفتح فيها هذا الموضوع لا ينتهي على خير. تعرف أميرة أنه وحتى وقت قريب كان تجاوز القانون والتحايل عليه متاحا للكثيرين ممن بيدهم الصلاحيات في استخلاص الأراضي لأنفسهم وأقاربهم. كما تعرف أن ناصر لو أراد أن يفعل مثلهم لفعل دون أن يُكشف أمره أو يحاسبه أحد، لكنه يرفض ذلك، ويعتبر أن من يفعلون ذلك يخونون عُمان ويسيئون لها، وأنهم لا يقلّون دناءة عن أعداء الوطن.

لوّحت بيديها وهي تنثر بتوتر ضحكة مصطنعة..

- يا أمي الحين نحن نريد نسمع قصتك مع السيد الوالد. كمّلي يا بنت خديجة.

تنهّدت قبل أن تكمل..

- كنت أعرف أنه متزوج وأن لديه أطفالًا. وكنت أعرف أن لا أحد في عائلته تزوج من غير عُمانية، وأن لا أحد في عُمان تزوج من تونسية، وأن الزواج من عُماني يعني الاستقرار في عُمان وعدم العودة إلى تونس إلا لأيام قصيرة على فترات متباعدة، وأن ذلك يعني صراعًا مع زوجته وأهله وصراعًا آخر مع أهلي.

كنت أعرف كل هذا لكن قلبي يومها كان يميل له يومًا بعد آخر، في داخلي تمنيت الارتباط به، عقلي يجذبني لنبذ الفكرة وقلبي يأخذني إليها. كنت أرى في عينيه حبًّا كتمه داخل صدره لم يستطع في البداية البوح به. في كلامه وأفعاله ما ينم عن اهتمام كبير بي وبمتطلباتي. شعرت بميله إليّ كما شعرت في قلبي بحبي له.

والدكم في داخله إنسان نقي. منذ أن التقيته وحتى وفاته لم يتغير إلا إلى الأحسن. لم أشهد عليه أن حمل حقدًا على أحد. حتى عندما اكتشف ما فعله زاهر بن حمود، وتشويهه لسمعتك لمنع ابنه من الزواج بك، لم يقل أكثر من: «الله يسامحه ويستر على بناته». في داخله قلب يسع العالم بالمحبة والنقاء.

التقت عينا ناصر وأميرة لبرهة وتفرقتا سريعا. تتذكر أميرة جيدًا كيف أصبحت على لسان أهل القرية فتناقلوا ما قاله عنها زاهر بن حمود: «بنت سالم بن خميس تخرج مع شباب في الجامعة. هذي الوريقة من ذيك الشجيرة»[1]. ظلّت لفترة طويلة مثار سخرية الجميع، فـ«الفضيحة هي اللعبة التي يبحث عنها الجميع، لإراقة شرف أحدهم ومقارنتها بفضحائهم السرية»[2]. واست نفسها أن «كل كائن يتخفى بقذارته، ويخرج منها مشيرًا لقذارة الآخرين»[3] أو ما يعتقد أنها قذارة لدى غيره.

لم يدم الصمت طويلا بينهم فواصلت تونس حديثها..

- في يوم من الأيام سألني -وكأنه يختبر رأيي- عن إمكانية زواجي من عُماني والاستقرار في عُمان، فكان ردّي على مقدار ما التقطته من إشارة بالقول: «إذا كان ذلك العُماني اسمه سالم بن خميس فلا مانع». هذا الرد أضحكه رغم أنه يحتمل الجدية والهزل في الوقت عينه. لم يتردد لحظتها في القول إن «سالم بن خميس بالفعل يريد أن يتزوجك» فكان ردّي واضحًا على وجهي دون أن أقول شيئًا باحمرار خدّي وابتسامة خجل على شفتيّ.

لم تستطع أميرة منع نفسها عن التعليق..

---

(1) مثل عُماني يفهم منه هنا أن البنت تشبه أمها.

(2) رواية فسوق، عبده خال، ص193.

(3) رواية ترمي بشرر، عبده خال، ص18.

- هلا بوي. هلا بالحب زمن الطيبين. حب مال أول غير. المغازل زمان كان راقي. كلمتين تكفي عن قصيدة غزل.

اكتفت تونس بابتسامة وهي تواصل حديثها..

- تحول الأمر إلى المرحلة الجادة. تناقشا قبل كل شيء في وضعه مع زوجته الأولى وابنتيه ووضعي القانوني في عُمان. شرطي الوحيد أن يوافق والديّ ويكون الزواج معلنًا بشكل رسمي.

في ذلك الوقت لم تكن هناك حاجة لأخذ موافقة من أي جهة حكومية في عُمان. الزواج كان متاحا من الأجنبيات. أول قانون نظم عملية الزواج من أجنبي أو أجنبية صدر في عام 1993 وفق شروط وضوابط محددة.

في البداية جدكم أحمد وجدتكم خديجة رفضوا زواجي من عُماني، وازداد رفضهم بعدما عرفوا أنه متزوج، لكن استطعت إقناعهم في النهاية. في شهر سبتمبر من عام 1981 تزوجنا. أنا واصلت العمل في الجريدة بعد ما توفرت لي درجة رسمية، وخلال سنوات نجحنا مع فريق العمل في تطوير شكل ومضمون الجريدة.

تساءلت أميرة:

- إيش أبرز شيء حققتوه في الجريدة؟

- أتذكر من بين كل السنوات سنة 1985 وكان عمرك سنتين. في تلك السنة حققنا خطوة كبيرة عندما دشَّنَّا ملاحق متخصصة. أول ملحق نجحنا في إصداره كان في شهر يوليو أسميناه ملحق

الولايات وظل يصدر كل يوم اثنين. كنا – أنا ووالدكم – مشرفين عليه، وبعدها أيام قليلة نجحنا في إصدار الملحق الثقافي، وبعدها بشهرين صدر ملحق عُمان الرياضي.. ذلك العام عالق في ذاكرتي.

توقفت تونس عن الكلام لتتناول كوب الشاي وقطعة بسكويت فسارعت أميرة للتعليق:

- صحفي عُماني ناجح وصحفية تونسية نشيطة شكلوا ثنائي في جريدة عُمان.

تساءل ناصر:

- لكن ليش انتقلتوا للعمل في الإذاعة؟

تردّدت تونس قليلا قبل أن تجيب عن سؤال ناصر.

- لم يكن هناك سبب معين ولم ننتقل إلا في عام 1995. في تلك الفترة كان لدى وزارة الإعلام خطة للتطوير، وكانت بحاجة إلى كوادر صحفية لتنشيط نشرات الأخبار والبرامج الإذاعية. وزير الإعلام وقتها كان عنده حرص على جودة العمل الإعلامي وتطوير المنظومة بشكل عام، ولأن والدكم من الكفاءات الوطنية النشيطة عرضوا عليه الانتقال إلى الإذاعة مسؤولًا عن بعض الأقسام فيها. وافق على العرض وطلب منهم أن أنتقل معه في إعداد البرامج الإذاعية.

قال ناصر:

- أيام زمان كانت الإذاعة والتلفزيون فيها إعلاميون لهم وزنهم وثقلهم..
- صحيح.. في فترة الثمانينات والتسعينات تعاملنا واشتغلنا مع إعلاميين في الإذاعة والتلفزيون كانوا مثالًا حيًّا للإعلاميين الوطنيين. كل واحد منهم يوزن ذهبا بثقافته وقدراته ونشاطه.

عدّلت أميرة من جلستها وهي تسأل تونس عن أبرز أسماء ذلك الجيل..

- في ذلك الوقت كانت الإذاعة تزخر بإعلاميين مميزين. من بين مقدمي البرامج والمذيعين مثلًا: حسن الفارسي، علي المجيني، إبراهيم اليحمدي، زاهر المحروقي، محمد المرجبي، طيبة المعولي، عبدالله سليمان، أحمد الحوسني، خالد الزدجالي، ليلى حارب، وغيرهم.

في التلفزيون مثلًا: ذياب بن صخر العامري، حمد البلال، منى محفوظ، رحمة حسين، عبد العزيز السعدون، علي الجابري، سعيد الزدجالي، يعقوب يوسف، عمران الكندي، كلثم محمد، ويوسف الهوتي.

- زمان لما كنت أتابع أخبار الإذاعة علق في رأسي أسامي مذيعين صوتهم كثير مميز مثل: غانم بن الدعن عاشور، وسالم النجار، ومحسن الفقيه.. هرّش ناصر ذقنه وابتسامة تكسو وجهه.

ردّت تونس بابتسامة مشرقة وكأنها تذكرت شيئًا أبهجها..

- في محطة الإذاعة والتلفزيون بصلالة مذيعون متميزون مثل ما قلت: غانم والنجار والفقيه، وأيضا سعود الخالدي، ومحمد الرواس، وعوض مقيبل، وعلي اليافعي، وصبرية حيدر، وزينب الزدجالي.
- لما كنت صغيرة التقيت ببعضهم. أتذكر إني كنت أخاف من صوت حسن الفارسي القوي. مرة سألت أبوي كيف أخلّي صوتي مثل صوته. أبوي ضحك وقال لي: «في عُمان كلها ما بتحصّلي مثل صوته». وأتذكر بعد خالتي منى محفوظ لما كانت تجيب لي هدايا ولما أقولها شكرا خالوه ترد علي بصوتها الحلو الهادي «يا بعد روح خالتك». أمّا خالتي فخرية فكنت أناديها أحيانًا فاغورة وأحيانًا مبروكة وهي تضحك وتبوسني.

وكأنها تستعيد بعضا من طفولتها، قفزت أميرة من مكانها وسحبت ناصر ليقف أمامها وبدأت في تقليد صالح شويرد وهو يغني أمام فخرية خميس.

مبروكة قتلني الحب.. مبروكة ذبحني الحب.
أنا قلبي صاير فرخ تويتين.. عينش هي السكين.
عندش شفت الحنان.. اللي فقدته من زمان.
كان بطني يا مبروكة بيعوي.. وعندي صابح مليان.
خلّاني ألوح لبان.. خلاني ألوح لبان.

ظلت تونس تراقبها وهي تلوّح بيديها مردّدة الكلمات كما كان ينطقها شويرد. التمعت عيناها وهي تتذكر التجمعات التي كان تقيمها في الفناء الخارجي لبيتهم المستأجر في مدينة الإعلام، وكيف كانت الأجواء عائلية مع زملائهم الإعلاميين وزوجاتهم. تدرك في هذه اللحظة أن شيئا مميزًا لم يعد موجودًا لدى الجيل الجديد.

قطعت أميرة الصمت بضحكتها:

- تتذكّري لما كنا نتابع المسلسلات العُمانية القديمة؟ سعيد وسعيدة والشايب خلف وصيف حار وجمعة في مهب الريح..
- جيل الدراما أيضا جيل مميز. من اليوم ما يتذكر أحمد درويش الحمداني، وأحمد الأزكي، ومحمود عبيد، وطالب محمد، ويعقوب الحارثي ككتاب دراما؟ ومن لا يتذكر صالح شويرد، وفخرية خميس، وصالح زعل، وسعود الدرمكي، وسعد القبان، وجمعة الخصيبي، وأمينة عبد الرسول، وأمينة موسى، وسالم بهوان؟ أغلب الأعمال الدرامية والتغطيات المباشرة في الإذاعة والتلفزيون اشتغل عليها مخرجون كبار مثل: عبد الله اللمكي، وخليفة الطائي، وأمين عبد اللطيف، وعبد الله حيدر، وفوزي الغماري، ومحمد ناصر المعولي، وسعيد موسى.

أطلقت تنهيدة وواصلت حديثها وهي تنظر في عينيْهما..

- ذلك الجيل كان له صيته وسمعته في عُمان. كل هذه الأسماء كانت معروفة للناس، لكن الكثيرين لا يعرفون عشرات الأشخاص

الـذين اشـتغلوا خلـف الكـواليس. أنـا أعتـبرهم جنـودًا مجهـولين. بعضهم اشتغلت معهم وبعضـهم سـمعت عـنهم مثـل: عبـدالرحيم عيسـى، وهـلال السـيابي، وأحمـد الفلاحـي، وسـيف المحروقـي، ويوسف الوهيبي، وخميس الحمداني، ومحمود الميمني، وعيد المشيفري والكثيرين.

توقفت لبرهة لكي تبل ريقها بالماء..

- في كـل الأحـوال كانـت هنـاك جهـود مـن قبـل هـؤلاء الإعلاميـين لصناعة إعلام محترف، إعلام قدّموا له كـل طاقـاتهم علـى حسـاب عوائلهم ومتعهم الخاصة. في ذلك الوقت لـم يكونـوا ينظـرون ولا يفكـرون في المناصـب أو المصـالح الشخصـية. عرفـوا أنهـم إذا مـا أرادوا صناعة مستقبل بلادهم عليهم تجاوز الماضي بكل ما فيه.

تساءل ناصر وهو يحك فروة رأسه:

- ليش اليوم ما نسمع عن الإعلاميين مثل ما كنا نسمع عـن إعلاميـي الجيل السابق؟

فضلّت عدم الرد وهي تدرك أن من يعملون في مجال الإعـلام يعرفـون السبب مثلمـا تـدرك أن «الحيـاة لا تُعيـد نفسـها، والفـرص الضـائعة تبقـى ضائعة إلـى الأبـد. الحيـاة لا تقـدم هـدايا»[1]. وكـأن سـؤاله لامـس جرحًـا يؤلمها تنهّدت تونس وسرحت بخيالها.

(1) رواية شقة في باريس، غيوم ميسو، ص121.

(10)

«الحياة قصيرة يجب أن يستغل الواحد منا لحظات الجمال فيها ليحياها بهدوء وراحة بال».

رواية «كهف آدم»

يونس الأخزمي

طلب سعيد من مرافقه التونسي التوجه إلى كورنيش حلق الوادي. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف مساءً حين بعث برسالة نصية إلى أميرة يخبرها أنه في الطريق. طلبت منه انتظارها عند محل للعصائر يتوسط مطعمين مقابل مجموعة من المقاهي المنثورة على ضفاف البحيرة تكتظ بالزبائن.

وقف مندهشا من الأمواج البشرية المتحركة في أكثر من اتجاه، الصخب يملأ المكان، والمركبات تواصل طريقها مطلقة أبواقها لحث من أمامها على الابتعاد. من مسافة ليست ببعيدة تأتيه أصوات أغانٍ لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ومطربين ومطربات لم يستطع معرفتهم. كل واحد من هؤلاء مشغول بنفسه وبمن يرافقه وأحاديثهم تختلط بعبارات عربية وفرنسية.

طرقت تفكيره ملاحظة توقف عندها كثيرًا؛ فلم يحدث أن رأى في تونس حتى اللحظة أي نوع من أنواع التحرش. لم يسمع أحدا يلقي بكلمة على فتاة مهما كانت هيئتها، سواء كانت محجبة أو غير محجبة. ولم يرَ من يلاحق فتيات أو يضايقهن. في آخر دولة عربية زارها كان الوضع مختلفًا تمامًا. لا يكاد يمر عليه يوم هناك دون أن يسمع أو يرى من يتحرش بهن في الشوارع وأمام مرأى الجميع دون أن يردعه أحد أو ينصحه.

جال ببصره في المكان ونسائم الهواء تدغدغ وجهه. أعجب بما يراه. لا يشبه المكان شاطئ السيب أبدًا ولا شاطئ القرم ولا أي شاطئ آخر. هنا تصطف المقاهي على طول الرمال الناعمة وكل واحد من هؤلاء البشر يمنح نفسه متعته.

فجأة ظهرت أميرة أمامه وريح خفيفة تداعب خصلات شعرها. أعطته ابتسامتها فرفع يده حتى لامست الجانب الأيمن من جبهته ملقيا ما يشبه التحية العسكرية.

- وَخَّرْت عليك؟
- لا أبدا. أساسا أنا ما حسيت بالوقت. مندهش ومأخوذ باللي أشوفه هنا.
- فعلا.. المكان حيّ.

مشيا متقاربين. على يسارهما خلف حاجز خرساني قصير شرع نادل في توصيل وجبة عشاء.

- هل نجلس هنا؟

- لا.. تو نرْجَعْ للبقعة هذي من بعد. نحب نوريك الجانب الآخر من الكورنيش هذا.

سحبته من يده وعبرت به الطريق، ثم مضت أمامه على جانب محلّ تفصله عن المحلّ الآخر أرض فضاء. مشى سعيد خلف أميرة بينما ركض بعض الصبية خلف كرة يتسابقون للحاق بها.

ليس ببعيد عنها لم يعد قادرًا على إخفاء سعادته بالفرصة التي واتته ليكون برفقة أحد أبناء تونس، محفوفًا باهتمام بنت تونس. فكّر: إن الغوص في بلد غريب بمفردك لا يعادل الانغماس فيه برفقة من يعرف طرقاته وخباياه.

بقدر سعادته بحماس أميرة وتطوعها لمرافقته حيث لا يستطيع أن يذهب بمفرده، آلمه حقيقة أنه كان يتمنى لو كانت ثريا معه في هذه اللحظة ليستمتع معها كما استمتعا في رحلاته السابقة. ما زالت تطارده في خيالاته. تذكّر أنها تعشق مثل هذه الأجواء.

حين أصبحا على الجانب الآخر وجد مجموعة من المطاعم تتوسط شارعي روزفلت والكورنيش، ومن داخل تلك المطاعم تأتي رائحة بحرية يعرفها.

- إذا في يوم سمعت عن مدينة الأسماك أو مدينة الحوت تأكد أن حلق الوادي هي المقصودة.
- مدينة الأسماك؟
- نعم هي مدينة الأسماك. شعار حلق الوادي الذي يزين وسط المدينة هو ثلاث سمكات برونزية.

خطر بباله سريعا شعارات الولايات في عُمان. دائما ما يعتقد أن شعار أي ولاية يجب توظيفه بالطريقة الصحيحة.

- باش نقلّك معلومة عرفتها قبل فترة بسيطة. منذ عدة سنين كانت المدينة تنظم مهرجان السمك أو «يوم الحوت» كما يسميه أهل المدينة. هذا المهرجان يقام، كما قيل لي، في شهر أغسطس من كل عام. ورغم أن المهرجان توقف بعد الثورة التونسية، إلا أنه عاود نشاطه من جديد قبل ثلاث سنين، فيما حافظت المدينة على تميزها في تقديم الأسماك. وإلى اليوم يْجِي الزوار من تونس وخارج تونس ليتذوقوا وجباتها التقليدية بما فيها وجبة البريك.
- البريك!!! تعجب سعيد من الاسم.
- هو طبق من الأكلات الشعبية موجود في تونس والمغرب ودول أخرى. كل دولة لها طريقتها الخاصة في التحضير. في تونس الوجبة هذي تقدم بكثرة في شهر رمضان.
- شوقتيني أجربها..

أرادت أن تخبره أن البريك بشكل أو بآخر تُشبه السمبوسة الموجودة في الخليج، بحشواتها المتفاوتة بين البيض المسلوق والتونة واللحم المفروم والدجاج المقلي، لكنها كانت على يقين أنه سيعرف ذلك بنفسه قريبًا.

واصلا التقدم بمحاذاة مطاعم المأكولات البحرية. مرا بمطعم عروس البحر والمطاعم الملاصقة له حتى وصلا إلى مطعم الأحباب، وكانت جميعها مكتظة بالزبائن، قبل أن يقررا العودة ليختارا مطعما مكوّنًا من دورين.

اخترقا الزبائن المتحلّقين حول طاولاتهم، وصعدا سلما خشبيا وبحثا عن طاولة شاغرة في المساحة العلوية الضيقة. أشار أحد موظفي المطعم إلى طاولة في إحدى الزوايا أصبحت متاحة بعد أن غادرها زوجان متشابكي الأذرع. شبكت أصابع يدها اليمنى في أصابع يده اليسرى وسحبته خلفها ومرّا ما بين الفراغات المتاحة.

جلسا إلى الطاولة الشاغرة، وسحب كل واحد منهما الورق المقوى المدون على وجهيه قائمة الوجبات المتوفرة وأسعارها. بقي سعيد يتأمل ما كتب فيها، وحين رأت في عينيه الحيرة وهو يقرأ قائمة الطعام تبسمت في وجهه فأدرك أنه لابد أن يرفع راية الاستسلام فلا مجال لديه لمعرفة ما يجب عليه اختياره. طلب منها اختيار وجبة العشاء بحسب ذوقها وخبرتها. وافقت على اقتراحه وهي تغمز له.

- باهي. هذي وجبة العشاء الأولى بيناتنا.

سألته:

- هل تحب المقرونة أو الرز؟

هز كتفيه دلالة عدم اكتراثه. أمسكت بقائمة الطعام..

- إذا كنت من محبي المقرونة. المتوفر مقرونة بغلال البحر، مقرونة قرنيط، مقرونة شوابي، مقرونة كروفات.. وإذا كنت من محبي السمك المشوي. المتوفر سمك بوري، سمك تريليا، وسمك ورقة، وسمك قاروص.. أو نطلب كسكسي بالحوت؟

- أترك لك الاختيار.. اختاري اللي تشوفيه مناسب على ذوقك.

طلبت مجموعة من الأكلات، وظلا ينتظران مستمتعين برؤية الزبائن يتشاركون فيما بينهم الطعام والكلام.

اشتغلا قليلًا بقراءة الرسائل الواردة إلى هاتفيهما. ردّت على رسالة وردتها من ناصر تطمئنه أنها موجودة في حلق الوادي، وأنها سوف تعود متأخرة بعد أن تنهي جولتها. بدوره سجّل رسالة صوتية هو الآخر يخبر فيها الطرف الآخر بأنه بخير وأن الأوضاع في تونس مستقرة وأنه لا شيء يدعو للقلق. لم تتبين من يكون الطرف الآخر لكنها خمّنت أنه يخاطب زوجته.

- مَرْتِك؟ سألته مبتسمة.

لزم الصمت وهو يقلّب عينيه بعيدًا عن عينيها. تمنى في سرّه لو كانت الرسالة موجهة لزوجته لكنّها لم تعد كذلك. تمنّت في سرّها لو لم تسأله لا بد أنه الآن يضطرب شوقًا لزوجته وبسؤالها أوقدت حنينه. ظلّت تراقب وجهه فلمست وجعًا مخفيًا خلف عينيه.

قرّر أن يبوح بما في داخله..

- أنا مطلّق...

ندت عنها شهقة تعجب. هل ما يقوله صحيح أنه طلّق ثريّا؟ رددت لنفسها. لا تعرف عن زوجته أكثر من اسمها ولا تعرف عن حياتهما شيئًا. رغم ذلك سرت في داخلها موجة من السعادة لم تعرف سببها. تملكها شعور بالراحة والسعادة أنه في هذه اللحظة غير متزوج. شيء ما أبهجها، شيء دفعها للفرح.

نظرت إلى حزنه فأعجبتها تقاسيم وجهه. من غير أن تشعر عضت على شفتها السفلى وهي تتفرس ملامح وجهه وهو يسحب ما ارتسم عليه من حزن وكدر. تساءلت كيف للمرء أن يكون مقبولًا في فرحه وحزنه، في ضحكه وبكائه، في جِدّه وهزله.

- سامحني.. موش من حقي نسألك.

- لا والله. سؤالك ما فيه شيء. هذي سنة الحياة.. اليوم نتزوج وبكره نطلّق وبعد بكره نتزوج من جديد. والدنيا ماشية.

ردّت على ابتسامته بمثلها..

- تزوج بنت تونس. مازحته فبدت جملتها وكأنها تقصد واحدة من الفتيات التونسيات.
- الزواج من خارج عُمان يحتاج له مراكض. تصاريح وموافقات وشغلانة لها أول ومالها تالي.
- وإذا تحب الزواج من عُمانية خارج عُمان؟
- حتى في هذي الحالة لازم البنت تعمل توكيل لمحامي في مسقط يتابع الموافقات من الجهات المعنية وتوثيق كل شيء وبعدها يقدروا يتزوجوا. باختصار أحسن لهم يروحوا مسقط ويتزوجوا ويرجعوا يسافروا من جديد.

في نفسه قال «درهم وقاية خير من قنطار علاج»، فما يراه البعض تعقيدا للأمور يراه آخرون حماية للتكوين المجتمعي.

بعد مرور عشرين دقيقة وصلت وجبتهما فطلبت أميرة من النادل علبتيّ بُوفَا سِيدِر ثم بدأت في استعراض الأطباق: «هذا سمك القاروص المشوي وهذي شوربة برغل بالطماط وهذي تسمى الهريسة وهذا طبق كلمار محشي» قالت فيما مد سعيد بملعقته لتذوق الشوربة.

مط بلسانه حول شفتيه وهو يقول.

- تِفلة.

غمرتها ابتسامة دارتها بتصنع جهلها.

- تِفلة؟ آش تعني؟

- تِفلة معناها ينقصها الملح.

ناولته زجاجة صغيرة شفافة وطلبت منه إضافة الملح. عاد لتذوق الشوربة من جديد وهز رأسه دلالة على استحسانه.

- ذوق الهريسة..

لم يكد يضع ملعقة صغيرة من الهريسة في فمه حتى أخرجها متذمرًا.

- يا ربي.. تحرّق.. متروسة فلفل هذي الهريسة.

ضحكت وهي تضع ملعقة من الهريسة في فمها وتتلذذ أمامه بتناولها.

- في العيلة عندنا أشخاص يموتوا على الأكل اللي فيه فلفل.. قال.
- تناول الفلفل بكثرة يسبب مشاكل صحية. أنا نحب الهريسة بمختلف طرق طبخها لكن ما ناكلهاش بكثرة.

ردت ثم أضافت في سرّها: «لذلك تشتهر عيلتنا بـ«أولاد الحار» بسبب أكل بعضهم للفلفل بكثرة وبعضهم الآخر للحلويات والسكريات».

- صحيح.. عن نفسي ما أحب الفلفل كثير.

خمّنت أنه من الفئة الثانية من «أولاد الحار» الذين يستلذون بالحلويات والسكريات، فقررت أن تأخذه في جولة لتذوق الحلويات التونسية، وخطر ببالها معجنات السمسم واللوز وطبقات البقلاوة باللوز والعسل والفريكة التونسية وكعكة الورقة والمقروض القيرواني وكعكة زيت الزيتون. تذكرت أن بعض الحلويات التونسية على مائدة رمضان تتشابه مع الحلويات العُمانية، مثل وذنين القاضي أو الدّبلة، والزلابية

بأنواعها والصمصة، واليويو، والمخارق الباجية، والبوزة، وقرن الغزال، لكن بأسماء مختلفة.

خطرت ببالها أجواء رمضان في تونس. بالنسبة لها لا وجه للمقارنة بين رمضان في تونس ورمضان في عُمان. تدب الحياة في تونس بعد القيام ولا تتوقف إلا بعد الفجر لتبدأ حياة أخرى. ذاكرتها مليئة برمضان تونس، بعادات الناس فيه، بالمأكولات التي تختفي طوال العام وتملأ البيوت في رمضان، بالسهرات العائلية التي تمتد حتى الفجر، بكل شيء.

سهرات السلامية تبهجها بأصوات المغنين وضربهم للدفوف، وزغاريد النساء المنتشيات بالكلمات التي يرددها الرجال من بعيد. تبهجها المهرجانات والسهرات في البيوت والمقاهي. تبهجها قوافل التضامن مع المحتاجين بما تحمله من مواد غذائية وأموال. تبهجها موائد الرحمن المنتشرة في الحارات والطرق الرئيسية. تبهجها التلاوات القرآنية والتواشيح الدينية التي تصدح بها الجوامع.

دائمًا ما تحكي لصديقاتها في عُمان أن ليل رمضان في تونس كنهاره مليء بحياة لا تُملّ. في سهراتهن الخاصة صنعت لهن الزريقة بالطريقة التونسية والجوارش والمحكوكة والغريبة والبجاوية. يتضاحكن حين يسمعن منها أسماء تلك الحلويات لكنّهُن لا يُخفين إعجابهن بالمذاق.

قال وهو يلوّح بيده أمام عينيها:

- أميرة.. أميرة..

انتبهت أنها سرحت بخيالها بعيدًا. رأته يضحك فابتسمت. مدت يدها وبدأت في احتساء الشوربة.

بدآ في تناول العشاء وهما يتبادلان حديثا عاما عن الحياة في تونس وما أعجبه مما رآه.

راقبت أسرة تونسية على مقربة من طاولتهما اندماج سعيد وأميرة في حوارهما فخمّنت أنهما زوجان حديثا العهد، وأن تفاهمًا يسود بينهما، فحين يتحدث تسهب عيناها فيه وتتأمل حركة شفتيه والعكس يحدث تمامًا من قبله.

حدثته عن جدتها خديجة واقترحت عليه تناول العشاء في بيت جدتها خلال الأيام المتبقية له في تونس. الحديث قادهما للسؤال عن اهتمامات كل واحد منهما.

- عندي هواية قديمة أمارسها بين الحين والآخر: الرّسم. كان يفترض أنميها وأطوّر مهاراتي فيها، لكن الكسل اللي فيني خلّاني ما أهتم كثير في هذي الهواية.
- منذ الصغر كنت نتمنى نكون رسّامة أو شاعرة أو عازفة موسيقى. قالت بحسرة.
- كل واحد منّا عنده موهبة وهو صغير. البعض منا ينتبه لها ويطورها، والبعض يهملها وينساها، والبعض تموت عنده بسبب تدخلات خارجية من الأسرة أو المجتمع أو الإمكانيات المتاحة.

هزّت رأسها موافقة على ما يقول..

- إيش أكثر شيء تسويه في أوقات فراغك. أكثر هواية عندك؟
- القراءة.. قراءة الروايات خاصة. بالنسبة لي الروايات هيّا أهم شي لأوقات الفراغ.
- ممتاز.. خبريني عن أهم الروايات اللي قريتيها..

كادّت أن تقول: الروايات العُمانية.

- في ذاكرتي روايات عربية وأجنبية كثيرة. كل رواية شنوة يميزها عن غيرها ولكل كاتب أسلوبه المختلف عن غيره. بعض الروايات نقراها أكثر من مرة وبعضها ما يعجبنيش ما نكمّلهاش.. بداياتي كانت قراءة روايات: موسم الهجرة إلى الشمال، أولاد حارتنا، لا، وبشكل عام روايات نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي ومصطفى أمين وغيرهم.
- القراءة ممتعة.
- يستهويني مع القراءة كتابة العبارات اللي تشدني في الرواية اللي نقراها. ولّى عندي توّة قايمة طويلة بعبارات من الروايات.
- ايش بتسوي بهذي العبارات؟ تنشريها في تويتر والفيس بوك؟ أو فقط تجمعيها وتحتفظي بيها؟

- نفكر نكتب رواية ونحط فيها العبارات هذي وبعض الاقتباسات من الأفلام المترجمة.. ردّت ضاحكة وأضافت.. إذا كتبت رواية نحب نسميها «أميرة.. بنت تونس» بشّ نحكي فيها قصة حياتي..

صدحت بضحكة أعلى عن سابقتها.

ردّ بابتسامته التي تُربكها..

- من حقك تكتبي اللي تريدي، وهذا العنوان كثير جميل ومميز.. خبريني هل قرأتِ روايات عُمانية؟

فاجأها السؤال. في سرّها قالت «الروايات التي لم تنل الاهتمام والتسويق الذي تستحقه».

- قريت روايات لبعض الكتاب العُمانيين. عندكم كتّاب روايات باهين برشا لكن سؤالي: هل أعطوهم الدعم والتشجيع اللي يستحقوه؟

أغمض سعيد عينيه وأخذ نَفَسًا عميقًا تبعها بتنهيدة حارّة وكأنه يسقط صخرة من على كاهله..

- بالتأكيد.. كل سنة نعمل احتفاليات احتفائية خاصة ومهرجانات للأدب مقسمة ما بين كتاب القصص والروايات وكتّاب الشعر وكتاب التاريخ وغيرهم. في هذي الاحتفالية يتم تكريم المتميزين، وفوق كل هذا يحصلوا دعم مادي ومعنوي لمواصلة إنتاجهم الأدبي. الأدباء في عُمان مُرفهون. أطلقنا أسماء أبرز الكتاب

والشعراء والمفكرين على معالم تاريخية وشوارع رئيسية ومواقع سياحية.

التقط قطعة من السمك المشوي أمامه قبل أن يكمل..

- قبل شهر تقريبا فازت رواية «سيدات القمر» للكاتبة جوخة الحارثية بجائزة مان بوكر الدولية في إنجاز غير مسبوق للروائيين العُمانيين، سوينا لها احتفالية ضخمة وكرّمناها أكبر تكريم صار في عُمان. وقبل ثلاث سنوات تقريبًا فازت نفس الكاتبة بجائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب عن روايتها «نارنجة». ولو كان بيدي سلطة لمنحت رواية «الباغ» للروائية بشرى خلفان جائزة الإبداع.
- جميل لكن نعتقد فمّة تقصير واضح في الترويج لكتّاب عُمان. أغلب التوانسة والعرب بشكل عام ما يعرفو شي عن الكتاب العُمانيين وإنتاجهم الأدبي.
- صحيح.. عُمان فيها كتاب وروائيين وشعراء مميزين. مثل ما قلتي هناك تقصير فعلًا يتحمله في جانب الكُتّاب أنفسهم، وفي الجانب الآخر تتحمله المؤسسات المعنية بالجانب الثقافي.

أرادت أن تستمتع بخياله..

- زعمة الدولة قايمة بدورها كما يلزم في دعم الكتاب والمثقفين في عُمان؟

ابتسم سعيد مرتبكًا وهو يمسّد لحيته ويهرّش عنقه. لم يردّ على سؤالها فعرفت ما يودّ قوله، وعرَفَ أنها كشفت لعبته.

(11)

«الحديث مع الغرباء شائق، لا يترك قلقًا خلفه، لا تفكّرْ بافتضاح أمرك، بالخجل من ذاكرة سوداء مُرهقة، وسرٍّ تلمحه في أعين الآخرين».

رواية «ظل هيروفرودوتوس»

بدرية البدري

انتبهت أميرة لحركة النادل وهو يحمل أطباقًا متنوعة من المأكولات والمشروبات للزبائن المتحلّقين حول طاولاتهم. على الجدار المقابل عُلّق جهاز تلفزيون يبث مسلسلًا تونسيًّا بدون صوت. أعاد النادل تقليب القنوات التلفزيونية قبل أن يستقر على برنامج رياضي يعيد لقطات لمباراة كرة القدم بين منتخبي تونس ومالي.

قبل عدة أيام شاهد سعيد جانبًا من مباراة تونس وأنغولا، وكانت النتيجة قد انتهت بتعادل الفريقين بنفس نتيجة المباراة الثانية، بهدف لكل منهما. وصلهما صوت المحللين وهم يشككون في قدرات المنتخب التونسي في التأهل للمرحلة التالية من بطولة أمم إفريقيا.

- مبروك عليكم التعادل قدّام مالي.

ضحكت وهي تقول..

- كما يقولوا جماعة الرياضة: تعادل بطعم الخسارة.
- التعادل أحسن من الخسارة.. هذا هو التعادل الثاني للمنتخب في هذي المجموعة. المباراة الماضية قدموا مباراة كبيرة قدّام أنغولا وكانوا أقرب للفوز لولا هدف التعادل في الشوط الثاني[1].
- ما تَبَّعْتِشْ الماتش لكن سمعت شكون يقول إن الفريق كان متذبذب.

ضحك..

- إذا منتخب تونس متذبذب وهو بهذي القوة والحماس واللياقة البدنية. ايش أقول عن منتخب عُمان.
- سمعت شكون يُسمي المنتخب العُماني بأنه برازيل الخليج.

نفر سعيد بما في فمه وهو يطلق ضحكة قوية لم يقدر على التحكم بها.

- بالضبط. ربعنا في الخليج يسمونه برازيل الخليج ونحن فرحانين. زمان كنا نسمع عن لاعبين كبار مثل غلام خميس ويوسف عبيد وعامر سالم وهلال حميد ومحمد عامر والطيب عبد النور وسيف الحبسي ويعقوب إسماعيل وخلفان زايد.
- تقصد أن الجيل القديم أفضل من الجيل الجديد من اللاعبين؟

(1) في تلك البطولة حصل المنتخب التونسي على المركز الرابع (المؤلف).

- ما أقدر أقارن بين الجيلين، لكن بصراحة أتذكر المنتخب في السنوات الماضية كان يضم عناصر رائعين. تشكيلة فيها لعيبة زينين. مثل عماد الحوسني وعلي الحبسي وهاني الضابط وبدر الميمني وكانو وأحمد حديد ومحمد ربيع وفوزي بشير وهاشم صالح وغيرهم.

صمتت ووجها يشع سعادة. ذكرياتها مع المنتخب كثيرة. تعد نفسها متعصبة في تشجيعها للمنتخب. ملأها الحزن في عام 2004، وقد تجاوزت العشرين من عمرها، عندما خسر المنتخب المباراة النهائية لكأس الخليج أمام المنتخب القطري بعد مارثون من ركلات الترجيح المهدرة. وحزنت على الخسارة أمام الإمارات في 2007. أما فرحتها فكانت في 2009 بعد الفوز بأول كأس للخليج بعد تغلب المنتخب على نظيره السعودي بركلات الترجيح. يومها شاركت في مسيرات فرحٍ بالسيارة كما خرج الآلاف غيرها.

بادرها سعيد بسؤالها عن إنجازات المنتخب التونسي. أمسكت هاتفها وبدأت في النقر على الشاشة وهي تحرك الصفحات حتى توقفت لتقرأ بعض المعلومات..

- ما نْخَبيش عليك. ما نعرفش برشا عن المنتخب التونسي. لكن... هنا.. بعض المعلومات المتفرقة.. منها... منتخب تونس شارك في خمس نهائيات لكأس العالم. و.... منتخب تونس أول فريق

إفريقي يفوز بمباراة في كأس العالم أمام المكسيك بثلاثة أهداف مقابل هدف عام 1978.

واصلت تقليب صفحات شاشة الهاتف:

- أما إحصائيات اللاعبين... فمن بين اللاعبين الأكثر مشاركة مع المنتخب الحارس الصادق ساسي، وفي مركز الدفاع راضي الجعايدي، ولاعب الوسط قيس الغضبان. ومن الهدافين.. الهداف التاريخي لتونس عصام جمعة والهداف الحالي وهبي خرزي..

تتبعت بعينيها شاشة هاتفها قبل أن تضيف:

- هاي معلومة تقول إن المنتخب التونسي شارك في كأس القارات مرة وحدة، وشارك في كأس أمم إفريقيا 19 مرة فاز باللقب مرة والوصافة مرة.
- قلت لك منتخب تونس قوي.. عنده لاعبين محترفين ومدربين وإدارات تشتغل ليل نهار عشان المنتخب يتألق.
- ومنتخب عُمان؟
- بعده يحتاج له وقت. يحتاج اهتمام بالدوري والدعم المادي وحوافز اللاعبين وصقل المراحل السنية، وقبل كل هذا يحتاج لنا إدارات فاهمة معنى اللعب الاحترافي بدون مجاملات وصراعات

داخلية. رغم كل شيء لحدّ الحين نحن راضيين بلقب برازيل الخليج.

تقاسما الضحك بينهما. مدّت يدها وضربت كفها على كفه. أعجبها حسّه الفكاهي. رأت أنه يملك مهارة في جلد الذات بدون تجريح أو إسفاف. تتخيله ماهرا في انتقاد نفسه بطريقة ساخرة. أعجبها أكثر أنه وضع حدًّا بينهما.

غادرا المطعم وعادا إلى الكورنيش.

على الرمل كان الناس موزعين حول طاولات صفّت بشكل عشوائي. عبرا الحاجز الإسمنتي وتوجها إلى إحدى الطاولات وطلبا كوبين من الشاي باللوز وعلبتي ماء. أخرجت، محرجة، علبة سجائرها والقدّاحة ووضعتهما على الطاولة.

- خطر لي باش نتكيف. هل عندك مانع؟

ردّ وهو يمد يده ملتقطًا العلبة ويخرج سيجارتين ناولها واحدة وأشعلها لها ووضع الثانية في فمه.

- أبدًا.. خذي راحتك. أنا بعد بخذ معك وحدة.
- أنا في العادة ما ندخنش لكن بين فترات متباعدة يجيني مزاج التدخين. الباكو هذا عنده أكثر من شهرين.
- وأنا بعد ما أدخن. بس الجو هنا يتطلّب حبة سيجارة. خاصة وانتي موجودة قدّامي. غمز لها فضحكت.

هذه المرة الأولى التي يقول فيها عبارة تحمل غزلًا مبطنًا. في تلك اللحظة لم تعرف بماذا ترد، لكنها عندما أوت إلى فراشها استدعت المشهد واسترجعت أحاديثهما فانتابتها رعشة وتزايدت دقات قلبها.

ارتشفا الشاي صامتين وإذا ما التقت عينيهما تبسما وكلام كثير يدور دون حروف أو جُمل. شيء بينهما يكبر لم يستطع أي واحد منهما البوح به، ففضلا الاحتفاظ بمسافة الصمت وحدود مساحتهما.

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة بعد منتصف الليل حين قررا مغادرة المكان، ومثلما حدث قبل غروب الشمس تبادلا جدول اليوم التالي. لديه جلسات صباحية لذلك اتفقا على اللقاء بعد الظهيرة. اقترحت عليه الذهاب إلى قليبية فوافق على الفور. سأذهب معك أينما تأخذينني.

- رح أتأكد من مرافقي إذا كان يقدر يوصلنا قليبية بعد الظهر. بكرة الصباح أبلغك برسالة واتساب.. نلتقي الساعة ثنتين بعد الظهر.
- تو تلقاني عند دوار برج الساعة.

مضت في طريقها بعد أن غادر سعيد بسيارة الأجرة. قررت أن تعود مشيًا على الأقدام. ما بين حلق الوادي والمرسى مسافة تسعة كيلومترات سبق أن قطعتها في ساعتين ونصف الساعة. حركة الناس بسياراتهم وأقدامهم ونسمات الهواء العليلة شجعتها على مواصلة طريقها، لكنها كانت بحاجة أكثر للملمة أفكارها ومراجعة ما استجدَّ في حياتها.

***

«هذه المدينة لا تنام». قالت وهي تشق طريقها من حلق الوادي باتجاه صلامبو أحد أحياء قرطاج. رغم الوقت المتأخر لا تزال الحركة مستمرة والناس في كل مكان.

على عكس العاصمة مسقط، لا ينبئ ما حولها أن الوقت تجاوز منتصف الليل وأن الفجر يقترب، فالمحالّ لا تزال مفتوحة، والمطاعم عامرة بالزبائن، والمركبات على الطرقات تواصل مسيرها، فيما يمضي البعض هنا وهناك على أقدامهم ودراجاتهم الهوائية.

مسقط ليست هكذا. فكّرت. لا وجه للمقارنة بين عدد سكان العاصمة مسقط الذي يتجاوز مليون نسمة وعدد سكان تونس العاصمة الذي يقل عن سبعمائة وثلاثين ألفًا، لكن أيضًا لا وجه للمقارنة بين الحياة الليلية في العاصمتين.

لم تشعر قط أنها في مدينة غريبة عنها، كأن الدم التونسي لم يخالطه أو يتفوق عليه دم عُماني، وكأن تكويناتها لم تنقسم بين بلدين مختلفين في التاريخ والجغرافيا والثقافة والعادات والتقاليد. تعجبت أنها في عُمان لم تشعر أنها تشبه التونسيات في شيء، وفي تونس تجد نفسها لا تشبه العُمانيات، ولا تمت لهن بصلة إلا بجنسيتها واسمها المرتبط بعائلة عُمانية أبًا عن جد.

ما الذي تغير فيّ؟ تساءلت. جرّبتُ الحب. جّربتُ الغدر. جرّبتُ الخيانة. جرّبتُ صراع الإخوة بين بعضهم البعض. جرّبتُ عداوات العمل ودسائس الزملاء. رأيتُ الكثير في حياتي وتعلمت أكثر مما رأيت.

بعد التجربة المريرة لقصة الحب بينها وبين قيس والسمعة التي سرت على ألسن الناس في القرية اعتزلت الحياة لسنوات.

خلال السنة الأولى التي أعقبت ترك قيس لها رافقها الحزن والكآبة. دخلت في دوامة من الألم. لم تعد تشعر بالرغبة في الحياة. كان قيس بالنسبة لها الحلم الجميل الذي انتظرت تحقيقه، والحياة التي تمنت أن تزدهر بها ومعها. خاب أملها وتحطمت آمالها. تماما كانت تشعر بالعجز وقلّة الحيلة. تعرف جيدًا أن «أسوأ أنوع العجز أن تشعر أنك غير قادر على الاطمئنان على من تحب، ولا السؤال عنه، فالسؤال عن من تحب محرم كالحب نفسه في شرائعنا»[1].

فشلت تونس في إعادتها لسكة الحياة.

- يا ابنتي.. لا أحد يدوم لأحد.. قد يكون من الخير لك عدم إتمام هذه العلاقة.

لكنّ جرحها ظل يؤلمها، لم تتعافَ منه سريعًا. فكّرت في الانتحار، فكّرت في أفضل طريقة لتحقيق ذلك، لكنها في كل مرة تنقصها الجرأة والتهور المطلوبين للقيام بمثل هذا الفعل، وكثيرا ما كانت تونس تحضر أمامها كملاك يذكرها بعبثية الفكرة. تتعجب أن فكرة كهذه تملكتها وهي التي كانت تحسب نفسها قوية وشجاعة بما فيه الكفاية. «لدى جميع الناس رأيٌ حول الانتحار. هل هو فعل شجاعة أم فعل جبن؟ لا هذا ولا

(1) رواية ظل هيروفروديتوس، بدرية البدرية، ص69.

ذاك بالتأكيد. إنه مجرد قرار يائس حينما يجد المرءُ نفسه في مأزق. إنّه الملاذ الأخير لخروج المرء من حياته والتخلّص ممّا لا يمكن تحمّله»[1].

كل يوم كانت تمني النفس بأن قيسًا سيتراجع عن قراره وأنه سيأتي لخطبتها والزوج منها. في داخلها تتمنى ذلك، ومع كل يوم يمر يخبو أملها، لكنها ظلت تكذب على نفسها أن ما يحدث مجرد كابوس قريبًا سينتهي. ليس أملها وحده ما كان يخبو ويتضاءل فيها، فيوم بعد آخر تختفي أميرة ويحلُّ شبح فتاة لم تكن موجودة من قبل. لم تتقبل حقيقة أن حياتها ستكون بدون قيس. في تلك السنّ كانت لا تزال بعيدة عن فهم النظام الذي يسيّر الدنيا، ولم تكن بالقوة الكافية لتجاوز آثار الجريمة التي ارتُكبت في حقها. «هناك جرائم كثيرة لا يحاسب عليها القانون، ولكن الزمن يتكفل بالمحاسبة عليها، ومنها ظلم ضعيف أو قهر يتيم أو كسر قلب عاشق»[2]. تساءلت: هل سيتكفل الزمن بالانتقام لها ممن ظلمها وكسر قلبها!

بقي قيس كالوشم في روحها. كحبة خال بحاجة لمشرط طبيب كيّ يزيلها. كأثر جرح عميق لم تفلح السنين في إخفائه أو مسح أثره. كجينات وراثية ظلت تتنقل من فرد إلى آخر، تطفو حينًا وتخبو حينًا آخر.

(1) رواية نداء الملاك، غيوم ميسو، ص268.

(2) رواية بنت دجلة، محسن الرملي، ص172.

لم تجد هناك رغبة في الحياة. مات في داخلها الشعور بالإيمان والصلة بربها. انقطعت عن الصلاة ومالت نحو الشك بوجود خالق يدير الكون. جرفتها الكتب التي تتحدث عمّا أسمته حق البشر في تعظيم شكهم بكل ما يحيط بهم. كادت أن تقع أسيرة الإلحاد ثم فجأة وجدت نفسها ذات صباح بشعور مختلف تجاه الحياة. لم تعرف ما الذي حدث وكيف تحولت من النقيض إلى النقيض، كل ما عرفته أن رغبة مختلفة سرت في داخلها، رغبة قوية للمقاومة واستعادة نفسها مما هي منجرفة نحوه.

تقدم إبراهيم لخطبتها وكانا على وشك الزواج بعد انتهاء كل الاستعدادات، لكنه قبل موعد الزفاف بأيام تراجع عن كل شيء تاركًا إياها في حيرة من نفسها. وعاد الناس يتحدثون عنها. وعاد زاهر بن حمود لينثر سمعتها على الطرقات الضيقة.

كرهت إبراهيم وكلّ الذكور في العالم. تملكتها قناعة أن الرجال الحقيقيين لا يخونون ولا يغدرون ولا يتعرضون لشرف النساء ولا يسيئون لهن. عادت للعزلة والشك في كل شيء.

نفضت قيسًا وإبراهيم من رأسها. نفضت ماضيها معهما. لا شيء يربطها بهما غير ذكريات قابلة للنسيان.

مشهد طفلين يلعبان أمام منزلهما في هذا الوقت المتأخر من الليل ذكرها بأطفالها قيس والعنود والريم. الأطفال في عُمان لا يبقون في الخارج في مثل هذه الساعة. مشغولون عن المتع المفيدة بمتعٍ تضرّ

عقولهم. تتذكر في طفولتها الألعاب التي كانت تمارسها مع أقرانها وتضحك حين كبرت من أسماء ألعاب: حبوه مو تدوري، وسلوم بلّوم، والغميضة، والعنبر، والصيّاد.

فكّرت أن أطفالها لو عاشوا طفولتهم في تونس ستجدهم يلعبون: كورس حكك، والزربوط، والكاليس، والبرتيتة، وبهيم باديس، وبيوت شاش، وسيشاهدون الكبار يلعبون: الخربقة، كما يلعب الكبار في عُمان لعبة الحواليس.

ودّت لو كان أطفالها معها لكنها تدرك أنهم لا يحبون تونس ولا يشعرون بالسكينة فيها.

المرة الوحيدة التي جاؤوا فيها مجتمعين إلى تونس كانت قبل ثلاث سنوات. لم تعجبهم تونس كما أُعجبت هي بها حين كانت في مثل أعمارهم لدرجة أنها كانت تقضي ليلة عودتها إلى مسقط بالبكاء وتتوسل أمها لتركها تعيش في تونس إلى جانب جدتها خديجة.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تجتمع فيها هي وأمها وجدتها وشقيقها وأطفالها هنا في تونس. جمعهم المرض المفاجئ الذي ألمّ بخديجة. حين وصلهم خبر مرضها حزموا حقائبهم وشوقهم لها، وحلّقوا على أول رحلة طيران من مسقط إلى تونس. لم يكن بالمرض الخطير فلقد تعافت بعدها بأيام واستعادت صحتها سريعا وكأنها كانت تتداوى بوجودهم حولها وملئهم فراغ حياتها.

فكّرت في تفاصيل حياتها. السنوات التي تلت تخرجها من الجامعة وتوظفها في إحدى المدارس الحكومية بوظيفة اختصاصية تربية لذوي الاحتياجات الخاصة. فكّرت في عبد الله وهو يتقدم لخطبتها ويتودّد لوالدها ووالدتها للحصول على موافقتها.

كانت تقترب من سن السادسة والعشرين من عمرها. فتاة في مثل عمرها وجمالها وتعليمها لا تبقى بلا زواج. حدّثت نفسها أن من في نفس عمرها لديهن أطفال لأنهن تزوّجن مبكرا. بعضهن تزوّجن بعد التخرج مباشرة، وبعضهن تزوّجن وهن على مقاعد الدارسة في المرحلة الإعدادية أو المرحلة الثانوية، وبعضهن تزوجن مباشرة بعد انقطاع أول دورة شهرية مرّت بحياتهن. القليل منهن، القليل جدًّا، انتظرن إلى ما بعد سن الثلاثين ليكتشفن أن في الحياة أشياء أخرى غير الدارسة والشهادات العلمية.

مع عبد الله لم يكن ينقصها شيء. المال بين يديه متوفر، التفاهم يسود بينهما، لم يشعرها في يوم ما أنها أقل منه فكانت تشاركه في كل خططه وتجارته وسفره، لكنها في داخلها كانت تعرف أنه يخونها، وأنّ لديه حياة سرية يحرص على إبقائها بعيدًا عنها. لم تكن كثيرًا مهتمة بما لا تراه، فهي أيضا تخفي في قلبها حبًّا لم تستطع التخلص منه. الحب الأول -إن كان صادقًا وقويًّا- يبقى في القلب مهما تعاقبت عليه السنين والأحداث. يبقى

متواريًا في مكان ما داخل القلب يظهر بين الحين والآخر في موقف أو كلمة أي كان وقعها.

ظل الشك حاضرًا حتى تيقنت. ما الذي كان يبحث عنه في غيرها؟ تساءلت ولم تجد إجابة. ما الذي كان ينقصه منها ليجده في الأخريات؟ تملكتها الحيرة. ظلت تبحث في عشيقته الماثلة أمامها عما وجده مميزًا فيها ولم يجده عندها هي. الجمال؟ لا ينقصها الجمال. الاهتمام؟ لم تقصّر في العناية به. الحب؟ هل قدّمت له الأخريات الحب الذي يريده. العلاقة الحميمية؟ لم تتأخر عليه في يوم ما. ما الذي كان يبحث عنه في غيرها؟ رددت من جديد دون أن تفهم ما جرى.

ظلّت تقلب تفكيرها في الأسئلة بحثا عن الأجوبة. لا الأسئلة أوصلتها إلى قناعة راسخة ولا الإجابات كانت كافية لتصديق المبررات. هل الرجال بحاجة إلى مبرر لخياناتهم؟ طرأ السؤال في رأسها فتعجبت كيف لم تنتبه أن الرجال ليسوا مضطرين لتبرير أفعالهم. النساء وحدهن مطالبات بشرح سبب أخطائهن، ووحدهن يتحمّلن الخطيئة والعقاب، ويُحمَّلن وزر أخطاء الرجال.

هذه العشيقة مصيبتها أكبر من مصيبة عبدالله. فضيحتها مدمّرة لها ولأهلها وأبنائها وأحفادها من بعدهم. الخائنان مُلامان لكنها وحدها من سيتمنى الموت هربا من الفضيحة والجحيم. ألم تفّكر فيما سيحدث لو اكتشف زوجها أو أهلها خيانتها؟ ألم يخطر ببالها كيف سيكون مصيرها؟

هل تستحق لحظة الشهوة كل هذه المخاطرة المتهورة؟ عشيقها لن يخسر الكثير. اليوم هو معها وغدًا سيتركها وينتقل إلى أخرى فـ«إذا شبع المرء لم يجد للخبز طعمًا»[1]. سيشبع نزواته من جديد في مكان آخر. سيتعافى سريعًا من فضحيته لكنها لن تعود من جديد لحياتها السابقة.

توسل عبد الله وترجاها أن تعطيه فرصة أخرى لكنها رفضت. قرارها اتخذته وأصرت عليه. يسجل البيت باسمها، ويحول المبلغ في حسابها، ويطلقها، ويتنازل عن حضانة أطفالها. تمسكت بموقفها فرضخ في النهاية.

من بعيد سمعت أصواتًا موسيقية تتردد. تبعت الصوت حتى وجدت نفسها أمام المعلم الأثري فينكس قرطاج. عند البوابة الرئيسية جلس ثلاثة حراس للأمن يرقبون الداخلين إلى المكان. كل شاب تصاحبه فتاة.

«أنا نستنو صاحبي بش يجي بعد شويّا».. قالت لعنصر الأمن الذي استوقفها مستفسرا عن هويتها.

أشار لها بالدخول. مرّت بشاب يشبك ذراعه بذراع صاحبته ويتهامسان ضاحكين. واصلت خطواتها إلى الداخل متتبعة الإنارة الخفيفة على جانبي الطريق حتى وصلت إلى مطعم سياحي يصدح بالموسيقى وأصوات الراقصين على أنغامها. قرأت في اللوحة التعريفية **ToBe Carthage** تستقر تحت إضاءة خفيفة. في الداخل وجدت المكان

(1) مثل سويسري.

يعج بالراقصين على وقع الموسيقى التي يعزفها شاب أسمر مفتول العضلات.

استقرت إلى طاولة مرتفعة وطلبت قهوة مُرّة وبدأت تراقب شابًا وفتاة يرقصان متلصقين، وآخرين يتبادلان الضحك والشراب. ومن بعيد وقفت فتاة ترقص بمفردها، فيما يصفق لها ثلاثة من الشبان المنتشين بفعل تأثير الخمر. كان المكان صاخبًا، ممتعًا، لا ينتمي للحياة التي كانت تعيشها من قبل.

راودتها فكرة أن تجيء بسعيد إلى هذا المكان لتريه كل هذا الجنون، لكنها في قرارة نفسها تشعر أنه مثلها يرتعب من فكرة دخول مثل هذه الأماكن. كانت تريده أن يلامس الجانب الآخر من الحياة في تونس بعيدا عن المواقع الأثرية والسياحية. كانت تودّ أن تخبره أنه لا جدوى من معرفتنا كيف عاش السابقون إذا لم نعرف كيف يجب أن نعيش. أولئك رحلوا بماضيهم لكننا لا نزال نصنع حاضرنا وما سيكون في مستقبلنا.

(12)

«الكذبة التي لا يكتشفها أحد لا تُعدّ كذبة»
أبو عمر قبل عقدين من الزمن

فور دخوله بهو الفندق فتح هاتفه ليجد عشرات الرسائل غير المقروءة وردته في الواتساب. مرّ سريعا عليها حتى استوقفته رسالة من ثريا كانت قد وصلت قبل ثلاث ساعات لم ينتبه لها.

- مساء الخير سعيد. أرجو أن لا أكون قد أزعجتك في هذا الوقت. أردت فقط الاطمئنان عليك والسؤال عن صحتك وأحوالك. صحيح أننا انفصلنا، لكن ذلك لا يعني قطع التواصل فيما بيننا. سمعت أنك في تونس حاليًّا. أولًا، أرجو أن تستمتع بوقتك هناك، وثانيًا أردت منك شراء زيت زيتون تونسي بالقدر الذي تستطيع. قيل لي إن منتجاتهم من زيت الزيتون ذات جودة عالية. كن بخير.

أعاد قراءة الرسالة أكثر من مرة. انتابته مشاعر متناقضة تجاه ثريا. أثارت الرسالة فيه بعض الاشتياق والحنين للأيام التي قضاها معها. هل اشتاقت له؟ هل هي نادمة على قرار الطلاق؟ تساءل في نفسه ثم أعاد صياغة السؤالين. هل اشتاق لها؟ هل ندم على تطليقها؟ لم يعد يدري.

السنوات التي قضاها برفقتها كانت مثالية بالنسبة له. ينظر للأمر على هذا النحو. يتساءل مع نفسه ما الذي اقترفه من ذنب لتقرر الانفصال عنه. لم يخنها، لم يسئ إليها، لم يخطئ باللفظ عليها، لم يحرمها من شيء.

على عكس ذلك، كان زوجًا محبًّا مخلصًا. كان غارقًا في حبها هائمًا بكل تفاصيلها. في نقاء عقلها، في عذوبة ابتسامتها، في غنجها ودلالها، في حرارة جسدها، في جرأتها حين تأخذ وحين تعطي. لم يعرف ما الذي قصّر فيه معها. فكّر وتخمّر محتارًا في سبب تحوّلها المفاجئ. سافرا كثيرًا وانتشيا بالحبّ واللحظات الحميمية الخاصة بينهما. استنزفا طاقتهما ووقتهما منفردين كتوأمين سياميين مُلتصقين لا يعكر جوهما شيء. أطرب سمعها بكلمات الغزل وسقاها من فمه شهد هيامه بكلمات لا يعرف من أين تأتي. كان حينها يدرك أن «المرأة تحس وتقيم وتتأثر بالكلمات أكثر من الرجل، بل هي تجد لها تأويلات أخرى مختلفة عن الرجل، تتذوق الكلمات كما لو كانت قطع حلوى»[1]. كل ذلك لم يكن له قيمة أو وزن أو أهمية حين صدمته بقرارها، ناسفة كل ماضيه معها وحاضرها معه ومستقبلهما. فجأة بين ليلة وضحاها جمعت أغراضها الخاصة وغادرت. لم تقل الكثير لكنه ظل يفكر في عبارة قالتها قبل أن تغادر.

(1) رواية حدائق الرئيس، محسن الرملي، ص260.

- يا سعيد. أنا ما قادرة على تقبل هذي الحياة. ما قادرة أكون مشتتة بهذا الشكل. حاولت لكن صدقني ما أقدر أستمر أعيش معك.

«كان واجمًا كالممتلئ بالبكاء يكاد ينفجر به، يريده فلا يدركه ويهمّ به فلّا ينشرح له»[1]، ولأنها أصرّت وتمسكت بموقفها؛ ولأنه يحبها طلّقها.

يتذكر جيدًا أنه حين استفاق من صدمة طلبها الطلاق جلس مع نفسه يفكر فيما عساه قد حدث بينهما لتتخذ هذا القرار. وضع رأسه بين يديه وطفق يفكر ويفكر ويسترجع تفاصيل حياتهما واللحظات التي كانت بينهما. لم يهتدِ إلى سبب واضح صريح يبرر له موقفها. بداية قال: ربما خرجت منه كلمة جرحتها، لكنه متأكد أنه لم يقل إلا ما يسرّها، ثم طرأ بباله أنه ربما يكون شخصًا مضجرًا لا جديد في حياته، ولا يقوم بفعل غير متوقع كأي زوج طبيعي، فعاد للقول حتى هذه ليست سببًا مقنعًا، فهو لم يشعر برفضها لطبيعته الهادئة المسالمة، ولم ترفض طوفان مشاعره تجاهها. في داخله كان يحمل حبًّا وهيامًا وعشقًا لها، وكانت تخبره أنه يبالغ في إظهار مشاعره، لكنها لم تكن تنزعج من ذلك أيضًا.

قلّب كل الاحتمالات فلم يجد في أي واحد منها ما يصلح أن يكون الشماعة التي يعلق عليها زهدها في الحياة معه. حين يئس من العثور على عيب فيه نقل العلّة إليها. هل كانت تحبُّ غيري وتمثل أنها تحبني؟ هل كانت تخونني؟ هل وجدتني ناقصًا فقررت ألا تعيش مع ناقصٍ. «كان

(1) رواية نازلة دار الأكابر، أميرة غنيم، ص346.

حواره مع نفسه فيه من الأسئلة أكثر مما فيه من إجابات»[1]. الحيرة أعيته والشك بات يملأ قلبه. حين اقتنع أنها لن تتراجع وحين أقنع نفسه أن رجلًا مثله لن يقبل وضع المعلّق بحبل امرأة قالت بكل صراحة إنها لا تريده، قرر مناولتها ما تريد.

في الأخير قال لنفسه إن لثريا حبيبًا ستتزوجه بعد حين، ربما لم يكن متاحًا لها وإنه الآن جاهز لتكون معه، لا بد أن قلبها انتظره وحين اطمأنت أنه سيكون لها قررت ترك زوجها من أجله. ألّف سعيد في رأسه حكاية مفصلة عنها وعن حبيبها. صدّقها، أراحته قليلًا، تقبّلها، رضي بها، غرسها في قلبه وسقاها من بقايا حبه. يدرك جيدًا الآن أننا «كلنا نريد أي كذبة أو وهم لنجد دافعًا أو تسلية تعيننا على احتمال الحياة، لنوهم أنفسنا بأن ثمة معنى لوجودنا»[2]. هدأت نفسه وعاد إلى ممارسة حياته، وغبار عالقٌ في روحه من تجربة زواجه.

عاد لقراءة الرسالة فطرأ بباله سؤال لم يجد له أهمية: من سألت من أهلي لكي تحصل على رقم هاتفي في تونس؟

***

رغم تأخره في النوم الليلة الماضية لم تكد الساعة تشير إلى الثامنة والنصف حتى كان سعيد قد دلف إلى المطعم الأنيق في فندق لايكو

(1) رواية حدائق الرئيس، محسن الرملي ص151.

(2) رواية حدائق الرئيس، محسن الرملي، ص148.

تونس. قبلها بساعتين استيقظ من نومه وقضى وقتًا طويلًا في الاستحمام والاعتناء بنظافة جسده وتهذيب لحيته.

ذلك الصباح شعر بطاقة مختلفة عما كانت عليه منذ وصوله إلى تونس، وقد تحوّل حماسه من الخمول إلى النشاط بعد لقائه بأميرة وتجواله معها في شارع الحبيب بورقيبة والمدينة العتيقة وحلق الوادي وموعده الجديد معها هذا المساء.

قبل أن يلتقي بأميرة لم يكن قد رأى أماكن في تونس غير المنطقة البحرية بقرطاج، حيث أخذه مرافقه التونسي في جولة ليلية وترك له حرية التجول، قبل أن يختتما السهرة بتناول العشاء في الشرفة العلوية لأحد المطاعم المطلة على الطريق الرئيسي المقابل للشاطئ.

غير ذلك كان موقنًا أن القادم إلى تونس في مهمة رسمية لن يتعرف على تونس إلا بالقدر الذي يسمح به منظمو المؤتمر، بذريعة الجدول المزدحم للمؤتمر والدواعي الأمنية. عذران لا قيمة لهما الآن طالما وجد هذه الشابة التونسية الممتلئة بالحياة. حدّث نفسه.

وقف أمام الشيف المبتسم المرحب به وطلب عجة بالطماطم والنقانق والبصل قبل أن يواصل اختيار وجبة الإفطار من بين عدة خيارات متاحة. صبّ لنفسه كوب عصير برتقال يعرف أنه سيتركه إلى نهاية إفطاره، فهو كعادته يفضّل تناول القهوة الخالية من الحليب والسكر. وضع في صحن مزخرف بنقوشات دائرية سلطة خضراء وبعضًا من

الفواكه المقطعة، وقبل أن يتجه إلى طاولة في طرف من المطعم – في انتظار وصول العجة التي طلبها – ملأ كوبًا من الماء البارد.

ما إن بدأ تناول إفطاره حتى لاحظ زميله الحقوقي الجزائري يتوجه إليه وهو يرسل من بعيد ابتسامة لم يعرف سعيد ما الداعي لها. ردّ عليها تلقائيًّا بمثلها وهو يردد في داخله: آخر ما أوده هذا الصباح الحديث عن حقوق الإنسان في الوطن العربي. ولعن في سرّه الطيبة التي تجري في دم العُمانيين وترحيبهم المفرط بالآخرين.

استأذن عزيز مشاركته طاولته فأشار سعيد له مرحبا بالضيف المفاجئ لهذا الصباح. قبل ساعات كان يؤكد لنفسه أن في انتظاره نهارًا مختلفًا عن بقية نهاراته في تونس، لكنه الآن يعرف أن البداية لا تبشّر بما تمنى.

- قبل كل شيء، اسمح لي بزاف على خاطر نظن ما فهمتش وش حبيت نقول في المؤتمر، ما كانش قصدي نقلّل من مكانة عُمان في مجال حقوق الإنسان.

هذه هي البداية لما سيأتي لاحقًا.. حدّث نفسه.

- حصل خير أخي عزيز.. الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

رد وفي نيته أن عبارته هذه مناسبة لقتل أي فرصة للتعمق في الحوار لكن عزيز كان لديه رأي آخر.

- اسمح لي أستاذ سعيد. جاني سؤال دركة. هل الإعلام العُماني يدير اللازم في مناقشة الموضوعات اللي تهم الناس في عُمان؟

«يا ليل ما أطولك». كرر سعيد اللعنات التي خطرت بباله سريعًا: «الله يلعن المؤتمر.. وحقوق الإنسان.. والإعلام». «الله يلعن اللحظة اللي قررت فيها أردّ عليك في جلسات المؤتمر». «الله يلعن المدير العام اللي اختارني من بين موظفي الوزارة عشان أجي تونس». «الله يعكّر مزاجك كما عكّرت مزاجي من أول الصباح».

- أكيد مليون بالمائة. هذا الشيء من المسلمات عندنا. الإعلام العُماني قايم بدوره على أكمل وجه. ما مقصّر في هذا الجانب أبدًا. ما شيء أحسن منه في متابعة قضايا الناس والمجتمع. لدرجة أن الحكومة تحسب حساب الإعلام في كل قرار تريد تتخذه أو ملف تريد تفتحه.
- لكنْ.. حاول عزيز التعليق..

قاطعه:

- الأستاذ عزيز.. انته تعرف إن بعض الدول العربية ما فيها إعلام حُر وبعضها يضيّق على الإعلام وبعضها فاتح المجال على البحري. في عُمان إعلامنا متزّن، رصين، عقلاني، محترم، هادئ، لكنه إذا ناقش موضوع ما يرحم وما يرده شيء لغاية ما يحل أي مشكلة ويعالج أي قضية بين يدينه.

التقط أفكاره قبل أن يرّد بشكل عشوائي وقد بدا هجوميًّا ينم عن ضيقه من فتح مثل هذا الحوار في هذا الوقت من الصباح، واقعًا تحت تأثير نقص النيكوتين..

- أريد أخبّرك معلومة الكثيرين ما يعرفوها. الإعلام عندنا انتهج سياسة صارمة في ممارسي هذي المهنة. أولا أعطى كل الاهتمام والرعاية والدعم للشباب العُماني للعمل في مجال الإعلام. وثانيا ما سمح لأي شخص غير متخصص أو ما عنده مهارات إعلامية يشتغل في هذا المجال. يعني مثلا مستحيل تحصّل مدرّس لغة عربية أو لغة إنجليزية أو فيزياء أو رياضيات ولا لأي شخص كان غير متخصص يدخلوا هذا المجال إلا بعد اجتياز ورش ودورات مكثفة إذا كان عندهم -قبل أي شيء آخر- مهارات تأهلهم. واللي درسوا صحافة وإعلام يخضعوا لدورات تدريبية وصقل لمهاراتهم وقدراتهم قبل لا يستلموا شغلهم الإعلامي. وفوق كل هذا ما مسموح لأي كان يسمّي نفسه إعلامي إذا كان ما له علاقة بالعمل الإعلامي.

ثوانٍ من الصمت مرّت بينهما قطعها سعيد:

- أتمنى في يوم من الأيام تسمح لك الظروف وتزور عُمان عشان تشوف بنفسك الدور اللي يقوم فيه الإعلام العُماني في نصرة قضايا

المجتمع وحل مشاكله. نحن نسميه في عُمان البرلمان الإعلامي، قوته تضاهي قوة المجالس البرلمانية في جرأتها وصرامتها.

بقي عزيز محتارًا بين ما سمعه أو قرأه من قبل وما تلتقطه أذنه الآن. لزم الصمت بابتسامة حائرة، أما سعيد فسارع إلى التهام آخر قطعة من وجبته واستأذن صديقه الجديد بحجة أنه يرغب في دخول دورة المياه قبل اللحاق بأولى جلسات المؤتمر.

غادر سعيد وبقي عصير البرتقال وحيدًا تعصره خيبة الأمل والحيرة.

(13)

«حقا، الحب ليس عاطفة محدودة. إذ يمكن أن يولد تلقائيًا من لا شيء على الإطلاق»

رواية «الأصل»

دان براون

على غير عادتها استيقظت أميرة مبكرًا بجسد نشيط وروح متلهفة ليوم جديد. رغم أنها كانت وحيدة في غرفتها، لكنّ شعورًا بالخجل تملكها وارتعبت من فكرة انكشافها أمام مخدتها وخزانة ملابسها ورواياتها.

في منامها حلمت بسعيد يقبلها وكأنه يسقيها بفمه روحًا جديدة. من النادر أن تحلم، وإذا حلمت تصارع ذاكرتها لتذكر ما حلمت به لكنها في هذه اللحظة تتذكر كل التفاصيل: وقف سعيد قبالتها وأسرها بابتسامته، قرّب وجهه من وجهها وطبع قبلة طويلة على شفتيها وهي مغمضة العينين.

استوت جالسة على طرف سريرها.

كانت في حالة من الحماس والاستثارة. تملكتها رغبة في الرقص على أنغام أغنية «علوه» بصوت صلاح الزدجالي. فتحت هاتفها وبحثت في

تطبيق اليوتيوب عن الأغنية فصدح الزدجالي بكلمات حميد البلوشي. قامت لترقص مع الإيقاع وهي تردد خلف صلاح....

دانيتين يو داني دانه.. دانتين يو دانه دانه.

دانتين دانه علم دان.. القلب بالحب مليان.

دانتين دانه علم دان..

هيه علوه يو دان يو دان.. هيه علوه الخل طربان.

هيه علوه مشوش وغرقان.. ذبذبات الحب قويّة.

دانتين دانه علم دان..

هيه علوه من ريحة عُمان.. هيه علوه خوخ ورمان.

هيه علوه مسكٍ وريحان.. ليتني جاره وأشوفوه.

دانتين دانه علم دان..

الغضي بو غمزه ربّاش.. له عيون تذبح برشّاش.

صابني وخذ قلبي بلاش.. هاتو الدختر والإسعاف.

جيبو الدختر جيبوه.....

لم يطربها بعد سالم علي سعيد غير صلاح الزدجالي. فكّرت: لا يوجد لدينا مغنٍ متكامل نقدمه للعالم أفضل من صلاح ولا ممثل له شهرته خارج الحدود أفضل من إبراهيم الزدجالي، ولا لاعب دولي ساهم في نشر سمعة طيبة عن عُمان أكثر من علي الحبسي. تعذبها فكرة أن عُمان لا

تقتنص الفرص الذهبية التي أمامها في الوقت المناسب فتترك الطيور تهاجر ثم تندم على هجرتها.

صلاح أجبرها على الرقص فرقصت حتى تعبت. أمام المرآة هزت عجيزتها مثل راقصة محترفة عرفت كيف تزامن إيقاع جسدها مع رتم الموسيقى. تجيد الرقص ولا ينافسها فيه غير تونس سليماني.

- فرحة دائمة يا رب..

انتبهت لجدتها تقف على عتبة الباب وابتسامة عريضة على وجهها.

- حب؟ وإلا وجيعة؟ سألت خديجة.

كتمت أميرة صوت صلاح وارتمت في حضن خديجة.

التمعت عينا خديجة وهي تستمع لأميرة تحكي لها عن لقاءها بسعيد بن سالم وجولتها معه في المدينة العتيقة وحلق الوادي وموعدها معه بعد الظهيرة. أخبرتها عن شخصيته ودماثة خلقه، عن حس الفكاهة لديه، عن طلاقه من زوجته، عن المؤتمر الذي جاء للمشاركة فيه، عن سعادتها خلال الساعات التي قضتها برفقته، عن رغبتها في دعوته لتناول وجبة العشاء وتعريفه بجدتها وأخيها ناصر.

- ما فكرتيش في الرجوع لعُمان؟

صدمها السؤال. تعرف خديجة منذ البداية أن أميرة جاءت إلى تونس لتستقر هنا معها ومع ناصر كما أخبرتها منذ اليوم الأول لوصولها، لكنها

ما زالت غير مقتنعة كيف لأم أن تترك أطفالها وترحل عنهم. تتعجب من تحملها لفراقهم، من قدرتها على بعدهم عنها.

- توا ما نفكرش في الرجوع. أنا مستمتعة بحياتي هْنَا. نحسّ روحي في المكان اللي نحب. معك ومع ناصر أبدو في أحسن حال. لا زوج يقيدني لا التزامات تجبرني على نمط معين من الحياة. نحب نعوض اللي فاتني من متع الحياة.

مسحت خديجة على شعرها وأمسكت ببعض خصلاته..

- ما زلت في مقتبل العمر يا أميرة. ما نعرفش آش صار بينك وبين عّبود لكن أكيد عندك أسبابك للقرار هذا. كل ما نتمناهُ لك أنك ما تندمش على الخطوة هذي.
- حتى شي ما يعبّر على الندم أكثر من السكات.. تشوفي فيّ ساكتة؟
- ما نيش نشوف فيك ساكتة على الكلام والحديث، لكن نشوف فيك ساكتة في حوايج أخرى. هذاكة علاش قلت لك إن شاء ما تندمش على أي خطوة تاخذيها.

وضعت أميرة فمها على رأس جدتها وقبلتها ثم طبعت قبلتين على خدها..

- بإذن الله ما نندمش.

أضافت في سرّها «إن الندم على الماضي ليس سوى حماقة، مثلما هي حماقة أيضًا الجري وراء بدايات جديدة»[1].

سألت جدتها والدهشة تعلو وجهها:

- لكن يا خديجة علاش تسأل فيّ على الرجوع لعُمان؟

تمهلت في الرد..

- لما تحدّثتي على سعيد، شفت في عينيك لمعة متاع فرحة باينة.. في دقيقتين قلتي اسمه عشرة مرات.. قُلتُ هذه ما تلاقات بقريبها سعيد هذا كان من أربع وعشرين ساعة وتتكلّم عليه وكأنها تعرفو من أربع وعشرين سنة.

أحمرّ وجهها وحاولت إخفاء توترها بضحكة مرتبكة. في تلك اللحظة كان قلبها يرجف بين شعورين متناقضين، اشتياقها لرؤية سعيد ورغبتها في الهرب عنه. «الشعور كالماء لا لون له ولا رادّ لقضائه. متى تدفق خطّ مجراه حيث يعنّ له. بيد أن له في الغالب طعمًا ورائحة»[2]. يخالجها شعور بأنها لو مضت نحو ما يبدو أن قلبها يقودها إليه فلن تعود سليمة من رحلته. تخشى أن تتحطم مجدداً، أن ينكسر القلب من جديد، أن تصفعها الحياة مرة أخرى. لم تندمل الجروح بعد ولم تتعافَ حتى اللحظة من جرحها الأخير، لا يزال آخر رجل طعنها حاضرًا في حياتها.

---

(1) رواية أربطة، دومينيكو ستارنونه، ص24.

(2) رواية نازلة دار الأكابر، أميرة غنيم، ص192.

هل كانت الساعات القليلة الماضية كافية لهزها على هذا النحو؟ ما الذي حدث لتتأثر سريعا بلقاء استمر لعدة ساعات؟ هل رغبة القلب للحب أم افتقار الجسد للمتعة؟ أسئلة قلّبتها في عقلها دون أن تقدر على الإجابة عنها.

الهرب هو الطريق الأقل كلفة. إذا خاف المرء على نفسه من طريق، جرب مثله من قبل وخسر في رحلته خلاله، عليه أن لا يتردد عن المضي في الطريق المعاكس. الهرب ليس في كل الحالات خطيئة.

- يمكن يا جدّة على خاطرو من عائلة بابا. يمكن على خاطرو يذكّرني بيه.. يمكن على خاطرو فيه طهر ونقاء سالم بن خميس.. ما عرفتش شنوّة هاللي شادني ليه.

ضحكت خديجة..

- زعمة الحبّ خَلاَّكِ تشطح.

صرخت أميرة معترضة على قول جدتها..

- لاااا.. طبعا لا.. نعرفك تفدلكي يا جدة. الحبّ ما يولدش هكا. جرّبت الحب قبل وعرفت كيفاش يكون. جربت الزواج مرة وعشت تفاصيله. وجربت الخذلان برشا. الحاصل سعيد رجعلي الذاكرة لحاجات كانت متخبية بعيد. لقائي بيه حرّك لي ذكريات قديمة.

مطت الجدة شفتيها تعبيرًا عن عدم اقتناعها بما قالت. نظرت إلى الساعة على الحائط.

- وقتاش بش تشوفي سعيد؟
- بعد ساعتين على الأقل.

تمهلت قليلا ثم اقترحت عليها أن تدعوه للعشاء الليلة.

- باش نمشو إلى قليبية بعد الظهر. نخاف نرجعو متأخرين وما إنَّجْمش نحضّر العشاء وإلا نعاونك في تحضيره.
- وقتاش يسافر هو؟
- المفروض يسافر بعد يومين وإلا ثلاثة. موش متأكدة. ما نعرفش زعمة نجّم يغيّر موعد سفره أو لا.
- تقدروا تأجلو مشيتكم لقليبية لنهار آخر. امشوا لمكان قريب من العاصمة وإلا للضواحي القريبة وإلا للمرسى. وفي العشية تعالي معه نتعشوا هنا. نحب نتعرّف عليه.

فكّرت أميرة. مسدّت خدها محدقة إلى الأرض كمن يقلّب أمراً على أوجهه. راق لها المقترح. لا يزال أمامه وقت للذهاب إلى ولاية نابل حيث تستطيع اصطحابه إلى قليبية والحمامات في نفس اليوم.

- اقتراحك مناسب.. لكن يلزمني قبل كل شيء نقُله شكون أنا وآش يكون هو بالنسبة لعائلتي.
- ما زال ما يعرفش؟ سألت خديجة وعلامات الدهشة تملأ وجهها.

- ما يعرفش حتى لتوّا.. من اللحظة الأولى عرفت شكون هوّا وما زال حتى لتوّا متشكك في أفكاره. ما نجْمش يتذكر وين شاف وجهي ولما يسألني نتهربُ من الإجابة. في كل الأحوال لا بد يعرف.
- باهي.. ما تقلوش.
- باش نكلمه ونتفق معاه باش يحضر روحه يتعشى معانا.. وزادة على جدولنا لليوم.

طبعت قبلة على رأس جدتها وفزّت كطائر منتشٍ بحريته.

(14)

«أحيانا لا داعي لمشاهدة الفيلم كله لمعرفة كيف سينتهي»
مقتبس من فيلم

على ناصية الدوار المتصل بنهج الحبيب ثامر وقفت أميرة في انتظار سعيد وهي ترتدي قميصًا أحمرَ رسمت عليه أشكال من الورد بخطوط سوداء. على رأسها وضعت مظلة تونسية كبيرة مصنوعة من سعف النخيل وقد تركت شعرها ينسدل من تحت المظلة. خلال السنوات الماضية سرت بين أوساط الشباب التونسي موضة لبس المظلة التونسية المعروفة بالطربوشة للحماية من أشعة الشمس، وحافظ كبار السن من الرجال على ارتداء الشاشية بلونها الأحمر المميز.

كانت الساعة قد تجاوزت بقليل الثالثة بعد الظهر حين توقفت سيارة المراسم المستأجرة وعلى واجهتها ملصق كتب عليه اسم المؤتمر وشعار جامعة الدول العربية. تحدث سعيد مع مرافقه التونسي لنحو دقيقتين قبل أن يترجل من السيارة حاملا في يده مغلفًا متوسط الحجم. اتجه نحو أميرة التي استقبلته بابتسامة عريضة وحيّته بحرارة.

قبلها بساعات أجرت اتصالا سريعا معه وأخبرته برغبة جدتها في دعوته لتناول العشاء في منزل خديجة في المرسى. اقترحت أن تقتصر

جولتهما اليوم على ضاحية سيدي بوسعيد وتأجيل رحلتهما إلى قليبية والحمامات، لكنه اقترح عليها تأجيل العشاء إلى يوم الغد.

سلكا الطريق المؤدي إلى أسواق المدينة القديمة بالضاحية مخترقين سلسلة من البيوت ذات الطابع المعماري المتشابه: جدران مطلية باللون الأبيض، ونوافذ وأبواب ذات لون أزرق لبيوت بعضها من طابق واحد وأخرى من طابقين وقليل منها من ثلاثة طوابق.

قال سعيد وهو يشير بإصبعه نحو المنازل المحيطة بالطريق:

- يبدو أن هذي الضاحية سقطت من السماء فصارت على هذا الشكل: زرقة السماء وزرقة خليج تونس والبحر الأبيض المتوسط.

أقرّت بإيماءة من رأسها..

- بالفعل.. سيدي بوسعيد وموقعها بين حلق الوادي والكرم وقرطاج والمرسى وكأنها ارتدت الزرقة وشاحًا.
- في الطريق بحثت عن هذي الضاحية وقرأت أنها أسست منذ عهد الفينيقيين، وكانت تعرف من قبل باسم «جبل المنار» أو «جبل المرسى».
- صْحِيحْ. قريت المعلومة هذي من قبل. التسمية هذي سببها أنها في وقت من الأوقات استخدمت لمراقبة وتحصين قرطاج.

أشارت بيدها تجاه محال مصطفة على الجانب الأيمن من طريقهما.

- في المساحة هذه تلقى ورش لصيانة وتجديد مواد التراث..
- شيء جميل يكون فيه محال للصيانة وللتجديد.. أعتقد اللي يشتغل في هذي الصنعة اكتسب مهارات من صغره ويفترض أنه ينقلها لأبنائه وأحفاده.

هزت رأسها موافقة على قوله.. ثم انتبهت إلى المغلف الذي يحمله.

- آش هازّ في إيدك؟

ردّ بابتسامة وهو يلوح بالمغلف ويناولها إياه.

- هذي هدية بسيطة لك.

فتحت المغلف على عجل وألقت بنظرة قبل أن تخرج ما فيه. أطلقت شهقة فرحة واضعة يدها على فمها. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها وهي ترفع نظرها نحو عينيه غير مصدقة..

- يعيشك.. انتِ مش عادي يا سعيد.

فاجأها برسمة ملونة لوجهها تجسد إلى درجة كبيرة تفاصيله بدقة.

- ياخِي رسمتني من ذاكرتك؟ قالت فرحة.

هز رأسه مؤكدًا قولها وابتسامة كبيرة ترتسم على وجهه.

- وأنا راجع البارحة إلى الفندق لمحت محل تجاري مفتوح فجاءتني فكرة الرسم.. أخذت عدة الرسم ولمّا رجعت الغرفة استغرقت مني هذي الرسمة ساعة معتمدًا ما علق في ذاكرتي.

ضحكت..

- بما أنّك رسمتني بالدقة هذي يعني برشا من ملامح وجهي بش تعلق في ذاكرتك.

غمز بعينه واضعًا سبابته على صدغه.

- مخي ما ينسى الوجه الحسن.

بغمزة من عينها أفهمته أنها استحسنت كلامه وقرصته على خده.

عادت مجدّدا للنظر بتمعن إلى الرسمة. لاحظت أنه رسمها بابتسامة تشرق على وجهها، لكن عينيها تظهران مسحة حزن طافحة في تضاد غريب بين الشعورين.

- شبها عيني فيها حزن؟

«خلف ستارة انشراحك تخفين بعض الحزن والكدر». قال بطريقة بدت جادة بشكل واضح.

صمتت وهي تركز على عينيه.

«حسب رأيك هذا يعني أنّي نعاني؟» قالت مستنكرة تلميحه.

بدون تردد أجاب..

- بالضبط.. في داخلك قلب إنسان طيب مسامح لكن في نفس الوقت هذا القلب سريع العطب والتأثر بأي إساءة يتلقاها.

أشاحت بوجهها للجهة الأخرى. ألهذه الدرجة أنا فاشلة في إخفاء ما بداخلي؟ قالت لنفسها قبل أن تعود للنظر إليه من جديد.

- على الأقل كان بمقدورك إخفاء اللي تعتقد أنه صحيح.

«هذا ما اعتقاد أنا متيقن من اللي شفته». غمز لها.

ساد الصمت بينهما وهما يتحاشيان الاستمرار في هذا الحوار.

***

في طريقهما مرا بمتجر «روك ذا كاسباه» ROCK THE KASBAH، تأمل سعيد ما بداخله من معروضات تنوعت ما بين تحف فخارية على شكل أوعية بأحجام مختلفة، وصحون مزخرفة برسومات ونقوش ملونة، ومنسوجات من الأقمشة، وتصاميم ديكورات منزلية لمقاعد مصنوعة من الخشب الطبيعي وقد بدت قوائمها على هيئته الطبيعية دون تدخل تجميلي، تتوسطها طاولات صغيرة الحجم وأشكال متعددة للحصير، ومشغولات مستخدمة من سعف النخيل.

- عندنا في عُمان نسوي أشياء كثيرة من سعف وأوراق وجذع النخيل مثل السمة أو الحصير والقفير والثوج ولْملهبة أو المروحة والشت وغيرها.

تذكرت «لْملهبة» التي أحضرتها لخديجة قبل عدة سنوات، والتي ظلت محافظة عليها كأداة تسلية وهي تُقلّب بصرها ما بين القنوات التلفزيونية. كانت جدتها كثيرًا ما تخطئ في نطق الاسم الصحيح فتارة تسميها «مهبلة» وتارة «همبلة»، وحين تعجز تلوّح بكفها أمام وجهها مقلّدة طريقة استخدامها.

- هنا في سيدي بوسعيد تنتشر الكثير من أشجار التمر ومنها يقوم الأهالي بعمل منتجات منها.

فجأة ظهر أمامهما رجل، يغطي الشيب رأسه، يحمل وعاء عليه باقات من المشموم التونسي. ألح على سعيد بأن يأخذ منها.

- خذ لحبيبتك الجميلة هذي من فلّنا وياسمينا. القمر هذا يستحق شم الياسمين.

ضحكت أميرة فيما حاول سعيد التملص من البائع.

«حبيبتك تستاهل منك تأخذلها باقتين أو ثلاث». عاود البائع محاولته.

لم يجد سعيد بُدا من شراء ثلاث باقات دفع قيمتها. وقفت أميرة تراقب توتره وهو يحمل المشموم ولا يعرف ما يفعل بها. ناولها الباقات وهو يداري حرجه. استنشقت من عبير الباقة مغمضة عينيها قبل أن تغرزها خلف أذنها وأعلى رأسها ما بين خصلات شعرها.

***

عند مدخل السوق العتيق كان على المركبات الانعطاف يسارًا، وعلى الجهة المقابلة وضعت حواجز تسمح فقط بمرور الأفراد على أقدامهم.

عبر سعيد وأميرة بين صفي متاجر لصناعات تقليدية تنوعت بين الحلي واللوحات والرسومات والمشغولات النحاسية والجلدية. على يسارهما اصطفت طاولات وكراسي مقهى حاج عمر قبل أن يصلا إلى

Boutique La Différence ومقهى القهوة العالية. كان المقهى من أهم المقاهي في تونس، إذ كان يقتصر على الطبقة العليا وأعيان البلد، ويجمع بين الطابع العربي والأندلسي ويتصف بمفروشاته المعروفة باسم «الكليم» الشبيه بالسجادة المتعارف عليها، والمصنوعة من عدة أنواع من القماش وتتميز بألوانها المتعددة، إلى جانب الحصائر المستمدة من نبات السمار. في الداخل نجد تصميمه باللونين الأحمر والأخضر.

توقفت أميرة أمام محل للفطائر يقدم أطباقًا من المعجنات.

- سيدي بوسعيد معروفة بأنواع متاع ماكلة كما البامبالوني والكفتاجي واللبلابي. في المحل هذا مثلا تنجّم تجرب وتذوق البامبالوني التونسي.

طلبت قطعتين قدمها لهما الفطائري مغلفة بورق شفاف. دفعت قيمتها قبل أن تقضم «كعبة بمبالوني» ماسحة بكفها على طرف فمها ومصدرة همهمة خفيفة دليل تلذذها بالمذاق. قلدها سعيد مبديًا استحسانه.

- تشبه الدوناتس لكن الفرق إنها ساخنة وطعمها ألذ. علّق.

توجها صعودا على أرضية من البلاط الحجري مرورا بعدد من المتاحف الخاصة الصغيرة. دخلا متجر «كهف سيدي بوسعيد»، الملاصق تماما لمسجد سيدي بوسعيد، وُضعت فيه سلع وقطع فريدة من النحاس ولوحات مصورة ورسومات ملونة. في إحدى الصور تظهر فتاة تتوشح بحجاب أبيض فيما تغطي بيدها على وجهها بقطعة من حجابها، وعلى مقربة من الجدار

الذي وضعت عليه الصورة وزعت أقمشة متعددة الألوان وحقائب مصنوعة من القماش المصنوع محليًّا وحُلّي بأشكال مختلفة.

ليس ببعيد وعلى تلة مرتفعة خصصت لوقوف السيارات توقفت مركبات صغيرة تحت ظل أشجار عالية الارتفاع.

- كنت أعتقد أنه ممنوع دخول السيارات إلى هذا المكان. قال وهو يشير إلى المساحة الظليلة.
- دخول الكراهب مقتصر على ساكني البقعة وللأمور الضرورية والطارئة.

توقف سعيد لالتقاط أنفاسه تحت شجرة ظليلة. خلفه إلى الأسفل سلسلة من المنازل. أُعجب بالجو اللطيف في سيدي بوسعيد ونظافة بيوتها وأزقتها وتناسق ألوان أبوابها ونوافذها الزرقاء مع جدرانها البيضاء واصطفاف الأشجار بكثافة على الطرقات وبين البيوت. حدّث نفسه أن ما ينقص المدن العُمانية هو ما يراه هنا: التشجير بين الأزقة وعلى الطرقات الرئيسية، الطرقات المرصوفة، التنظيم الجمالي للبيوت والمحالّ التجارية. راوده إحساس وهو يحاذي أميرة بأنه ينتمي إلى هذا المكان. ودّ أن يعيش هنا لفترة طويلة. بقدّر شعوره بالغربة بعيدًا عن عُمان شعر أنه عاش من قبل هذه اللحظات وكأنه رأى في الحلم تفاصيل ما يحدث حوله.

هل سبب هذا الشعور أميرة. فكّر.

على يمينهما لمح سعيد مقهى يحتل موقعا منخفضا توصل إليه سلالم حجرية.

قالت وهي ممسكة بيده تحثه على مواصلة خطواته:

- باش نرجعو للمقهى ولكن قبل خليني نورّيك المنظر من أعلى نقطة في التلة.

حين وصلا كان سعيد يحاول مداراة انقطاع نفسه، فدفع كميات كبيرة من الأوكسجين إلى رئتيه وإعادة إطلاقها ببطء، أما أميرة فلم يبدُ عليها التأثر بالصعود الحاد. ظاهريًّا كان أكثر نحافة منها مقارنة بتكوينها الجسدي لكنها بدت أكثر لياقة منه.

«للأمر علاقة بعاداتها في المشي المستمر، وعدم ممارستي للرياضة منذ عدة أيام». قال في نفسه.

رمى بثقله على الحاجز الإسمنتي تاركًا الميناء خلفه. أشار لها بالجلوس إلى جانبه فطاوعته وجلست ليس ببعيد عنه. شيء ما في داخلها يدفعها للقيام بفعل متهور. رشحت قطرة عرق على جبينها وتسارعت نبضات قلبها حين وقع نظرها على عينيه.

حاله لم تكن بأفضل من حالها.

من ذلك الموقع نظر سعيد وأميرة إلى ميناء سيدي بوسعيد وقد تراصت فيه عشرات السفن الصغيرة واليخوت، فيما انتشرت بشكل

متدرج أشجار الصبيّر مغطية المساحة الفاصلة من أعلى التلة وصولا إلى الميناء.

التقطا مجموعة من الصور للميناء بهاتفيهما ثم عادا أدراجهما.

***

باتجاه مقهى سيدي شبعان، نزلا مدارج حجرية مستطيلة تفصل بين الواحدة والأخرى فراغات عُبئت بتربة سميكة تيبّست فغدت صلبة لا يهزها المطر ولا تزحزحها الريح ولا تصهرها الشمس، فتنتهي إلى مساحة واسعة قبل المدخل الرئيسي لبوابة المقهى ببابه الأزرق المقوس المفتوح إلى الداخل. عبرا البوابة ونزلا مجموعة من الدرجات على مستويين قبل أن يقفا على ساحة مقسمة بحواجز إسمنتية، كل قسم يحتوي على مقاعد من الإسمنت والخشب، ومغطاة بأقمشة أو بساط تقليدي وترتفع حولها مظلات ملونة بالأزرق.

كان عدد من السياح والمقيمين في المدينة يحتلون أغلب المقاعد المتوفرة. لمحا مكانا شاغرا لا يتسع إلا لشخصين فسارعا إليه، وفي اللحظة التي استقرا فيها مكانهما ارتطم كتفاهما فسرت قشعريرة تشبه التماسّ كهربائيًّا. كانت ردة الفعل الأولى متشابهة: تحرك كلٌّ منهما إلى الجهة المعاكسة تاركينَ فراغًا صغيرًا بينهما. أخفت أميرة الرعشة التي اجتاحتها بالنظر إلى مجموعة من زبائن المقهى علت أصواتهم بالضحك، ثم اشتغلت بوضع المغلف الورقي الذي تحمله على مقربة منها، فيما

سارع سعيد إلى إخراج هاتفه لالتقاط صورة له ومن خلفه الميناء تزينه السفن وزرقة البحر.

سأل سعيد:

- ايش رأيك سيلفي؟

ردّت ضاحكة:

- ما فمّاش في مشكل. أمّا الصور موش للنشر.
- أكيد ليست للنشر. هذي ما يحتاج لها كلام.

فتح كاميرا الهاتف والتقطا عددًا من الصور، جميعها تشترك في ابتسامة تظهر على وجهيهما ولمعة سعادة في عينيّ أميرة بدت واضحة لا لبس فيها.

تقدم النادل نحوهما مستعرضا قائمة بما يقدمه المقهى: القهوة بأنواعها، الشاي، العصائر، وبعض المأكولات الخفيفة. لاحظ سعيد أن المقهى لا يُقدّم الكحول رغم أن غالبية زبائنه من الأجانب. ولا يقدم غير المأكولات الخفيفة المقدمة مع القهوة والشاي.

سأل سعيد النادل:

- غريبة. المقهى ما يقدم الأطعمة.
- تصريح مقهانا مقتصر على المأكولات الخفيفة والمشروبات الساخنة والباردة. قبل عامين صدر قرار بإغلاق المقهى مؤقتا بسبب دعوة

مخالفة للاشتراطات البلدية، لكن الأستاذ «نور الدين العامري» حل الإشكالية وأعدنا افتتاح المقهى.

طلبت أميرة من النادل عصير كوكتيل مع قطع من الثلج لها، و«تاي بالبندق والنعناع» مع قطع من كعك الورقة لسعيد. بعد نحو خمس دقائق جلب النادل طلبهما. لاحظ سعيد أن النُدل في المقهى يرتدون زيًّا موحدًا ويهتمون بمظهرهم على أكمل وجه، جميعهم من فئة الشباب. خمّن سعيد أن بعضهم يجمع بين العمل في المقهى ومواصلة الدراسة الجامعية.

علّقت أميرة سماعة هاتفها النقال في أذنها لتستمع إلى رسالة صوتية وردت إليها عبر الواتساب. ما أن شغلت الرسالة حتى ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها. دندنت بأغنية غير واضحة وهي تهتز مع إيقاع ما تسمعه. لاحظت تركيز سعيد عليها فأشارت بفرح إلى أذنيها ما معناه أنها قد تلقت رسالة مهمة. استغل سعيد اشتغال أميرة فأعاد تشغيل هاتفه متنقلًا سريعًا بين حسابيه في تويتر والسناب شات لمعرفة الجديد فيهما.

دقائق مرّت قبل أن تنهي أميرة ما كانت تسمعه. أسعدتها الرسالة الصوتية. فيها استمعت لصوت ابنها قيس وهو يتحدث عن شوقه وشوق أختيه لها، وأنهم طلبوا من جدتهم السفر إلى تونس للحاق بها قبل أن تبدأ العنود في الغناء بصوتها الجميل.

انتبهت أن سعيدًا لا يزال يحدّق بها. هزت رأسها علامة الاستفسار عما يدور في خاطره.

- بعدني أفكر وين شفتك من قبل.
- قلت لك من قبل أنا كنت نجمة في السماء وطُحت في تونس. ردت ضاحكة.
- أتكلم جد والله أميرة. الغريبة كل ما أطرد هذي الفكرة من رأسي ترجع وتعشش من جديد. وجهك ما غريب عليّ. تقاسيم الوجه شفتها في مكان بس وين ما أعرف.

قررت أن تغير الحديث فبالنسبة لها لم يحن بعد الوقت لإخباره بجواب ما يدور في رأسه. لا يزال أمامها متسع من الوقت قبل أن تصارحه.

- فُكْنَا من الكلام هذا توّا.. قُلّي. شنوة الجديد في المؤتمر؟

فكّر لبرهة وفهم أنها لا تريد الاسترسال في هذا السؤال.

- ما شيء جديد. نفس الكلام يعاد ويكرر. ما أعرف ليش جامعة الدول العربية متعبة نفسها ومسوية مؤتمر وصارفة فلوس عليه. حقوق المواطن العربي معروفة وتطبيقها سهل. وأي مخالفات أو تجاوزات مرصودة من قبل الجامعة والمنظمات الدولية. رد بعصبية.

لاحظت انزعاجه عند الحديث عن المؤتمر.

- من وجهة نظري. مهم جدا تنظيم مثل المؤتمر هذا. متابعة الملف ومعالجة أوجه القصور وتنبيه الدول الأعضاء لأخطائها أو تجاوزاتها.
- صحيح لكن المشاركين في المؤتمر ما صانعي قرار. مجرد موظفين حالهم حالي لا يقدموا ولا يأخروا في الموضوع. كل اللي نقدر نسويه نرفع تقرير للمسؤول الأعلى وبدوره يرفعه للأعلى منه. وأغلب الظن إنه يتجاهل الموضوع خير شر.
- في النقطة هذي معاكِ حق. لكن من حيث الفكرة من المفترض الاهتمام أكثر بتفاصيل المؤتمر وأهميته.

هز رأسه موافقًا..

- بدّلت موعد السفر؟ فهمت منك أن المؤتمر يكمل غُدْوة وأن موعد السفر بعد غُدْوة؟
- بالضبط. بكره الفترة الصباحية آخر الجلسات. مخصصة للتوصيات والمقترحات. وبعد العصر حفل مبسط لتوديع المشاركين في المؤتمر.

قالت بانزعاج:

- لكن غُدْوة اتفقنا أنك تتعشى معانا في البيت. جدتي متحمسة بش تشوفك.

بدا مترددا في قبول الدعوة.

- لكن.. أنا محرج شوي. يعني أنا غريب عنكم. مجرد زائر لتونس. وانتي ما قصرتي معي. لولاك يمكن ما بشوف اللي شفته في المدينة العتيقة وسيدي بوسعيد وحلق الوادي.
- الليلة باش تمشي معايا إلى مكان يعجبك. خلّك من المواقع السياحية والأثرية.

ضحك.

- على إيش ناوية يعني؟

تجاهلت الرد على سؤاله فما كان يشغل بالها هو موعد العشاء مع خديجة.

- قُلّي. بدلت موعد السفر؟
- أيوا.. قدرت أحصل على حجز آخر بعد أربعة أيام. لكن بعد بكرة لازم أترك الفندق وأشوف لي فندق ثاني لأن الحجز اللي مسوتنه جامعة الدول العربية محدد بموعد الوصول والمغادرة. والخيار الآخر أستمر في الفندق وأتحمل تكاليف الإقامة.
- هذي موش مشكلة كبيرة. في الحالة هذي غدوة تتعشى معانا.

تردد قليلاً..

- أحس إنه إحراج والله.
- ما فمّة حتى إحراج. جدتي شدّت صحيح بش تتعشى معنا. اقترحت عليها نتعشى في واحد من المطاعم لكنها قالت خليه

يجرب أكل البيت التونسي. هذا أولًا.. ثانيًا العشاء باش يقتصر علينا أنا وأنتي وجدتي وخويا. صدقني اللحظات هذي باش تتذكرها كي تروّح لعُمان.

أخذ وقته في التفكير قبل أن يرد بالموافقة.

- في الحالة هذي. غُدوة نتعشى مع بعض. وبعد غُدوة تنتقل لفندق آخر وبعدها نبدأ في جولة في بعض المواقع السياحية في تونس.
- اتفقنا.

من بعيد تسمع عزفًا موسيقيًا من التراث التونسي. استحسن سعيد الإيقاع. أغمض عينيه مستمتعًا باللحظة. هواء عليل، موسيقى ممتعة، وصخبٌ غير مؤذٍ، وعلى مقربة منه رائحة عطر أميرة تداعب أنفه بلطف.

خلال ما يقرب من الساعة ظلا في مكانهما يتابعان توافد ومغادرة زوار المكان. كررا طلبهما من الشاي والقهوة لجولتين أخريين. كان الهواء عليلاً ومتعة مشاهدة الآخرين تأسرهما. سعيد يناسبه هذا الوضع فلا متعة عنده تضاهي متعة عدم فعل شيء. كان دائمًا ما يصف العاملين والموظفين العاطلين عن العمل بأنهم «متقاعدون في العمل» وعنهم كتب في حسابه بتويتر: «متقاعد في العمل»، تضاهي تقريبًا متعة عدم فعل شيء عند الطليان. الفرق الوحيد بينهما أن الأول إجباري تحصل من خلاله على مبلغ مالي، والثاني اختياري قد تدفع من أجله بعض المال.

(15)

«يلتقط الفقراء الفرح أينما وجدوه
ويسيرون فيه حتى أقصاه»
رواية «الباغ»
بشرى خلفان

غادرا سيدي بوسعيد سالكَين طريق نهج الطيب المهيري حتى وصلا إلى شارع علي بن عايد باتجاه المرسى، وقبل التقاء الشارع بشارع سيدي بنور طلبت أميرة من سائق سيارة الأجرة التوقف عند محل للعصائر دلفت إليه وطلبت كوكتيل بالغلة المشكّلة، بعدها اتخذ السائق طريق نهج سيدي الطريف، وعند وصولهما إلى كورنيش المرسى نزلا من سيارة الأجرة وعبرا الطريق باتجاه البحر.

خلال تجوالهما في الرصيف المحاذي للكورنيش صادفا شاحنة بيضاء مخصصة للتبرع بالدم عليها شعار المركز الوطني لنقل الدم، وهو المركز التونسي المسؤول عن تنظيم عمليات التبرع بالدم وتوفيره. على الجانب العلوي من الشاحنة وُضعت عبارة بالخط الأحمر «تبرع من أجل إنقاذ حياة». كانت الحملة منظمة بالشراكة بين المركز الوطني لنقل الدم ومنظمة الهلال الأحمر التونسي.

- وقتاش آخر مرة تبرعت بالدم يا سعيد؟
- آخر مرة في شهر يناير الماضي. تعودت بين الحين والآخر أروح أتبرع بالدم في مركز خدمات بنوك الدم. كل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر أروح أتبرع.
- شرايك تتبرع بالدم هنا؟
- هل يقبلون متبرعين من خارج تونس؟

ردت عليه سريعًا..

- يقبلوا في عُمان بمتبرعين غير عُمانيين؟

أُسقط في يده وعرف أن سؤاله بلا قيمة وفي غير محله.

طلبت منه أميرة تسليمها وثيقة السفر وانتظارها بالقرب من أحد الحواجز الإسمنتية القريبة.

- باش نمشي نستفسر من منظمي الحملة هذي ونعرف إمكانية التبرع بالدم توّه.

غادرته مسرعة، فيما بقي ينظر إليها وهي تعبر الطريق باتجاه مجموعة من الأشخاص يرتدون زيًّا موحدًا.

مرت دقائق قبل أن تعود أميرة وتصطحبه معها. كانت الشاحنة من الداخل مهيأة بشكل مثالي، فإلى يمين الباب وُضع كرسي طويل مكسو بالمخمل وقد خُصص للانتظار، وإلى جواره غرفة مخصصة لنقل الدم في

داخلها مجموعة من المقاعد الخاصة بالمتبرعين. وعلى الجهة المقابلة توجد غرفة أخرى مشابهة مخصصة للنساء.

كانت أميرة قد دونت اسمه وبياناته الخاصة في استمارة معدة للمتبرعين توضح الاسم والرقم المدني والحالة الصحية من خلال الإجابة على مجموعة من الأسئلة. بعد أخذ الفحص الأولي لمستوى الهيموجولبين وضغط الدم توجه سعيد إلى الغرفة المخصصة للرجال، فيما توجهت أميرة بدورها إلى الغرفة المقابلة.

على منشور وضع بالقرب من مقاعد المتبرعين قرأ سعيد معلومات موجزة: تونس تحتاج إلى قرابة 200 ألف وحدة دم في السنة من مختلف الفصائل. أكثر الذين يحتاجون للدم هم من ضحايا حوادث الطرقات وحوادث العمل وبعض حالات الولادات وبعض العمليات الاستعجالية.

مسحت الممرضة المسؤولة عن تنظيم نقل الدم ساعد سعيد بقطعة مبللة بالكحول بعد أن ربطت ساعده بحبل مقوى، وغرزت إبرة موصولة وبدأت في سحب الدم ونقله إلى كيس بلاستيكي مخصص لحفظ الدم. سألته الممرضة:

- أنت عُماني صْحِيحْ؟

رد وهو يرسم ابتسامة على وجهه: «نعم».

قالت وهي تفحص تدفق الدم إلى الكيس البلاستيكي:

- جزاك الله خير خويا.. العمل الإنساني هذا ينقذ حياة ثلاثة أرواح على الأقل.

سألها سعيد عن إقبال التوانسة على التبرع بالدم، وهل هناك حملات توعوية مناسبة لحث الناس على التبرع بالدم فكان ردها بأن الإقبال جيد وأن التوعية عبر مختلف الوسائل متواصلة.

شرحت أكثر..

- من بين الجهود المبذولة في هذا الجانب.. حملة «منصة حياة» اللي أطلقتها قبل ثلاثة شهور طالبة تونسية اسمها وصال الزريبي بهدف حث ومساعدة الناس على التبرع بالدم. هذه المنصة هي أول منصة رقمية معنية بالتبرع بالدم لاقت نْجاح منقطع النظير.

***

كانت الشمس توشك على المغيب حين استقرا على مقعد إسمنتي محاذٍ للبحر. قبلها بنصف ساعة تركته أميرة جالسًا على أحد المقاعد المقابلة للبحر. استأذنته في الذهاب سريعًا إلى دار جدتها لوضع المغلف وتلبية حاجات طلبتها خديجة منها. بقي سعيد يتأمل البحر والناس وحاله في عُمان.

نظرت أميرة إلى ساعة يدها. لا يزال الوقت مبكرا على موعد السهرة التي تخطط للقيام بها. في داخلها رغبة ملحة للذهاب إلى فينكس قرطاج حيث سهرت الليلة الماضية.

«أميرة.. في رأسي سؤال ما عرفت له إجابة». قال وهو يلقي بنظره تجاه البحر وكأن التفكير أرهقه.

- خير يا رب. شنوة السؤال اللي استعصى عليك؟ ردت بابتسامة بلهاء.

تمهل في طرح سؤاله.. وجه نظره نحوها فلمح في عينيها لمعة خفيفة. ما سرّ هذا الانجذاب نحوها؟ سأل نفسه. ليست أول امرأة يصادفها في حياته وليست أول امرأة ذات حسن يراها. في داخله شعور بأنها مختلفة عن الأخريات وأنها على عكس ما يظهر عليها تتصارع مع أسرار تخفها. جميلة ومحتشمة ومنفتحة على الحياة وفي ذات الوقت يشعر أنها تتألم.

- سؤالي. كيف تدبرين حياتك في تونس؟ أشعر أن الحياة السياسية متقلبة والأوضاع الاقتصادية متذبذبة والناس تكافح رغم كل مظاهر الراحة؟
- ما فهمتش قصدك بالسؤال سعيد.
- التوانسة مرتاحين ماديًّا؟ أم أنهم يعانون من شح الموارد المالية والاستقرار السياسي والاقتصادي؟
- أكون صريحة معك. أنا ما نهتمش برشا بالمسايل هذي. عديت فترة طويلة من عمري خارج تونس ورجعت قبل فترة قصيرة لأسباب شخصية بحتة، لكن بشكل عام إنَّجِّم نقول إن الموارد المالية في تونس شحيحة والأوضاع الاقتصادية صعبة، لكن الناس قادرة تمشّي أمورها بالشكل اللي تقدر عليه.

تأمل في ملامح وجهها وهي ترسل نظراتها باتجاه مجموعة من الشباب يلعبون على الرمل. حدثت نفسها أن الوضع في عُمان لا يختلف كثيرا عما هو في تونس، لكنّها على الأقل لديها موارد نفطية تساعدها على نثر شيء من الرفاهية بين مواطنيها. تونس لا تمتلك النفط لكنها تمتلك ما هو أهم من ذلك. تأملت في جملتها الأخيرة ولم تقتنع أنها على حق فيما ذهبت إليه.

- أنا عندي سؤال.. غمزت له.
- تفضلي.
- أمس واليوم لاحظت فيك صفة جميلة قد تكون نادرة هذي الأيام. كلامك موزون، تصرفاتك عقلانية، طريقة تفكيرك مهذبة. ما تهمكش المادة كثير كما لاحظت. عندك ذوق مرهف في التعامل مع الأنثى حسيت بيه منذ اللحظة الأولى للقائنا. منفتح لا تحمل عقد نفسية في داخلك ولا صراعات دينية أو أخلاقية.

ضحك سعيد..

- هذا ما سؤال هذا مدح طال عمرك.

سارعت للتوضيح..

- ما كملتش.. للصراحة فيك خصل جميلة على هذاكة استغربت لمّا خبّرتني أنك انفصلت على مرتك. كيفاش مرا تنجّم تطلّق راجل كيفك.

صمت وسرح بخياله.

- سامحني والله. هذا أمر شخصي ما نقصدش أن نتدخل في خصوصياتك.

- أبدًا.. أولا أشكرك على كلامك. كلك ذوق في كل كلمة قلتيها. ثانيًا حتى أنا ما أعرف سبب انفصالنا. فجأة صار الأمر بدون أي مقدمات.

«أنا آسفة». قالت وهي تضع يدها على كتفه.

هز كتفيه دلالة عدم تأثره.

«دورك الحين. إنتي متزوجة؟ أو مطلقة؟ أو عزباء؟ أو.. أرملة؟» قال وهو يشدد ضاحكا على الأخيرة.

ردّت دون تردد:

- مطلقة.

رفع حاجبيه ومط شفتيه كمن يتعجب من ردّها السريع وكلمتها المقتضبة التي لا تحمل ندمًا ولا حسرًة ولا حزنًا ولا اكتراثًا بالأمر. ردة فعله كانت عفوية من غير أن يبدو عليه عدم التصديق أو الإنكار أو الشك. كانت أقرب للدهشة منها لأي أمر آخر. رسم ابتسامة باهتة..

- في هذي الحالة نحن متعادلين. ايش رأيك نكتب على لوحة «المطلقان يتجولان في ربوع تونس» ونشلها معنا وين ما نروح.

أضافت.

- أو نعمل موقع إلكتروني خاص بالمطلقين نخصصو لرفع معنويات ودعم المطلقين والمطلقات.
- أو نسوي حملة عالمية لحماية المطلقين من الاكتئاب النفسي.

واصلا الضحك..

اقترحت عليه خلع حذائه والذهاب للمشي على الرمل. وافق على الفور. مشيا حافيي القدمين على الشاطئ. من بعيد كان المنظر عاديا لمن يراهما. مع كل لحظة تمر ينكسر حاجز ما بينهما. لم يعد سعيد يفكر أنه غريب عن تونس، ولم يعد يشعر بالوحدة التي كان يشعر بها منذ انفصاله عن ثريا.

***

على مقربة من البوابة الرئيسية لفينكس قرطاج توقفت سيارة الأجرة بعد الساعة التاسعة بقليل. كان سعيد وأميرة يحتلّان المقعد الخلفي وهو يشرح لها عن فكرته لإقامة مقهى على نفس طراز مقهى الصفصاف بالمرسى. أعجبته طريقة تصميم المقهى وتهيئته ليكون مناسبا للعائلات ومختلف الأعمار. لاحظ سعيد أن المقهى صمم ليكون أقرب للبيوت التونسية بفناء داخلي واسع تحيط به غرف شبه مغلقة تزينها أبواب وشبابيك صُبغت باللون الأزرق.

كان الليل قد حل قبل ساعة ونصف حين دخلا إلى المقهى واستقرا بالقرب من عائلة تتسامر فيما بينها.

- قدامنا وقت كافي قبل ما نمشو لفينكس قرطاج. قالت وهي تشير للنادل.

بعد ساعة غادرا المقهى..

مد سعيد بقيمة الأجرة قبل أن يخرجا من السيارة ويتوجها إلى الداخل. شبكت أميرة يدها تحت ساعده كأي صديقين أو زوجين جاءا لقضاء سهرة في المكان.

«ضروري نعطي الحراس انطباع بأنّي صاحبتك». قالت ردا على ردة فعله المتعجبة من حركتها الأخيرة.

- بعدني ما فهمت.
- في هذا المكان الدخول فقط مسموح للكبلز. صديق وصديقته. زوج وزوجته. حبيب وحبيبته. هكّا.

في اللحظة التي اجتازا البوابة انفصلا ومشيا محاذيين لبعضهما بعضًا. بدأ سعيد يدرك أن هذا المكان هو عبارة عن نادٍ ليلي أو مطعم سياحي مفتوح على الفضاء الخارجي. على العشب المحيط بحوض سباحة انتشرت طاولات خشبية وكراسي ذات مستوى مرتفع احتل بعضها مجموعة من الشباب المنتشين بصخب الموسيقى العالية والإضاءة الخافتة والهواء العليل. وعلى الجانب المقابل تحت سقف إسمنتي، توزعت مجموعات أخرى اشتغلت بتناول الطعام والشراب وهم

يتفرجون ضاحكين على فتاة ترقص بنشوة مع صاحبها ويستقطعان لحظات سريعة من القبل والعناق.

رحب بهم أحد النُدل وأشار لهما إلى إحدى الطاولات الفارغة، لكن أميرة شكرته وسحبت سعيد من يده حتى وصلا إلى طاولة مستطيلة مرتفعة على مقربة من فارس الأسطوانات (**DJ**).

استقر سعيد بالقرب من أميرة مركزًا انتباهه على منسق أغاني النادي الذي تفاعل مع الراقصين أمامهم بتنويع ما يقدمه بحسب ردة فعلهم وحماسهم، فمزج بين الأغاني المسجلة وموسيقى يعزفها بطريقة متداخلة تصاحبها مؤثرات صوتية يريد منها رفع المتعة لدى الزبائن، ورفع مستوى بهجتهم وتحفيزهم أكثر على مواصلة الرقص والاستمرار في حالة الفرح.

بالقرب منه تمايلت أميرة متجاوبة مع العزف والراقصين. ابتسمت في وجهه وهي تتمايل بجسدها مفرقعة بإصبعيها الإبهام والوسطى. علت ضحكتها وهي تشير إلى شابين يرقصان إلى الخلف من مكانهما وقد شاركتهما الرقص شابة صغيرة في العمر وقفت ترقص بينهما.

سألت أميرة ضاحكة بصوت عالٍ وهي تُقرّب فمها من أذن سعيد:

- ترقص؟

لوّح برأسه بالرفض معيدًا إليها ضحكتها.

قرّب وجهه من أذنها..

- ما أعرف أرقص. لمّا أرقص أكون كما سمكة تتبلط في الرمل.

ضربت بكفها على كتفه..

- باش نعلمك إذا تحب.. غمزت له.
- لا مشكورة. لو تعلميني من اليوم لغاية بكرة ما بعرف أرقص كما هذيلا المصرقعين.

قاطعهما النادل بسؤالهما إن كانا يرغبان في شيء. طلبت منه أميرة منحها دقيقة قبل أن تحدد ما يريدان.

- تشرب وإلا تأكل حاجة؟

التفت حوله.

- إنتي إيش تقترحي؟
- يخطر لي نبيذ أحمر مع تشكيلة من اللحم المشوي. ونطلب لك كوكتيل **Mojito** ونوع من تشكيلة الأجبان والفواكه. آش رايك في تجربة الشراب؟ أعتقد أنه مناسب جدًّا لك.

أخذ ثواني قليلة من التفكير قبل أن يقرر.

- تمام.. رح آخذ موهيتو ونفس المقبلات اللي اقترحتيها.

أشارت أميرة للنادل وهمست في إذنه بطلبهما. التفتت إلى سعيد وهو يتابع من حوله، كل واحد من الحاضرين كان مشتغلًا بشيء، شباب يتسامرون أو يرقصون أو يتناولون الشراب والطعام الذي أمامهم. وحدها أميرة كانت مشتغلة بالنظر إلى سعيد وهي تتمايل منتشية بما حولها.

فجأة وقفت أميرة وبدأت في الرقص مع إيقاع العزف والفرح يملأ وجهها. ابتسم لها سعيد وبدأ في التصفيق لها. سحبت يده وأمرته بمجاراتها في الرقص. مانع في البداية لكنه رضخ ووقف قبالتها محاولا القيام بما يعرفه، لكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هز كتفيه ورأسه والتصفيق بيديه.

في لحظة انسجام من الزمن وهما يتبادلان الضحك بينهما كانت على وشك أن تحتضنه ليعرف أنها في قمة السعادة، وكاد..... أن يُقبّلها ليخبرها أنها تستحق مثل هذا الفرح.

(16)

«الأهل ليسوا من ينتسبون إلى قبيلة واحدة، بل من تفرض عليهم الحاجة التعاون وتبادل المنفعة».

رواية «الأحقافي الأخير»

محمد الشحري

أدركت أميرة منذ البداية -وهي الآن باتت متيقنة- أن سعيدًا رجل مستقيم لا يمارس هواية الإغواء التي يمارسها البعض عندما يكون بصحبة امرأة مهما كانت درجة جمالها. لاحظت أنه لم يحاول التغزل فيها أو تصنع الإعجاب بها، بل على العكس من ذلك، التزم بحدود الحوار المتزن والنظرات المحتشمة. أكثر من ذلك يغرق أحيانًا في دوامة الحياء. *هذه صفات نادرة في الرجال.* قالت في داخلها.

تجد نفسها الآن تُدخل سعيد في لعبة المقارنة مع عبد الله تحديدًا وإبراهيم في حالات محددة. عبد الله من تصرفاته ونظراته وانطلاقة لسانه تعرف أنه من نوع الذكور الذين يتقنون إغواء النساء، حتى وإن نجح في إخفاء مغامراته أو أنكر حين تواجهه بشكوكها. على عكسه تمامًا يبدو سعيد. لم يكن هناك ما يمنعه من التلفظ بعبارات غزل أو النظر إليها

بطريقة جريئة. في النهاية وفي أسوأ الأحوال ستنتهي مهمته في تونس سريعا وسيغادر غير آسف على خطأ ارتكبه أو فعل متهور اقترفه.

لا تعرف الكثير عن أفراد عائلة «أولاد الحار»، عائلة والدها المقربين، تعرف الأسماء لا الأشخاص. في سنوات عمرها المبكرة وجدت كل واحد من هذه العائلة مشتغلا بنفسه عن غيره. كان والدها قد آثر النأي بنفسه عن خلافات عائلته ولم يحاول التصدي للإساءات التي لحقت به بعد زواجه من تونس. لم يكن يهمه أن يتقبل أبناء عمومته وزوجاتهم قراره بالزواج من والدتها، فلم يهمل زوجته الأولى ولا أطفاله منها. كان يعرف أن زواجه من امرأة غير عُمانية يُعد في عرفهم تعديًا على قوالب مجتمعية رافضة للفكرة من أساسها.

كل ذلك يفسر لمَ لمْ تكن تعرف سعيد، ولا أي فرد من عائلته بشكل واضح ودقيق، ولا تعرف عن قرب، من يفترض أنهم أقاربها وأنها ترتبط معهم برابط الدم والنسب.

تساءلت في نفسها كيف فرّطت زوجته فيه. ما رأته خلال الساعات التي قضتها بصحبته يخبرها أنه نقي في داخله. نقاء زاده حُسنًا إلى حُسن وجهه ووسامته.

في نفس اللحظة خطر سؤال مشابه في رأس سعيد وهو مستكين في المقعد الأمامي لسيارة الأجرة يراقب الطرقات الخالية من المارة.

زاد عليه سؤال آخر: ألم يكن زوجها محظوظًا وهو يفتح عينيه كل صباح فيرى وجهها، ويعيش حياته وعنده زوجة مثل أميرة، جميلة المحيّا، موفورة الصحة، مثيرة في حركاتها وسكناتها والتفاتات عينيها.

لم يخنه حدسه من قبل عندما يلتقي بأي شخص للمرة الأولى، حين ينبئه أن هذا الشخص سيىء ليكتشف في النهاية أنه كذلك بالفعل، مهما حاول ذلك الشخص أن يرسم لنفسه صورة مغايرة، أو حين ينبئه أن ذلك صالحٌ، فتثبت الأيام صحة حدسه.

منذ أول لحظة ومنذ أول لقاء بها وأول حرف نطقته وأول ردة فعل بدرت منها، أخبره حدسه أنها ليست فقط أميرة بل ملكة من سلالة النبلاء، وأن قصته معها لن تتوقف عند حد نهاية جولتهما في شارع الحبيب بورقيبة، ولا عند مغادرته تونس عائداً إلى عُمان حيث خيبة أمله. فقط هو الآن ينتظر ما ستظهره له الأيام.

خطرت ثريا بباله. أحبها بالفعل، عشقها وكان هائما في حبها للدرجة التي أعمته عن حقيقة لا جدال فيها. لم يتوانَ للحظة عن فعل ما تحب ولم يتأخر عن تلبية ما تطلبه، ولم يعكّر مزاجها بفعل أو كلمة تجرحها، لكنها في النهاية قررت الانفصال عنه ووَضْعَ حدٍّ لحياتهما الزوجية. ربما أدركت أنها لا تنسجم مع حياة سهلة رتيبة كحياتهما معًا. ربما كانت بحاجة للاختلاف معه، لبعض المشاكل الزوجية، لبعض معكّرات الحياة

بين الزوجين، لمن يخطئ ثم يعتذر، لمن لا يكون طائعًا ليّنًا سهلًا كل الوقت. يقول ربما وقد تكشفت له الحقيقة الآن.

ربما كذلك غارت صديقاتها وقريباتها من حياتها الهادئة الهانئة السلسة. وربما حدّثن أنفسهن أنها محظوظة، وربما حمدن الله أن حياتهن ليست برتابة وضجر حياة ثريا. القليل من الملح يعطي الطعام حلاوته ولذته، وبعض المنكهات تميز طعامًا عن آخر. النهر لا يجري مستقيمًا في كل وقت، فتارة يكون متعرجًا وأخرى يرتفع مستواه ثم ينخفض، في موضع يكون اندفاعه قويًّا وفي موضع آخر يستكين ويلين.

فور دخولها غرفتها فتحت هاتفها النقال لتجد عشرات الرسائل وردت إليها من عُمان: رسائل صوتية من قيس والعنود والريم، ومجموعة من الصور الملتقطة بهاتف تونس. قيس يترجاها العودة إلى عُمان، والعنود تُغنّي بصوتها العذب، والريم بلثغة الحروف تخبرها أنها اشتاقت لحضنها. أما الصور فتظهرهم جميعًا في حالة حزن حتى وإن جاهدوا لرسم ابتسامة على وجوههم.

عندما غادرت عُمان كانت قد عقدت العزم على البقاء في تونس لعام كامل على الأقل، وهي المدة التي حددتها في طلب الإجازة بدون راتب. بعدها ستقرر مواصلة الإجازة أو العودة أو تقديم استقالتها. لم تكن قلقة بشأن أطفالها الثلاثة فبإمكانهم المجيء إلى تونس وقضاء بعض الوقت في إجازة نهاية العام الدراسي.

تونس بالنسبة لها ملاذ آمن من كل ذكرياتها في مسقط. «بعض المدن تحتوينا حين تنفينا إليها أخرى، إنها كالبشر تمامًا، نفشل في حبّ فيتلقفنا آخر، نضيع في طريق فيدلنا غيره، إنها الحياة التي لا بد أن تستمر»[1].

الآن بعد لقائها بسعيد لم تعد متمسكة بتنفيذ خطتها. تستطيع العودة إن وثقت من إمكانية فرص التقرب منه. قبل كل شيء لا بد أن تكشف له ما هو خافٍ عنه وأن تعرفه أكثر وأكثر، أن تعرف مشاعره تجاهها، أما مشاعرها فتعرفها جيداً فقلبها بدأ الميلان نحوه.

فرصتها في الوقوع في حب جديد أصبحت أكبر من ذي قبل. نحن نصادف الأشخاص المناسبين في الوقت الضائع، ولا نعرف هل سنظل معهم حتى يحين الوقت المناسب أم لا. تعرف أن المرء الذي يقع في الحب مرة قادر على أن يقع فيه مرة أخرى، بشكل مشابه أو مختلف أو بنفس التوهج الذي وجده في الحب الأول، وفي حالات محددة بأقوى من أي حب آخر.

في مكان آخر من تونس هناك شخص يفكر في هذه اللحظة في أميرة ويعدّد مميزاتها ولهفة قوية تسكنه لموعد لقائه من جديد. «إذا ظللت تفكر في امرأة ليوم كامل فقد وقع شيء منها في قلبك»[2]. حدّث نفسه وقد بات مقتنعا بصحة هذا القول.

---

(1) رواية ظل هيروفروديتوس، بدرية البدرية، ص89.

(2) رواية منبوذ الجبل، عبدالله ناجي، ص163.

الشرارة الأولى للحب على ما يبدو..

قريبًا ستنتهي ذكرياته معها وسيذهب كل واحد منهما في طريقه. تذّكر واقعه القادم. سيعود إلى عُمان ولن يحمل سوى ذكريات وستبقى هي تُشكّل مجرى حياتها.

أما أميرة في غرفتها فبدأت رسم مسارٍ مختلفٍ وخططٍ قابلة للتحقق. وكما نرى هناك اتجاهان متعاكسان في رأسيهما.

سؤال أخيرٌ طرأ في مكانين مختلفين: هل تخبئ لنا الحياة مفاجأة غير متوقعة سواء أكانت سعيدة أو مثيرة للإحباط؟ يدركان تمامًا أن «السعادة لها شكل واحد، أما التعاسة فتأتي بكافة الأشكال والأحجام»[1].

***

في الجانب الآخر من العالم العربي وعلى بعد أكثر من ستة آلاف كيلومتر وبفارق ثلاث ساعات، كانت تونس تلتقط أنفاسها في أحد أحياء محافظة مسقط، وقد نجحت أخيرا في دفع أحفادها الثلاثة للتخلي عن متابعة برنامج للأطفال على قناة ماجد والتوجه إلى أسرّتهم.

فشلت في إقناعهم بمتابعة قناة أخرى للأطفال، أو توجيههم لبرامج تعليمية هادفة عبر أجهزتهم اللوحية الخاصة. تعرف جيدًا أن هذه المرحلة من عمرهم أخطر وأهم مرحلة، تترسخ فيها الكثير من العادات والثقافات. وما تبثه القناة يحمل في طياته رسائل موجهة لا تبدو بريئة في

(1) رواية كافكا على الشاطئ، هاروكي موراكامي، ص209.

كل وقت. تتعجب كيف لم تنشئ عُمان بعد قناة خاصة موجهة لأطفالها يعرفون من خلالها ثقافة بلدهم وتاريخه! كيف لم ينتبه أحد إلى أهمية وجود قناة ذات صبغة عُمانية خالصة!

«*أصبح الأطفال مستهدفين بما تبثه القنوات الأخرى، مع مرور الأيام سيتأثرون بما يُحقَن في أدمغتهم*». قالت وهي تفكّر في حذف بعض القنوات التلفزيونية.

حتى بعد مضي أشهر على انفصالها عن زوجها، ترفض أميرة إخبارها سبب التحول المفاجئ في حياتها. عندما أبلغتها للمرة الأولى بخبر طلاقها لم تلحظ على أميرة التأثر أو الانزعاج.

منذ أن غادرت أميرة مسقط قبل عدة أشهر وهي تقضي وقتها في لعب دور الأم والجدة بجميع تفاصيله. تتعجب كيف استطاعت أميرة ترك أطفالها دون أن تسأل عنهم كل يوم. كان عبد الله يتردد بين الحين والآخر لاصطحاب أطفاله إلى بيت والدته أو لأخذهم في رحلة قصيرة أو للتسوق في أحد المجمعات التجارية. ما تبقى من يومهم كانوا إلى جانبها.

استوت قاعدة على طرف فراشها وفي يدها علبة مرطب عطري تعودت على استخدامه قبل النوم. يخامرها إحساس بأن ما حدث بين أميرة وزوجها أكبر مما حاولت إقناعها به. الأمر يتعدى ضجرها من الحياة في عُمان ويتجاوز رغبتها في تغيير مسار حياتها. تعرف جيدًا أن الشخصية الصارمة التي أورثتها لأميرة كان لها دور في قرار الانفصال

والرحيل إلى تونس، فتتصور أنها هي الأخرى إذا ما عزمت على فعل شيء لا تترد في فعله دون أن تطلب رأيًا أو ترضخ للضغوط.

قبل سفر أميرة إلى تونس حاولت طمأنتها أنها ستغيب لفترة قصيرة لتقرر بعدها كيف سيكون مسار حياتها في عُمان. كان يمكن أن تركن للطمأنينة وتصدق الوعود التي تلقتها، لكن أميرة أخذت إجازة بدون راتب وحزمت الكثير من أغراضها الشخصية، أكثر مما يتطلب الأمر. ولحقت بناصر.

- هل انفصالك عن عبد الله له علاقة بدخول شخص آخر في حياتك؟ سألتها وهي شبه متيقنة أن فعلا كهذا لا يكون من أميرة.

الجواب كما توقعت كان قاطعًا بالنفي.

قالت في نفسها: إن الأمر لم يكن ليصل إلى هذا الحد إن لم يحدث بينهما وقعٌ عظيم لا يغتفر، وإن السيل قد بلغ الزبى -على ما يبدو- ولم يعد هناك حلٌ غير ما حدث. والحال هكذا لا لوم على ابنتي فيما انتهى إليه قرارها، فـ«إذا لم يكن في رتق المفتوق حلّ ولا في رقع المخروق وسيلة فليكن إذن تمزيقٌ بالكلّية وفراقٌ لا لقاء بعده»[1]. ثم أضافت مع ذلك، ورغم أي شيء آخر «لابد للحياة أن تستمر، أن يتم ترتيق المفتوق، رأب الصدع، جمع المتفرق، وترتيب المبعثر قدر الإمكان، فلا بد للحياة أن تستمر»[2].

(1) رواية نازلة دار الأكابر، أميرة غنيم، ص135.

(2) رواية حدائق الرئيس، محسن الرملي، ص270.

انتبهت إلى أن الأطفال الثلاثة دخلوا دوامة نوم عميق. في داخلها تشعر بالشفقة على حالهم. بدون أمهم هم ضائعون مهما كان والدهم قريبًا، فلا يعوّض الأطفال أحدٌ في غياب الأم عنهم. تتساءل: ما ذنبكم تتحملون ما حدث بين والديكم؟ لا ذنب لكم.

سوّت أغطيتهم وبدأت الحديث مع النائمين في سكون: أتذكر يوم الثالث والعشرين من أغسطس. أحد الأيام التي بقيت حاضرة في ذاكرتي حين عادت أمكم بعد خمس ساعات من مغادرتها لإحضار حقيبة ملابسكم وكنت أتوقع عودتها بعد نصف ساعة لا أكثر. دخلت علينا وهي في حالة رثة، الدموع تملأ عينيها، شاحبة الوجه، لا يخرج الكلام من فمها. لم تكن هي نفسها قبل ساعات قليلة، المرأة البشوشة الفرحة بالعيد. بدت وكأنها بعمر الخمسين وهي التي احتفلت قبل خمسة أيام بالسنة الجديدة من عمرها. عزلت نفسها عني وعنكم لثلاثة أيام متتالية وفي اليوم الرابع رمت في وجوهنا خبر طلاقها من والدكم.

لا تسألوني ما الذي حدث فأنا لا أعرف. كل ما أعرفه أن والدكم ترك لها البيت لتعيش فيه معكم، لكنها بعد ستة أشهر تركت لكم عُمان لتعيشوا فيها وحدكم. جاءتني لتخبرني أنها حجزت تذكرة ذهاب إلى تونس وأنها شحنت حاجاتها وكتبها وأنها ستعيش مع جدتها في المرسى.

سألتها:

- أقل حق أستحقه إخباري ما حدث بينك وبين عبد الله..

- تعلمت منك أن ما يحدث بين الزوجين يبقى سرا بينهما.

ردت فلم أقدر على قول شيء آخر.

أعرف أمكم جيدا. إذا عقدت العزم على أمر فلا يردّها رادٌّ ولا يمنعها مانع ولا يثني عزمها شيء. هذا ما ورثته من عائلة «أولاد الحار» من بين ما ورثت من طباع وصفات.

فجأة اتقدت في ذهن تونس فكرة استحسنتها فتبسمت ضاحكة ثم فزّت من مكانها خشية أن تتبخر فكرتها أو تنطفئ عزيمتها.

(17)

«الآن بات واضحًا أنهما كانا يشعران من جديد برغبة متبادلة تجاه بعضهما حتى وإن لم يكونا مستعدّين بعد لكي توصف العلاقة التي تربطهما بعلاقة غرامية».

رواية «نداء الملاك»

غيوم ميسو

انتبه سعيد إلى أن الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل وهو يجتاز بهو فندق لايكو تونس باتجاه المقهى المنزوي بعيدًا في الجهة المقابلة للاستقبال. لا يزال متأثرًا بالأجواء التي عاشها الليلة الماضية واللحظات الجميلة مع أميرة وهو يراها في قمة الفرح والسعادة. «يغدو العالم جميلًا حينما تكون سعيدًا، ويصبح قبيحًا حين تكون حزينًا. ألوان الحياة تتبدل بين الفرح والحزن من الداخل، فالداخل هو مصنع الألوان»[1]. لم تحاول إخفاء فرط سعادتها ولم تترد في التعبير عن حماسها غير آبهة بما حولها. رقصت تحت تأثير النبيذ ودفعته لمجاراتها.

(1) رواية منبوذ الجبل، عبدالله ناجي، ص85.

- أنا مراة نستمتع باللحظة اللي نعيشها. أنا هكا. شنوة بالنسبة لك؟

صرخت لتتأكد أنه يسمعها فلا تعود لتكرار قولها من جديد.

لم يعرف بماذا يرد لكنه قال أول شيء خطر بباله وسط كل ذلك الصخب:

- إذا سنحت لي الفرصة لنسيان كل لحظة سيئة في حياتي واللحاق بما تتطلبه السعادة الآنية لن أتردد. إيش الفايدة من حمل الهموم على أكتافنا في كل مكان وكل حين.

صفقت له تعبيرا عن إعجابها بقوله.

- هذا هو اللي نحب نقوله بالضبط. في حياتي برشا هموم وآلام وذكريات خايبة وأحزان وكل ما يجي على بالك من مآسي، لكنّي في البقعة هذي واللحظة هذي نحب نَنْسَى وما نِتْذَكرش اللي فات.

«هل تهذي أم فقط تتقمص شخصية من شخصيات إحدى الروايات التي تقرأها». قال في نفسه. نظر إليها وهي تتمايل من دون إسفاف وتضحك من غير تميّع. أعرف أنها في قرارة نفسها حزينة وأن الفرح الذي تغلف به تعابير وجهها وتفاصيل كلامها ليس إلا هربًا من شيء تريد أن تتجاوزه.

همس في أذنها:

- أميرة. إيش اللي معذب روحك؟

توقفت عن الرقص واستقرت على المقعد القريب منها وكأنها خشيت أن تسقط بفعل السؤال والجواب. بدوره قرَّب مقعده منها. نظرت إليه.

- باش تكتم السر يا سعيد؟

ردّ سريعًا:

- أكيد أكتم السرّ.

تمهلت قبل أن تكمل.

- تعرضت في حياتي للعديد من الطعنات. حبيب تخلى عليا، قريب غدر بيا، زوج خانّي، عائلة تركتنا أنا وأمي وخويا وحيدين وغرباء منبوذين. وكما يقول المثل: فمي مغلوق وقلبي صندوق، وربي من فوق يخلّص لْحقوق.
- .....
- نحب نِقلك بالتفاصيل لكن الوقت غير مناسب توّة. أنا متأكدة أني باش نخبرك وعندي ثقة إنك باش تتفهم اللي نْقُولْهُو لكْ. باش نْقُلك لسبب واحد فقط...

انتظرها تكمل فظلّ ينظر إليها..

- السبب أني اكتشفت أنك من هذاكة الصنف من الرجال اللي ما يئذيش حدا. أنت شخص طيب وسمح. كل شيء فيك يخبرني أنك هكّا. حدس المرأة أقوى من يقين الرجل.

- «تتخيلين الطيبين مبتسمين وبشوشين والأشرار وجوههم قبيحة وحواجبهم غليظة مشعثة.. الحياة أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، الشر موجود في أطيب الناس وأقربهم إلينا»[1].

تجمّعت الدموع في عينيها فجأة وكأنها تفاجأت بلحظة كهذه تفتّح فيها قلبها لنثر ما به من أوجاع ونفض ما علق فيه من هموم. سقطت دمعتان من مقلتيها رغمًا عنها، مسحتهما بكف يدّها ثم لجمت مشاعرها.

- صدقني يا سعيد نعرف آش نقول.. جايز تكون أنت كشفت ما بداخلي لما رسمتني بملامح الحزن، لكني نعرف طينة الرجال ونقدر نقول إني شفت وتعاملت مع مختلف الأنواع منهم.. إنت مختلف. في داخلك قلب نبي وروح ملاك.

شعر بحرارة في وجهه ولمعة خجلٍ برقت في عينيه ما دفعها للضحك. تحولت من مزاج متكدر جلبه لها سؤاله عن عذاب روحها إلى مزاج انشراح سببته طبيعته الخجولة.

- أطلب لك موهيتو آخر؟ أو نبيذ أبيض؟ عندهم نبيذ إيطالي يجنن مصنوع في فريولانو. مازحته.
- لا الشيمة كان فيكِ شيمة. لا إيطالي ولا فرنسي. لا فريولانو ولا بورغوندي. يكفّيني بو شربته. وراي جلسة ختامية بكرة. ما ينفع أروح لهم مطيّن ما أعاين الدرب. بشرب قهوة إذا كان ولا بد.

(1) رواية عمارة يعقوبيان، علاء الأسواني، ص153.

أشارت للنادل وطلبت لسعيد قهوة خفيفة ولها شاي بالنعناع.

- للعلم.. اليوم أنا شربت ثاني كأس شراب في حياتي. أول كأس شربته مع زوجي السابق في أول أيام زواجنا لما كنا في باريس.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه.

- وأنا أول كأس أذوقه في حياتي. سافرت شرق وغرب وجلست مع أشخاص يلكّوه لك ولا عمري ذقت قطرة وحدة من اللي يتعاطوه قدّامي. غمز لها. كل معرفتي بالشراب وأنواعه ما تتجاوز معلومة من هنا ومعلومة من هناك.

سألته بدهشة:

- هذا يعني أنك جاملتني بموافقتك على الكأس؟

ردّ وهو يرفع صوته بالضحك:

- لا.. هذا يعني أنّي ما حصَّلت مناسبة أجمل من هذي المناسبة ولا صحبة أفضل من صحبتك اليوم..

عاد لواقعه في مقهى الفندق. أخرج علبة سجائر كان قد اشتراها في طريق عودته وأشعل سيجارته الأولى. طلب من النادل قهوة أمريكانو وقطعة كعك بالفانيلا.

لأنها لا تزال حاضرة في ذاكرة أيامه، تخيل ثريا حاضرة في سهرة الليلة الماضية. لم يسبق له أن سهر معها مثل تلك السهرة. لم تتجاوز سهراتهما مطاعم أقل صخبا وأكثر رومانسية من ذلك المطعم. سأل نفسه: إلى متى

ستظل ذاكرتك مرتبطة بها؟ لقد اختارت الخروج من حياتك فلِمَ لا تخرجها من ذاكرتك؟ ليست أول امرأة تترك زوجها، ولن تعدم الحظ والتوفيق اللازمين للاقتران بواحدة أخرى تعوضك ما مضى وتتعلق بها.

قرار الانفصال لم يكن يخطر بباله. في داخله كان يتمنى أن تتراجع عما اعتبره لوثة جنون، لكنه في النهاية استجاب من غير رضا. أخبر نفسه أن المرأة التي تتركك معلقًا دون سبب واضح أو خطأ ارتكبته، امرأة لا تستحق التفكير فيها كثيرًا مهما كانت درجة حبك لها، ومهما كانت التضحيات التي قدمتها أو كنت مستعدًا لتقديمها. عوضًا عن البقاء في محيط التحسر على رحليها عنك، عليك أن تلتفت لحياتك وصحتك وراحتك النفسية، فحين ترحل واحدة دون ذنب منك تعوضك الدنيا غيرها، مثلها أو أفضل منها. خرج من تجربته بهذه القناعة.

نظر إلى ساعته. لا يمضي الوقت سريعًا عندما نريده أن يمضي، ويكون كطلقة مسدس حين نرغب في أن يكون كالسلحفاة. يجد نفسه متلهفا للقاء أميرة. تتسارع نبضات قلبه حين يسترجع تفاصيل اللحظات التي جمعته بها. أهو الحب فعلًا أم الحاجة للحب؟ يتساءل ويجيب: لا أعرف ما بي ولا أعرف ما أريد ولا أعرف ماذا تخبئ لي الأيام. إن كان حبًّا سيصطدم بواقع مر وإن كانت الحاجة للحب فليس كل ما نعتقد أنه حب، حبًّا حقيقيًّا. نتوهم الحب وهو في الحقيقة مجرد سراب ماء في

صحراء قاحلة. «الحب من عالم آخر. لا يمكننا تصنيعه بحسب الطلب، ولا إخضاعه عندما يجيء. الحب ليس خيارًا نقوم به»[1].

طلبت أميرة منه اللحاق بقطار تونس – المرسى. من خلال ما شرحته له ليس بالأمر الصعب التوجه إلى محطة المرسى عبر القطار وهناك ستكون في انتظاره. كانت لديه الرغبة في تجربة التنقل عبر القطار، لكنه قرر أن يستأجر سيارة أجرة، فالمسافة لا تزيد على سبعة عشر كيلومترًا يمكن قطعها في ثلاثين دقيقة.

سلكت سيارة الأجرة الطريق الرئيسي متجاوزة حديقة الترجي التونسي وبعدها الحديقة اليابانية بمساحتها الشاسعة قبل أن تسلك طريق **N9** السريع. عند محطة وقود طوطال توقف سائق سيارة الأجرة لتزويد مركبته بالوقود، فاستأذنه سعيد بالانتظار لدخول متجر **bonjour** المقابل للمحطة. في الطريق كان على سعيد إخبار أميرة بأنه استقل سيارة الأجرة وطلب منها إرسال موقع البيت فلا تضطر لانتظاره عند محطة القطار.

***

عند مدخل البيت وقفت أميرة وعيناها لا تفارقان الشارع المقابل مركزة نظرها على سيارات الأجرة التي تمر بين لحظة وأخرى. حلّ الظلام منذ زمن قصير، ورغم ذلك لم تتوقف الحركة في الطرقات للمركبات والناس جماعات وفرادى، كلٌ إلى هدفه يسير وهي تنتظر

(1) رواية الأصل، دان براون، ص433.

وصول هدفها. كانت قد انتهت قبل الرسالة التي وصلتها من سعيد، بمساعدة خديجة، من تجهيز أطباق الطعام الرئيسية: طبق روز جربي وطبق كسكي بالعلوش وملوخية تونسية. ومن السلطات: سلطة مفوّرة وسلطة أمك حورية. وفي منتصف الطاولة وضعت وعاءً كبيرًا صفّت فيه أنواعًا من الغلال التونسية: دراق مبلّط، والكرموس، والصبّير، والخوج والمشمش والفراولة والتفاح، ولم تنسَ تقطيع الدلّاع، فاكهة الصيف المحببة إلى قلبها.

- ياااا أمي.. كل الأطباق هذي بش يَاكْلُوها ثلاثة من الناس؟ برشا يا خديجة هذي الماكلة.. برشا.

ردّت الجدة بوقار:

- لا يا بنتي موش برشا على ولد فاطمة.

«شكون فاطمة؟ وشكون ولد فاطمة؟» سألت أميرة وقد حسبت أن جدتها دخلت مرحلة الزهايمر.

غاصت في ذاكرتها وهي تحدث أميرة عن والدة سعيد.

- بعد ما خذات أمّك، بوك بتسع سنين، سافرت لعُمان وعمرك أنتِ وقتها ثماني سنين، قعدت فيها ستة شهور، مَرْة سالم راشد كانت أكثر واحدة فرحت بيّ من نساء عائلة بوك. أمك وقت خذات بوك، لقات معارضة من عائلته. الوحيدة اللي وقفت مع أمك هي فاطمة

أم سعيد.. الشيء هذا ريته بعيني. أم سعيد فضّيت روحها بش تعاونّي في أي حاجة استحقيتها.

تغضن وجهها بابتسامة وهي تتذكر مواقف رأتها في عُمان. أعجبها البلد والناس فيها لكنها لم تكن قادرة على البقاء أكثر مما بقيت فيه.

على مقربة منها توقفت سيارة أجرة ففز قلبها من مكانه. خرج سعيد من السيارة فسارعت للترحيب به. في يدّه حمل صندوقًا مغلّفًا بورق هدايا أنيق باللون البنفسجي وباقة وردٍ مصفوف بعناية.

«حمد لله على السلامة يا سعيد. تأخرت علينا». شدّت على يده وهي تهزها.

- الله يسلمك. ردّ. توقفت في الطريق أشتري حاجة أجيبها لكم.
- تعبت روحك. ما كان له لزوم والله.

بابتسامة عريضة أفهمها أن من عادات أهل عُمان أنهم لا يدخلون بيتا غريبًا في المرة الأولى إلا وفي يدهم هدية يقدمونها لأهل البيت، وإن كانت بسيطة ومتواضعة.

تقدمت إلى داخل البيت عبر الباب المقوّس بزخرفته المميزة، وقادته من خلال الرواق المستطيل إلى داخل قلب البيت حيث وقفت خديجة، وقد لبست مريول فضيلة ووضعت على رأسها وشاح الكادحين: فولارة تونسية ملونة، لتستقبلهم بابتسامة فرح. تقدمت نحو سعيد لتصافحه فمدّ

يده وانحنى مقبلًا يدها باحترام. نظرت خديجة إلى أميرة وابتسامة استحسان على وجهها.

سارت أمامهم نحو غرفة الاستقبال. خلفها مشى سعيد وأميرة وهما ينظران لبعضهما بفرح.

«نوّر البيت بزيارتك يا وْلدي». قالت خديجة. «تفضل يا وْلدي تفضل». رمت بجسدها على المقعد وبيدها أشارت للكرسي المقابل لها.

- النور نوركم خالتي. بيت عامر بأهله.

قبالتها جلس سعيد بعد أن وضع ما يحمله على الطاولة بينهما. توجهت أميرة نحو المطبخ وعادت حاملة كوبًا من الماء.

«من عاداتكم في عُمان حمل هدية لأهل البيت اللي تزورونه ومن عاداتنا نبلّ ريق اللي يزورنا قبل ما نسأله عن أخباره وأحواله». قالت ضاحكة وعينها في عين خديجة.

قالت الجدة:

- هذي عادات العرب الكل يا أميرة. تتشابه البلدان العربية في عاداتها وتقاليدها وإن اختلفت أشكال تلك العادات والتقاليد.

أبقت خديجة نظرها ثابتًا على سعيد وإلى جواره أميرة. ملامح وجهه تشبه ملامح وجه أمه، نفس ابتسامتها، وضحكتها. قالت في نفسها. لو لم تقل أميرة إنه ابن سالم بن راشد لعرفت على الفور أنه ابن فاطمة بنت

محمد. دارت الأيام وساقتها لليوم الذي ترى فيه ابن فاطمة في تونس بعد أن رأته آخر مرة قبل ثلاثين عامًا، وكان حينها في نفس عمر أميرة.

***

سألت خديجة حفيدتها:

- وين ناصر يا أميرة؟
- بعثتله قبل شوي رسالة وقالي إنه جاي في الطريق. قال ما نستنوشو ونبدو نتعشو. باش يلحق بينا.

***

عندما التقت عيناهما ارتسمت على وجهيهما ردة الفعل نفسها. اتسع البؤبؤ في عينيهما، ارتفع الحاجبان، بعدها التفتا مباشرة نحو أميرة فألفاها تبتسم وقد وضعت ذقنها على قبضتي يديها المشبوكتين وتنظر إليهما كمن يشعر بنشوة المنتصر بنجاح مخططاته.

لبرهة من الزمن لم يعرفا ما الذي يحدث أمامهما وما إذا كانا يعيشان حقيقة من الواقع أم مشهدًا من الخيال. نطق كل واحد منهما اسم الآخر في نفس اللحظة.

«شنوة اللي جابك لتونس؟» سأل ناصر والدهشة تملأ وجهه قبل أن يدرك أنه لم يُصغ سؤاله على نحو لائق.

فرك سعيد بإبهام وسبّابة يده اليمنى على عينيه دون أن يرّد على سؤال ناصر قبل أن يتوجه بكامل جسده نحو أميرة مركزا نظره عليها..

- وأنا أقول وين شايفنك.. من البداية كنت حاسّ إن وجهك ما غريب عليّ. قلت في نفسي هذي المخلوقة أعرفها وشايفنها من قبل.

أطلقت ضحكة وهي تضرب بكفها على صدرها.

- من أول لحظة عرفتك. قبل لا تنطق بحرف واحد تذكرتك وفي داخلي متشوقة أشوف تعابير وجهك لمّا تعرف من أكون.

تعانق ناصر وسعيد مرحبين ببعضهما وبدآ في تبادل المزاح والضحك. علاقتهما لم تكن في يوم من الأيام مقطوعة. على عكس بقية شباب عائلة «أولاد الحار» كان ناصر وسعيد قريبين من بعضهما وجمعت بينهما رحلات ولقاءات في كثير من الأيام، قبل أن تقل لقاءاتهما لاشتغالهما في الدراسة والعمل وتصبح بعدها نادرة جدًّا.

«يا العيّار بدل لا تسألني مو جاي أسوي في تونس إسأل عمرك ليش أختك ما خبرتك إني موجود من أسبوع تقريبًا متشتت هنا ما عارف وين أسير ووين أجي لولا إنها نقذتني وساعدتني». مازح سعيد ناصر ضاربًا على كتفه بقبضة يده.

قبل أن يفتح فمه للرد عليه سارعت أميرة للوقوف أمامهما واضعة يديها على خاصرتها بدلال.

- أولًا ناصر ما فاضي لي ولا لحبوتي، ونحن أساسًا ما عارفين له طريق. مخلّي البيت فندق للنوم ومقضي ليله ونهاره يتسرمح شرق

وغرب. وثاني شيء أنا تعمّدت ما أخبره عشان أشوف ردة فعله وردة فعلك لما تلتقوا.

«يعطيك دودة يا أميرة».. سحب ناصر شعر أميرة بلطف وهو يضحك.

«أشوف لسانك تغيّر على طول». غمز لها سعيد. «قبل شوي كنتي ترطني تونسي وتو حوّلتي الموجة على قناة عُمان».

ضحك ناصر مشيرًا إلى جدته..

- الله يخلّي أم تونس. محرّمة علينا نتكلم قدّامها باللهجة العُمانية. أوين تقول ما تفهم هرجتنا.

حتى تلك اللحظة بقيت خديجة صامتة تراقب بفرح ظاهر أولاد العمومة في لحظة فرحهم الخاصة.

«ما زال القانون هذا يمشي». قالت خديجة. «لكنّ من أجل خاطر سعيد خذوا راحتكم».

عاد ناصر لمعانقة سعيد ودفعه للجلوس ومواصلة تناول العشاء فيما قرّبت أميرة أحد الكراسي وقدمته لناصر. جلست إلى جانب جدتها تنظر إليهما بفرح. تحت الطاولة أمسكت بيد جدتها وطبعت قبلة على خدها. أرادت أن تخرج مشاعرها على هيئة تلك القبلة قبل أن تتزاحم في صدرها وتضغط على مآقي عينيها بدموع يتبعها نوبة بكاء هيستيري.

(18)

«لا أريد لهذا المساء أن يمر دون أن أصافح قلبك، دون أن أطمئن على نبضاته، دون أن أستمع منه إلى حكايا العشق».

رواية «منبوذ الجبل»

عبدالله ناجي

الآن وقد تكشّف كل شيء أمامه بات قلب سعيد أكثر اطمئنانًا وروحه أشد سكينة. الآن فقط تفتحت أمامه الآمال وهدأت في داخله الآلام بعد خسارة من أحبها من قبل. الآن عرف أن الحظ يمكن أن يبتسم له مرتين أو أكثر إذا ما توافقت مطالع أيامه مع مسببات بروزها.

في طريقه إلى الفندق ظل يفكر في الصُدف التي رسمت مسار رحلته في تونس. جاء وهو يهذي بغربته وأمسى يدندن بحسن حظه حين وقع على حسابها في السناب. صدفة واحدة قادته لما تلا تلك الكبسة على زر الإضافة.

عليه الآن تحضير حقيبته وحزم متاعه فغدًا سيغادر الفندق إلى بيت جدة أميرة وناصر. أصرّت «للّا خديجة» على أن يقضي بينهم بقية الأيام

المتبقية له في تونس. رحّبت أميرة بفرح باقتراح جدتها أما ناصر فسارع لتجهيز غرفة الضيوف.

سريعًا وضع ناصر خطة اليومين المتبقين قبل سفر سعيد إلى عُمان.

- بكره بتروح أنت وأميرة إلى قليبية والحمّامات. وفي الليل لمّا ترجعوا رح نسهر مع بعض في مطعم من مطاعم قرطاج.

«وأنت؟» سألته أميرة. «ما بتروح معنا؟».

- للأسف بكرة الصباح عندي ارتباط مع سيّاح طليان. متفق معهم عاد. ما بقدر أكنسل موعدي معهم.

التفت سعيد ناحية أميرة..

- ايش رأيك نروح مع الطليان بدل لا نروح الحمامات؟ ونخلي مشوارنا ليوم ثاني.

فتحت أميرة فمها لترد لكن ناصر قاطعها.

- ما يستوي ولد عمي. الفوج اللي معي من خمسطعشر نفر أغلبهم شيّاب وعواجيز يا دوب يتحركوا من مكان لمكان.

تدخلت أميرة بتأييد كلام ناصر. شرحت له أن من عادة الأفواج السياحية التحرك في مجموعاتهم الخاصة، وأنهم يفضلون أخذ حريتهم في التنقل والجلوس وتجربة ما يرونه أمامهم. أخبرته أنه من الأفضل التحرك باتجاه الحمامات وقليبية في وقت مبكر من الصباح.

***

أمام المدخل الرئيسي لفندق لايكو تونس وقف سعيد بانتظار وصول أميرة. كان عليه إبلاغ المسؤول عن إنهاء إجراءات سفر الوفود المشاركة في المؤتمر بتغيير موعد سفره وانتقاله للسكن خارج الفندق. وحرص على توديع مرافقه التونسي وشكره على الرعاية التي قدمها له.

من بعيد لمح سعيد سيارة نيسان من فئة جوك بلونها الخُمري تتقدم نحوه وتقف قبالته. خلف المقود جلست أميرة وابتسامة تملأ وجهها. خرجت من السيارة بقصد مساعدته في تحميل حقائبه لكنه أصرّ عليها البقاء مكانها.

عند انطلاقهما عبر البوابة الخارجية كانت الساعة على شاشة لوحة عداد السيارة تشير إلى التاسعة وخمس دقائق. بدأت أميرة في شرح مسار رحلتهم الصباحية بعد أن حددت على نظام الملاحة نقطة الوصول لمساعدتها على انتهاج الطريق الأسرع للخروج من قلب العاصمة والمسير على خط الطريق السريع.

- قبل كل شي باش نواصل الكلام باللهجة التونسية على خاطر تعيش جو السياحة في تونس وتحس نفسك فعلا في تونس. نخاف نتكلم معاك باللهجة العُمانية وتنسى إنك في تونس.

ابتسم لها ورفع كتفيه علامة عدم ممانعته..

- باختصار.. أول شيء نمشو لقليبية ونشوف الأماكن السياحية الموجودة فيها مثل قلعة قليبية وبلاج المنصورة وغيرها، وبعد ذلك نمشو لمدينة الحمامات، وبعدها نرجع المساء إلى المرسى. منها تحط أغراضك وترتاح شويا قبل ما نخرج مع ناصر نتعشى.

هز سعيد رأسه دلالة الموافقة على الجدول الذي وضعته. أبقى نظره مثبتا عليها وهي تراقب الطريق أمامها ويداها تقبضان على مقود السيارة متتبعة تعليمات نظام الملاحة. وكأنها برفقة وفد سياحي استرسلت في الحديث عن أهم المدن السياحية في تونس. حدثته عن مدينة سوسة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وتسميتها التي اشتهرت بها بجوهرة الساحل، وشواطئها الرملية الناعمة، وكونها مركزًا تاريخيًا بما تشتهر به من عمارة إسلامية وعربية، وأسوارها وأبراجها المنتصبة في أكثر من موقع.

- سوسة المحروسة من أشهر المنتجعات السياحية. فيها تلقى متعة مشاهدة المعالم السياحية والثقافية والتاريخية. في فترة من الفترات كانوا يسمونها حضرموت. فيها تلقى سورا عمره أكثر من ألفي سنة. وفيها حي مشهور يعرف بالحي العربي القديم. وفيها القلعة الكبرى والمتحف الأثري.

- أميرة.. سمعت أن جزيرة جربة أيضا من الوجهات السياحية اللي يفضلّها الكثير من السياح لما يجوا إلى تونس.
- صْحِيْح. هي من أكبر جزر شمال إفريقيا وتسمى جزيرة الأحلام، وتتميز بشواطئها الرملية البيضاء وقلاعها الحصينة وأبراج المراقبة. وهي تعتبر أكبر معاقل الإباضية في المغرب العربي، وأيضا فيها أعراق وأديان متباينة تتعايش بسلام فيما بينها، لكنها تحتفظ بطابعها العربي والإسلامي، وهذا الشي تلاحظه على عادات وسلوكيات الجرابة كما يسميهم أهل تونس.

استرسلت أميرة في الحديث عن مدن تونس وما تضمه من معالم، فمن مدينة القيروان أحد مواقع التراث العالمي إلى مدينة الجمّ، ومدينة المنستير وقلعة الرباط وضريح بورقيبة، ومدينة مطاطة بسكانها الذين يعيش أغلبهم في كهوف تحت الأرض، إلى مدينة دوز الصحراوية. بقي سعيد منصتا لحديثها وفي داخله شعور بالسعادة.

دفعها سؤال مفاجئ من سعيد للتوقف عن الاسترسال في حديثها والالتفات إليه متعجبة من سؤاله. «ألا يصبح للمرء هويتان حينما يكون والداه من قطرين مختلفين كحالك أنتِ، والدك عُماني وأمك تونسية؟».

- لن تعرف شعوري وأنا التي خلقت وشخصيتي مقسمة بين تقاليد العُمانيين وعادات التونسيين. بين لهجة أهل والدي وما أسمعه من

أمي وجدتي. منذ أن فتحت عيني على الدنيا وأنا أحاول أن أحدد إلى أي كفة أميل، حتى أنقذتني أمي بدفعي لأن أكون عُمانية في كل شيء حتى في الكلام الذي يخرج من فمي. ولأنها لم تقدر على التكيف مع لسان العُمانيين قررت أن يكون كلامها باللغة العربية الفصحى وهي التي تتحدث اللغة الفرنسية وتتقن دهاليز اللغة العربية، لم تسمح لنفسها أن تتحدث أمامنا باللهجة التونسية، ولا أن تخلط كلامها بالفرنسية إلا حين تتحدث إلى خديجة.

- تحب تسمع قصتي مع الهوية العُمانية والهوية التونسية؟ قالت وعلى وجهها مسحة من التوتر.

هز رأسه مبتسما.

- خلينا ندردش في شيء لغاية ما نوصل قليبية. على الأقل نستغل الوقت في هذي المسافة الطويلة.

رفعت خصلتين من شعرها سقطتا فوق عينها اليمنى..

- باهي.. باش نحكي لك على روحي، على حياتي، على طفولتي وحتى على شبابي وأطفالي وأجاوب على كل أسئلتك لكن عندي شرط واحد.

عقد حاجبيه دلالة دهشته وعدم توقعه لوجود شرط لديها.

- توعدني تحكيلي أنت بعدها على روحك، وحياتك، واهتماماتك، ودراستك، وعلى زواجك ومرتك. وحتى على أمك فاطمة بنت محمد.

أطلق ضحكة عالية.

- إيش تعرفي عن أمي فاطمة.
- جدتي خديجة تعرفها وتشكّر فيها برشا. إذا كنت موافق على هذا الشرط باش نحكي لك على نفسي.

هز رأسه موافقا.

سردت له سريعا كيف التقى والدها الصحفي في جريدة عُمان بوالدتها التونسية القادمة ضمن وفد إعلامي منتدب للعمل في الجريدة والإذاعة والتلفزيون وزواجهما بعد ستة أشهر من أول لقاء بينهما. وعلى لسان تونس نقلت مواقف تعرضت لها في بداية زواجهما وعدم تقبل بعض أفراد «أولاد الحار» لزواج والدها من تونسية. وعلى لسان والدها نقلت ما قصّه عليها حين صارت شابة عن موقف جدها خميس بن سعيد من هذا الزواج، وتقبله لقرار ابنه واحتضانه لزوجة ابنه الثانية ورعايته لها.

حكت له عن مكانة جدها «سي أحمد سليماني» في المجتمع السياسي التونسي، ودوره في مرحلة ما بعد الاستقلال وتقلّده بعض المناصب الحكومية، ومساهمته في وقت لاحق في الحراك الثقافي بتأسيسه أكبر

مكتبة ثقافية في العاصمة بقيت تمد المثقفين وطلبة الجامعات بكل ما يحتاجونه من معارف.

حدثته عن والدتها وزياراتها المستمرة كل عام إلى تونس، وأنها كانت تصحبهم هي وناصر معها في كل زيارة لها، وأن والدها كان يرافقهم في بعض الرحلات ويبقى لفترة قبل أن يعود إلى عُمان. قصت عليه لهفة أمها للعودة إلى تونس للمشاركة في ثورة الخبز التي انطلقت أواخر العام 1983 وبداية العام 1984. كان الدم التونسي يغلي في عروقها وهي تترصد أخبار تلك الثورة التي سقط فيها المئات من الضحايا. أخبرتها أمها أن ثورة الخبز قامت بسبب زيادة سعر الخبز بقرار من الوزير الأول محمد مزالي، رئيس الوزراء حينها، واستخدام وزير الداخلية إدريس قيقه للعنف ضد المتظاهرين. الناس اعتقدوا أن مزالي هو المُلام في ذلك ولم يدركوا إلا في وقت متأخر أنه ينفذ تعليمات الحبيب بو رقيبة الذي أعلن التراجع عن الزيادة في سعر الخبز بعبارته الشهيرة: «نرجعو كيما كنا قبل». ردّد الناس في مظاهراتهم عبارات شتى، إلا أن عبارة واحدة بقيت عالقة في الأذهان حين هتف المتظاهرون: «يا لمزالي يا بو صلعة، يلعن بوك في هالطلعة» فراح محمد مزالي ضحية ما أسماها فيما بعد بمؤامرة الخبز وأنها مدبرة من قبل وسيلة عمّار وسعيدة ساسي.

استرسلت أميرة في حديثها عن نفسها بالقول إنها تغدو تونسية حين تكون في تونس وعُمانية في عُمان. تشربت من أمها حب تونس وعشقت عُمان كما عشقها والدها. أحبت تونس الأم والوطن فلم تكن غريبة حين تجيء إلى هنا ولا هجينة حين تكون هناك. منذ سنوات عمرها المبكرة لم يكن أمامها غير أمها وأبيها وبعض الجيران الذين بقوا في الحياد فلا مالوا مع المائلين ولا تآمروا كما فعل غيرهم. طفولتها قضتها في شبه عزلة خلف أسوار المزرعة التي فيها بيتهم. وحين كبرت والتحقت بجامعة السلطان قابوس كانت كل صداقاتها من خارج القرية. عدا عمتها وأمه لم تكن تعرف أحدا من عائلة «أولاد الحار» أو على الأقل هذا ما بقي في ذاكرتها.

- حتى أنت ما نتذكرش في طفولتي ولا في مراحل عمري اللاحقة إلا في بعض الصور اللي ريتها مع ناصر وبعض اللقاءات البعيدة لما تكون معاه بالصدفة وأنا موجودة. عدا ذلك ما نتذكرش موقف واحد حدث لي معك.

ركزت نظرها عليه وهو يلقي بنظره إلى الطريق الخالي من الحياة. عن يمينه يرى جبلا من بعيد تكاد ملامحه لا تبين.

- أتذكر إني شفتك من زمان مرتين أو ثلاث. وأتذكر بعض الأخبار اللي كانت توصلني من الوالدة عنك وعن أمك وعن العم سالم.

غير كذا ما كنت كثير أعرف عن حياتكم ولا أعرف عن ظروفك ويمكن ما كثير كنت مهتم بتفاصيل حياة عائلتنا.

مرت دقيقة من الصمت بينهما. فكّر في نفسه كيف يمكن للمرء أن لا يعرف حياة أقاربه، وكيف له في نفس الوقت معرفة تفاصيل ما يعيشه من لا تجمعه بهم قرابة الدم.

تحدثت عن والدها بكل حب وهي توشك أن تضعه في مرتبة الملائكة ومنزلة الأنبياء. كان أبوها شخصًا متفتحًا متفهمًا لرغبات ومشاغل جيلها، لم يكن يعنيه كثيرا تغير اهتماماتها عن اهتمامات الجيل السابق، ولم يفرض عليها ولا على أخيها قيودًا صارمة طالما التزما بقواعد حددها بوضوح وتنحصر في ثلاثة مبادئ رئيسية: الالتزام بالدين، التزام أسس الأدب والاحترام، والاهتمام بالتعليم والثقافة. بقية الأمور لم تكن تهمه كثيرًا. كان أبوها يهتم بالقراءة والاطلاع على كل صنوف المعرفة. منذ صغرها كان يجلب لها الكتب والمجلات والصحف العربية خاصة المصرية والأردنية والكويتية، وحين يلمس منها اهتمامًا بنوع معين من الأدب أو الصحف كان يُكثر منها فجلب لها أنواعًا مختلفة من الروايات المصرية وأعدادًا من الصحف الكويتية والأردنية. اهتم هو بعقلها واهتمت أمها بتفاصيل حياتها كفتاة.

استرسلت في كلامها لتحدثه عن انتقالهم للعيش في مسقط وابتعادهم عن محيط أهل القرية، وعن سمعتها التي شوهها زاهر بن حمود وما تناقله الناس عنها. بقي سعيد واجما وهو يتذكر أنه هو بنفسه صدّق تلك الحكاية، وأنه تأسف كثيرا أن تكون واحدة من بنات عائلته بهذه السيرة كما سمع ممن حوله. في تلك الأيام تسربت حكايتها في القرية والقرى المجاورة من فم إلى آخر، وكل فم يضيف إليها أو يحذف منها كيفما شاء. صارت حديث المجالس، بعضهم يستغفر بعد أن يفرغ من تقيؤ ما في جوفه من كلام عنها، وبعضهم يسأل الله الستر فلا تصيبه في بناته ما أصابها، وآخرون أعرضوا عن الخوض في الأمر.

حدثته عن زواجها من عبد الله والسنوات التي عاشاها معًا. عن اهتمامه بكل تفاصيل حياتهما واشتغالاته بالسفر والرحلات والسمسرة في العقارات. عن رعايتها واهتمامها بأمها. عن مشروعها الخاص ونجاحها في صنع علامة تجارية في مجال الموضة والأزياء. عن سفراتها إلى ماليزيا وإندونيسيا والكثير من الدول الأوروبية. حدثته عن أطفالها. ارتسمت على وجهها ملامح سعادة حين لاح أمامها ابنها قيس وهو يتمايل بجسده في أولى محاولاته للمشي وفي صورة أخرى وهو يتعثر بالحروف حين بدأ في الكلام. حدثته عن هواية الغناء لدى العنود فضحكت وهي تقلدها حين تغني. حدثته عن الريم بمناكفتها لشقيقيها.

- ألا يحن قلبك لرؤيتهم؟

توقعت مثل هذا السؤال. «وهل هناك أمٌّ لا تحِنُّ لرؤية أطفالها؟ مهما حاولتُ أن أخفي حنيني لهم لا أستطيع. قلب الأم لا يقسو ولا يهمل ولا يجافي ولا يغضب على أطفالها. بالطبع أحن لرؤيتهم. أشتاق لهم كثيرًا لكنني أردت أن أكون بعيدة عن والدهم لا عنهم. أن أكون وحيدة فلا أتأثر في القرار الذي سأتخذه» ردّت عليه في سرّها.

نظرت إليه فوجدته صامتًا في انتظار جوابها. فهم الرد من عينيها أو ربما عرف أن سؤاله من الحمق ما يُوجب عدم الرد عليه، لكنها اكتفت برد مقتضب:

- أنا أم -يا سعيد- أنا هنا لكن قلبي هناك.

(19)

«الوقت الذي تستمع بإضاعته ليس وقتا ضائعًا».

برتراند راسل

قبل انتصاف النهار سلكت سيارة الجوك شارع الشهداء مخترقة صفين من البيوت والمحال التجارية قبل أن تنعطف يسارا عبر شارع المنصورة، وبعد مسافة قصيرة اتخذت أميرة طريقا فرعيا إلى اليسار سارت عليه متمهلة صعودا عبر مسار متعرج، متبعة لوحات إرشادية باتجاه قلعة قليبية المطلة على الميناء. حاذرت في قيادتها حتى وصلت إلى مساحة منبسطة مقابل القلعة الواقعة على هضبة صخرية مطلة على البحر الأبيض المتوسط بارتفاع مائة وخمسين مترًا، وتحيط بها أبراج مربعة الشكل، ويلتف حولها سور كست جدرانه وأرضيته صخور حجرية بنية. تحت شجرة ضخمة أوقفت أميرة السيارة. فور نزولهما تابعا ببصرهما في الأسفل البيوت التي طُليت باللون الأبيض.

– هذا نحْنَ وصلنا إلى القلعة الرومانية – البيزنطية.. من البقعة هذي تنجّم تشوف بالليل الأضواء القادمة من جزيرة صقلية الإيطالية.

أبدى دهشته وبدا له أنها تمازحه لكنها عادت للتأكيد أن إيطاليا وتحديدا جزيرة صقلية لا تبعد أكثر من ستين كيلومترا.

وقف سعيد أمام القلعة يلتقط بهاتفه صورا للباب الضيق وعلى جانبه وقف الموظف المسؤول عن عملية تنظيم دخول الزوار. أشارت أميرة له بالانعطاف جهة اليسار، فسارا عبر ممر حجري يحاذي جدار القلعة وعلى جوانبه سور إسمنتي من خلفه منحدر صخري تقع في أسفله منازل اصطبغت بلون واحد.

تمهلت أميرة في خطوها وهي تلتقط عشرات الصور، بينما مضى سعيد متأملا جدار القلعة العالي والأبراج التي تنتصب على مسافات متفاوتة. بدا له المسار طويلا، حتى إذا أصبحا في الجهة الخلفية للقلعة وقف شاخصا ببصره تجاه الميناء وقد اصطفت فيه عشرات السفن واليخوت وقوارب الصيد. تصميم الميناء احتوى على رصيف طويل في عمق الماء توزعت عليه مجموعات متفرقة من السفن واليخوت، وإلى الداخل برزت خمسة أرصفة تلاصق اليابسة، ومن خلفها مبانٍ خمّن أنها لخدمة الميناء.

على يساره وقفت أميرة تخبره عن كون المدينة من أهم مرافئ الصيد بإنتاج يصل إلى 15 ألف طن سنويا، وأن المدينة تتميز بتعدد شواطئها مثل شاطئ مرسى قليبية وشاطئ الفتحة وشاطئ المنصورة القريب منهما وشاطئ سيدي منصور. عادا بنفس الطريق بالاتجاه المعاكس، وعند المدخل الرئيسي ارتقيا خمسة مدارج حجرية عريضة تقود إلى بوابة صغيرة دلفا من خلالها إلى الداخل عبر دهليز معتم يفضي إلى ساحة

واسعة توزعت فيها مبان متعددة الأشكال تهشّمت جدرانها. عرف سعيد فيما بعد أنها عبارة عن معبد بيزنطي صغير وصهاريج رومانية وأحواض ترجع للعهد العثماني، فيما انتصبت بعض المدافع القديمة وقد ترك بعض الزوار عبارات الحب وأسماءهم لتخليد مرورهم داخل القلعة.

في طريقهما داخل القلعة سلكا ممرات علوية محمية بحواجز حديدية، وسارا محاذيين الجدار الداخلي للقلعة حتى وصلا إلى الجهة المقابلة للميناء فوقفا يتأملان المنظر من هناك.

أخرج سعيد هاتفه وانتهز الفرصة لالتقاط مجموعة من الصور للميناء، وعلى مقربة منه وقفت أميرة تراقب مجموعة من السياح الأجانب يجوبون المكان. أشار بسبابته وإبهامه علامة التصوير، ثم أشار بسبابته إليها وإليه قبل أن يفرّق إصبعيه السبابة والوسطى ويجمعهما في حركة سريعة. استجابت لإشارته واقتربت منه حتى صارت على بعد سنتيمترات منه، فبدأ في التقاط مجموعة من الصور تجمعهما. في إحدى الصور نراهما مبتسمين، وفي أخرى تنظر أميرة إليه وهي تضحك، وثالثة تلامس فيها كتفيهما والتقت قمة رأسيهما مع ابتسامة واسعة تعلو شفاههما، ورابعة وهي تقف على مسافة قريبة من خلفه وقد رفعت إصبعيها علامة النصر، وتوالت الصور له بمفرده وأخرى بدونه.

***

في طريقهما بالاتجاه المعاكس توقفت أميرة بالسيارة في الموقف المخصص لمقهى البرج.

- إيجا نشرب عصير وإلّا تاي.

قالت وهي تخرج من السيارة فتبعها إلى مقهى منبسط على هضبة تطل على منحدر مليء بالأشجار والنباتات كالحة اللون وأسفل منها توزعت البيوت. استقرا على مصطبة عريضة كُسيت بقماش الكليم تقابلها طاولة خشبية دائرية الشكل. رحب بهما النادل وهو يناولهما قائمة المشروبات التي يقدمها المقهى. نظر سعيد لما كتب عليها: قهوة زوزة، تاي معطر بالنعناع، بُوفَا مونت، كوكا حكة، شاي بالبندق، عصير برتقال، عصير فراولة، كوكتال غلال.... أخيرا استقر على أخذ عصير برتقال وطلبت أميرة عصير فراولة مع قطع الثلج.

أمامهما ساحة فرشت بالكنكريت ووضعت عليها طاولات وكراسي بلاستيكية تعلوها مظلات واقية من الشمس. هبت ريح خفيفة نثرت شعر أميرة فغطت وجهها.

«رغم أن الطقس صيف لكن الجو معتدل وفيه نسمة هواء باردة. والمنظر من هنا يجنن». قال سعيد وقد وضع علبة سجائر قبالته على الطاولة.

«يبدو أنك باش ترجع لعُمان وأنت من المدخنين». قالت ضاحكة ويدها تمتد إلى علبة السجائر وأخرجت منها عودين ناولته أحدهما ووضعت الآخر في فمها.

اكتفى بالابتسامة وأشعل سيجارته وبصره ممتد إلى البحر البعيد. لم تكد تمضي دقائق حتى كان طلبهما حاضرا فشرعا في تناوله. استمر الصمت بينهما وحولهما امتدَّ الدخان يتطاير كيفما دفعه الهواء.

فكّر في اللحظة التي سيغادر فيها تونس تاركًا خلفه أميرة. يشعر أنه منجذب إليها ولا يرغب في العودة إلى عُمان إلا إذا رجعت معه. أراد أن يقول لها ما يفكر فيه، لكنه تراجع والكلام على طرف لسانه. «كم مؤلم أن مثل هذه اللحظات تمضي سريعًا ولا تتوقف عقارب الساعة عندها» قال في داخله وحانت منه التفاتة فوجدها تحدّق فيه وفي عينيها فرح غير خاف.

لوح برأسه مستفسرا عما يدور برأسها..

«أنت مزيان يا سعيد.. وجهك، تبسيمتك، غَزْرَات عينيك.. نتعجب كيفاش تكون من عائلة «أولاد الحار»».. أتبعت قولها بضحكة عذبة.

اِحمرّ وجهه وتحيّر فيما عليه أن يقول فزادها ذلك ضحكا. ضربت كفيها أحدهما بالآخر.

- هذي أول مرة في حياتي نشوف راجل يِحْشِمْ.

- وهذي أول مرة في حياتي تقول لي وحدة جميلة كلام جميل مثل كلامك هذا.. المفروض أنا أقولك هذا الكلام. ما مجاملة لو قلت لك إنك فعلًا سيدة الجميلات. وشخصيتك مذهلة كثير كثير.

دفعته بيدها وهي تضحك.

سألته عن سبب انفصاله عن زوجته فوجم. لم يعرف ما يقول أو كيف يشرح لها أنه بالفعل لا يعرف السبب. بقي صامتا لبرهة قبل أن يكسر الصمت رنين هاتفها. كان المتصل ناصر يسأل عن وضعهما فأخبرته أنهما في مدينة قليبية يستعدان للتحرك بعد قليل إلى مدينة الحمامات.

«يلزمنا نتحرّكوا بعد نصف ساعة باش ندور في الحمامات ونرجع قبل الظلام». قالت قبل أن تضيف.. «في طريق المرواح باش تقُلي على روحك كما وعدتني. توة نفكر نكتب رواية على عائلتنا وأنت باش تعاونّي ننجزها».

هز رأسه موافقا..

«تم. باللي أقدر عليه. تحت أمرك». غمز لها ثم أشار بسبابته ملامسا عينه اليمنى ثم اليسرى. من العين هذي قبل العين هذي.

تبسمت إعجابا بقوله.

في طريقهما لمغادرة قليبية اتخذا عدة مسارات داخل المدينة ما بين الطرقات الداخلية والطريق الساحلي. رغم الشمس الساطعة لا تزال الشوارع تدب فيها الحياة بحركة المارة والمركبات والباعة المتجولين،

ومجموعات من الأطفال يستظلون بالقرب من منازلهم، ونساء تحلقّن على الأرض حول مائدة وُضعت عليها أطباق من المأكولات.

***

الوقت الجميل يمضي سريعًا. فكّر سعيد بينما كانت سيارة الجوك تقترب من مدينة الحمامات القديمة. منذ خروجها من مدينة قليبية والحديث لم يتوقف بينهما ما بين مواقف حدثت في حياة كل واحد منهما وذكريات مرا بها منذ طفولتهما حتى اللحظة. لم يشعرا إلا وهما يصلان ويقتربان من المدينة القديمة ببيوتها ذات الطابع المعماري العتيق.

قالت أميرة وهما يسلكان الأزقة الضيقة للمدينة:

- فمّة مؤرخين يقولوا أن المدينة هذي تبنات في القرن الخامس عشر الميلادي.

أخذا في التجول ما بين الأزقة المتعرجة بأرضياتها الحجرية والبيوت الكالح لونها والمتشققة جدرانها، مخترقين متعرجات لا تفضي إلى مكان محدد غير بيوت بيضاء طليت أبوابها ونوافذها باللون الأزرق. «إنها أشبه بمتاهة بتعرجات أزقتها»، قال في نفسه وعينه تعلو وتنخفض متتبعا تصاميم البيوت وعمارتها التقليدية. بعض الأزقة مغطاة فلا تنفذ إليها الشمس، لكن الهواء البارد يندفع إليها لتلفح وجهيهما.

مرا بمجموعة من المتاجر الصغيرة ذات التطريز المحلي على جدرانها ومداخلها. لم يستطع سعيد مقاومة شراء بعض قطع السيراميك المزخرفة

وقطع من الملابس التقليدية، فيما توقف كثيرا لتأمل المنتجات الجلدية المعروضة على واجهات المحالّ وتفقد السجاد المصنوع يدويا، وأعجبته طريقة تشكيلة أواني الطبخ بأحجامها المختلفة.

«ما زال باش نمشو لشاطي الحمامات والمركز الثقافي». حثته أميرة على التحرك وهي تتقدم باتجاه البوابة المصممة على هيئة برجين ضخمين.

أنهى سعيد شراء بعض قطع السيراميك وحثّ خطاه للحاق بها.

- المدن القديمة في تونس تتشابه. تقريبا فيها نفس الطراز المعماري ونفس المعروضات من الأقمشة المطرزة والقطع الجلدية والنقوش النحاسية والخزفية.
- صحيح. تقريبا تظهر متشابهة لكنّ لكل مدينة من هذي المدن حكاياتها الخاصة وظروف إنشائها اللي تختلف عن الأخرى.

ردّت قبل أن تسلك شارع الحبيب بورقيبة المحاذي للشاطئ.

تابع سعيد ببصره امتداد الرمال البيضاء ومياه البحر الصافية ووجود عدد من اليخوت وقوارب التجديف إلى جانب انتشار مظلات من سعف النخيل تستقر تحتها مقاعد بلاستيكية.

مضت السيارة بهما باتجاه الطريق الساحلي لمنتجع ياسمين الحمامات الذي بدا شبه خالٍ من المارة والسيارات بعد انتصاف النهار، إلا من بعض سيارات الأجرة بلونها الأصفر، ومركبات التوك التوك

الصغيرة والكبيرة يستقر في داخلها سياح ومقيمون، وعربات مكشوفة تجرها الخيول.

شدّ سعيد التنظيم الجميل للرصيف المحاذي لشاطئ البحر بتشجيره، فعلى طول الرصيف العريض زرعت على الجوانب أشجار النخيل والصنوبر وبعض النباتات داخل أوعية خرسانية. على الرمل توزعت مقاهٍ بأكواخها السعفية ومقاعد حجرية وأكشاك تقدم العصائر والمشروبات الساخنة لمرتادي الطريق. على اليمين منه لاحظ مبانيَ حديثة ومتاجر لماركات عالمية وفنادق ضخمة. تركا الكورنيش خلفهما وسلكا طرقًا فرعية قبل أن يصلا إلى مركز المدينة الثقافي.

عبر مدخل على هيئة برجين ضخمين مرا إلى الداخل. بقي سعيد مشدوها بالتصميم المعماري للمدينة، فإلى اليسار منه مقهى الباي وبعده بجهة اليمين متحف ملتقى الحضارات والديانات. مضيا في طريقهما ما بين مجموعة من المتاجر والأكشاك التي تعرض هدايا وتحفًا تذكارية وأوانيَ مزخرفة وحقائب جلدية وأقمشة وأزياء تونسية، وجلودا بأشكال وأحجام كتبت عليها عبارات وآيات قرآنية.

فور خروجها من المدينة الثقافية انتبها أنهما جائعان فتوقفا لتناول شطيرتين من أحد الأكشاك القريبة. عادا أدراجهما إلى ياسمين الحمامات، وعلى الجهة المقابلة لفندق ميهاري أوقفت أميرة سيارة الجوك وترجلا منها باتجاه الشاطئ. خلعا أحذيتهما وسارا على الرمل

الناعم. تقدم سعيد باتجاه ماء البحر وغاص بقدميه في الرمل الرخو ونظره يلف في المكان. من خلفه وقفت أميرة تراقب متعته بتلك اللحظة التي يعيشها. انتبهت أنه «يقف باستقامة، وقفة رجولية تحبها. شعرت لثانية.. برغبة في رمي نفسها على صدره واحتضانه»[1]، لكنّها وبّخت نفسها على الحماقات التي تلوح في خيالها دون أن تفهم أسبابها.

(1) رواية بنت دجلة، محسن الرملي، ص9.

(20)

«السفر هو الشيء الوحيد الذي تشتريه فيجعلك أكثر ثراءً».
مجهول

- مثل ما وعدتك رح أحكي لك عن نفسي وأسرة أبوي وعائلته اللي تعرفينها.

بهذه العبارة بدأ سعيد حديثه في طريق العودة إلى تونس العاصمة. هذه المرة كان هو من يقود سيارة الجوك فيما أشعلت أميرة سيجارتها الثانية لهذا النهار. أدارت نصف جسدها نحوه تتأمل وجهه وتراقب حركة شفتيه وقبضة يديه على مقود السيارة.

- قبل أي شيء رح أحكي لك عن جدنا سعيد بن سالم.

«عاد سعيد بن سالم الكبير من غربته ما بين الكويت والبحرين ليستقر بالقرب من زوجته وأولاده وبناته، منهيًا غيابًا متقطعًا يكسره بزيارات لا تستغرق أكثر من أسبوعين. هناك استطاع أن يدخل في شراكة مع أحد الشيوخ الميسورين معتمدًا على مهاراته في التعامل مع التجارة وقوة بأسه. في كل زيارة له إلى القرية كان يشتري بما في يده من مال أرضًا أو بيتًا أو محلًا ويترك بعضًا منه لزوجته وأبنائه، وحين يكون ميسورًا أكثر من

حاجته يترك لابن عمته خلفان بن صالح وبعض أقاربه ما يعينهم على قضاء أمورهم.

كانت البلاد في تلك الأيام ترزح تحت فقر مدقع والحروب تنهش أركانها وتدك حياة الناس فيها والمصالح تتحكم في مصير البلاد والعباد. كان أهل القرية يعتمدون في معيشتهم على ما يخرجونه من البحر، أو ما يجنونه من زرع في مزارعهم، والقليل مما يستوردونه من المدن والبلدان الأخرى. عاشوا على الكفاف ورضوا بما هو متاح لهم. هاجر بعضهم في مشارق الأرض ومغاربها، عاد من عاد بعد غياب سنين طوال وطوى النسيان آخرين دون أن يُعرف عنهم شيء. ورغم أنه لم يكن مطمئنا من أن عُمان ستخرج من عزلتها وتخلفها، كان قرار سعيد بن سالم بأن يستقر ويترك عنه السفر، فضخَّ ما بين يديه من أملاك في التجارة مستفيدًا من علاقاته».

استمعت أميرة لحديث سعيد بتركيز وهو يحكي قصة جدهما سعيد بن سالم. كان جدهما يجيد إدارة تجارته على أحسن وجه. اشتغل الناس بالسعي لتوفير ما يكفي قوت يومهم ويسد رمق أبنائهم، راضين بحالهم ومستسلمين لما ظنوا أنه قدرهم، ومتعايشين مع شظف العيش وشحّ الخير في بلادهم. فيما كانوا على هذا الحال ركب سعيد بن سالم البحر وجاب الموانئ بحثا عن الرزق وفتح لنفسه أبوابًا لم تكن لتُفتح لو ظل في مكانه، تغرب في البلدان الأخرى ليقتنص كل فرصة لاحت له، واضعًا

ماله في أكثر من موضع حتى نمت تجارته وازدهرت وتوسعت ممتلكاته شيئًا فشيئًا. لم تحفظ ذاكرة أبنائه عنه الكثير منذ نعومة أظفارهم حتى أصبحوا شبابًا صغارًا، لكنهم يتذكرونه عائدًا بين الحين والآخر قبل أن يغادرهم من جديد، حتى جاءت لحظة استقراره بينهم، حينها بدأ أول خيوط ذاكرتهم ينسج ثوب معرفتهم به عن قرب.

بعد خمس سنوات من استقراره بين أهل قريته أصبح اسم سعيد بن سالم يملأ الأرجاء ويتردد على كل لسان، تتقدمه سمعته وسخاء يده للمحتاجين. وبعد أن أصبح للبلاد سلطان جديد هدأت النفوس وتفتحت مخارج ومداخل الأرزاق. لم يكسره غير رؤيته أحشاء ابنه وقد انتزعت من جسده وهو الذي كان يظن أن الدنيا مقبلة عليه تعطيه ولا تأخذ منه شيئًا. كان ابنه دائم الحركة لا يستقر في مكان، شديد البأس لم يُعرف بين أهل القرية إلا بالشجاعة والإقدام وفي بعض الحالات بالتهور. من أجل كل صفاته كان الأقرب إلى قلب أبيه فصار يفتخر به سرًا وعلنًا ويراه النسخة الحديثة منه، فقرّبه منه وشجعه وحماه.

فشل في معرفة الجاني. بحث في كل مكان وقلّب جميع الاحتمالات. حقّق مع الكل، مع أصدقائه قبل أعدائه، حتى حمود بن زاهر دخل دائرة الاتهام. ذهب إلى السلطات المحلية وكلف معاونيه بالبحث عن خيط يقوده إلى تجلّي الحقيقة، أو ضوء باهت ينير له دربها. ظل على تلك الحال لعدة أشهر يتصنع الصلابة والقوة وهو في داخله يتحطم، رافضًا أن

يستكين إلى تقبل الواقع أو الاستسلام. بعدها انهار متعبًا ودخل دوامة العزلة مع نفسه.

حين اعتزل الحياة بعد فاجعته بابنه أخذ ابناه راشد وخميس على عاتقهما تسيير التجارة وإدارة الأملاك. راشد تزوج مرتين وخلّف ثلاثة أبناء: سالم وعلي وأحمد، أما خميس فتأخر في الإنجاب فبات يتملكه الشك أنه عقيم بعد ثلاث زيجات لم يرزق فيها بذرية، وحين تملكه اليأس حملت زوجته الأخيرة بابنيه الوحيدين: سالم وشيخة.

كان حمود بن زاهر في تلك الفترة عازفًا عن الزواج، وحين تزوج لم يرزق في سن الأربعين بغير ابنه زاهر الذي أورثه كل ما كسبه في حياته، كما أورثه كره «أولاد الحار» ولم يخبره أن حقده كان لسبب طفولي.

سألته عن تسمية «أولاد الحار»، وهي تعرف الإجابة، فحكى لها أن جدهم سعيد بن سالم أول من لقب بهذا اللقب، فلقد عُرف عنه حبه لكل طعام فيه سكرّيات وللطعام الذي يحتوي على البهارات الحارّة. الأولى يحرقها بحركته الدؤوبة منذ مطلع الفجر ما بين تجارته ورحلاته بين القرى حتى آخر الليل حين يأوي للفراش، والثانية يتخلص من آثارها بشرب الماء الساخن على الريق قبل أن يقف بين يدي ربه ليصلي الفجر. زاد الأمر ترسيخا طبعه الشديد وقت غضبه وشدّته في المواقف التي لا تقبل اللّين.

- هل تعرفي أن لي أخت تصغرني بعام واحد اسمها أميرة توفت لمّا كان عمرها سنتين. .

هزّت رأسها علامة النفي.

في نفس العام الذي وُلد فيه لسالم بن خميس ابنته البكر أميرة، كانت العائلة قد فقدت ابنة سالم بن راشد بعد معاناتها مع المرض هي وشقيقها سعيد، لم تفلح العلاجات الشعبية ولا تدخلات الأطباء في مستشفى الرحمة في إنقاذها من قدر الموت، فرحلت فيما تعافى سعيد بعد أشهر قضاها طريح الفراش. أراد سالم بن خميس أن يجبر بخاطر وقلب ابن عمه فسمى ابنته من زوجته التونسية باسم أميرة.

- قالت لي نانا خديجة أن أمك كانت تهتم برشا بأمي وتقف معاها، وأنها أكثر شخص في عائلة «أولاد الحار» تِلْهى بها.

حدّثها سعيد عن دراسته في كلية الشريعة والقانون، وكانت حينها تتبع وزارة التعليم العالي قبل أن تتحول إلى كلية الحقوق وتصبح واحدة من كليات جامعة السلطان قابوس. وحدّثها عن عمله في وزارة الشؤون القانونية وتدرجه في وظيفته ليصبح مشرفًا على مراجعة مشاريع الاتفاقيات والمعاهدات مع المنظمات الدولية والإقليمية.

حكى لها عن زواجه الذي استمر خمس سنوات وانفصاله عن زوجته دون أن يعرف لماذا طلبت ثريا الطلاق. استرسل في سرد علاقته بها: كانا يتشاركان في كل تفاصيل حياتهما: يساعدها في تحضير الطعام وتنظيف

منزلهما وتهتم بحاجياته الخاصة. كانا يتبادلان الهدايا في المناسبات. حدثها عن حبهما للرحلات الداخلية والتخييم والجلوس على الشاطئ.

تردّدت في طرح السؤال. خشيت أن تفتح في قلبه جرحًا يحاول مداواته.

- كنت تحبها؟ قالت وعينها تتأمل خلجات وجهه. كما توقعت تغيرت ملامحه وأشاح برأسه للجهة الأخرى عنها.

استرسل في حديثه وكأنه يرغب في القضاء على آخر ذكرى تربكه وتخلخل كيانه. خلال خمس سنوات نما في قلبه حبه لها ولم يرَ منها ما ينقض مشاعر الحب أو ينتقص منها، لكنه اليوم لم يعد يشعر بأكثر من بعض الحنين والكثير من الحنق والغصة.

- خرجت من قلبي كما أخرجتني من حياتها. صفحة وطويتها وأفكر أفتح صفحة جديدة.

- هل لقيت شكون تستحقك وتستحقها؟ سألته ضاحكة.

التفت إليها ووضع عينيه مباشرة في عينيها وقال..

- وجدتها وأدعي ربي إنها تقبل بي لمّا أتقدم لخطبتها.

ابتسمت وألقت بنظرها على الطريق..

عند وصولهما كان الليل قد أسدل أشرعته ونثر شعره على المكان. وجدا ناصر في انتظارهما وقد جهّز مائدة العشاء. أخبرهما بأنه حجز

طاولة للغداء يوم الغد في مطعم **The Cliff** بالمرسى، وأنهم سيسهرون الليلة أمام شاشة التلفزيون.

***

أمام مائدة مليئة بالطعام جلس ناصر على يمين سعيد تقابلهم أميرة وجدتهم. كانت خديجة تحدثهم عن انتشار التصوف في تونس وإطلاق أسماء أولياء الله الصالحين والمتصوفة على مدن وقرى تونس مثل سيدي بو سعيد الباجي، والسيدة المنوبية، وسيدي بن عروس، وسيدي بلحسن الشاذلي، وسيدي حسين، وسيدي محرز بن خلف، وسيدي علي عزوز، وسيدي علي الحطاب.

- في تونس الصوفية موجودة من زمان. اليوم تسمعوا عن القادريّين اتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني. وتسمعوا عن العيساوية اتباع الشيخ علي بن عيسى. وتسمعوا عن السلامية نسبة للشيخ عبد السلام الأسمر. وتسمعوا عن الشاذليين أتباع الشيخ أحمد العلاوي الجزائري، وغيرهم.

شاركها ناصر في سرد ما قرأه في كتاب «الحبيب بورقيبة.. المهم والأهم» للرئيس الباجي قائد السبسي أنه سُمّي تيمنا بسيدي بو سعيد الباجي، وأنه جيء بأمه لتلد بالقرب من ضريح الولي الصالح.

- الله يشفيه. سمعت أنه مَرُض شوية. قالت خديجة واسترسلت في حديثها عن سبب تسمية تونس العاصمة باسم: المحروسة.

- تونس محروسة من أربع جهات بأربعة أولياء صالحين من الرجال العلماء الزاهدين: محرز بن خلف، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي سعيد الباجي، والسيدة المنوبية.

تلاقت نظرات سعيد وأميرة فابتسما. تذكرا شيئًا مماثلا كان موجودا في عُمان لكنه تلاشى من عقول الناس وأفئدتهم.

واصلت خديجة حديثها عن وجود العديد من العلماء والمشايخ الذين اشتُهروا بصلاحهم ومساهماتهم في العلوم الإسلامية كالعلّامة محمد الكامل سعادة، وحدثتهم عن العلّامة محمد الطاهر بن عاشور، أحد أبناء ضاحية المرسى، وأنه من أبرز مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث، ومن المساهمين في إصلاح التعليم في جامعة الزيتونة، وأنه سلك تعلم القرآن الكريم في سن مبكرة فقرأه وحفظه على يد المقرئ الشيخ محمد الخياري، وتلقى قواعد اللغة العربية على يد الشيخ أحمد بن بدر الكافي.

ساعتان قضوها متحلقين حول خديجة، يتنقلون بأحاديثهم ما بين عُمان وتونس. عن ذكرياتهم، قصّوا على جدتهم بعضًا من أسرار حياتهم وحكاياتهم. وحين انتهوا غادرتهم خديجة إلى غرفتها وبقي الثلاثة يتسامرون.

حين توجهت أميرة إلى المطبخ لتحضّر لهم الشاي والقهوة تحدث سعيد عن نقاء البلد واختلافه عن بقية الدول التي زارها، وعن حسن الخلق عند الناس.

هز ناصر كتفيه..

– «في كل حلّة علّة»[1] يا سعيد. و«اللي فيه طبّة ما تتخبّى»[2].

في تونس جزء من التاريخ المنسي والمسكوت عنه. من بعد الاستقلال تغيرت كثير من الأمور وتبدّلت الأحوال. اللي كان قبل يطالب بشيء صار يطالب بعكسه. بورقيبة فتح البلاد على البحري بعد ما كان يطالب بالتمسك بهوية البلد الأصيلة. والناس اللي كانت ترفض اقتراحات الطاهر الحدّاد صارت تطبق كل إصلاحاته الاجتماعية. البلد من الظاهر زينة، كل شيء فيها على أحسن حال لكن تبقى مثل ما قلت لك «كل حلّة فيها علّة».

في يوم رح آخذك زنقة سيدي عبد الله قشّ تشوف بعينك نسخة عتيقة لماخور مهمل كان في يوم من الأيام مليان قصص وحكايات أبطالها من مختلف شرائح المجتمع: فحّامين ومراهقين وملوثي العقل. هناك بتشوف نساء قررن التعامل مع أجسادهن بحقارة وعدائية مقززة. أشبههن بكعكة يويو بالعسل كانت في يوم من الأيام شهية ولذيذة، لكنها تعفنت وتفحّم لونها وصارت ريحتها مثل ريحة البراز.

(1) مثل عُماني يقصد منه لا يوجد مكان ليس به فضائح أو أمور مخزية.

(2) مثل تونسي يقصد منه عدم قدرة المرء على إخفاء ما فيه من سوء خلق أو نقيصة.

(21)

«كالخطوط الصفراء المثبتة في دفتر قديم أُقلّب أيام حياتي. لا شيء فيها يبقى سوى كلمات تحمل فنائي».

رواية «لوعة الغاوية»

عبده خال

ما إن رمت بجسدها على السرير حتى سمعت أصواتًا تأتيها من رف المكتبة. في البداية كانت أشبه بالهمس ما لبثت أن أصبحت واضحة كقمر خرج من عباءة سحابة بيضاء. سمعت صوت البروفيسور سالم قادما من كهف آدم يحكي لرفاقه أن هذه المسكينة وقعت من جديد في الحب وكأنها لم تتعلم الدرس جيدًا. ضحك بسيوني سلطان الذي لا يحب جمال عبد الناصر وقال: الحب أمر نسبي ففيما يؤمن البعض أن الحب هو ملح الحياة لا يراه الآخرون إلا مضيعة للحياة ومتعها، أما أنا فلا أرى ما يستحق الحب. بادره الأحقافي الأخير بالقول إنها امرأة تقترب من سن الأربعين من عمرها فلم تعد تلك الطفلة التي لا تفقه شيئا في الحب، ولا تنقصها التجربة الكامنة لتحسن اتخاذ قرارها الذي تراه الأنسب لها. أتبع

كلامه بهمهمة العارف بخبايا النفوس وقال «الهزيمة ليست الخسارة، الهزيمة هي ألا تحاول، أي أن تشعر بالعجز»[1].

فجأة اختفت أصواتهم وكأن الرجال ملّوا من الحديث عنها فلم تعد تسمع أصواتهم. وحدها مخدتها همست في إذنها: إن كنت واثقة من حبك له وحبّه لك لا تتركيه يرحل وحيدًا.. احزمي متاعك والحقي به فالحب لا يجيء متى طلبناه، ولا يمكننا صناعته كما يصنع الصائغ الحُلي التي تلبسينها.

- لا أريد أن أبدو في موقف الضعيفة التي لا تقدر على مقاومة نداءات قلبها. أريد أن أحافظ على ما يراها من حولي، الفتاة الصلبة صاحبة الشخصية القوية.

ضحكت المخدة قبل أن تقول: «ما أكثر الفتيات اللواتي يدّعين قوة الشخصية والحدّة في التعامل مع الرجال، لكنهن سرعان ما يخلعن عنهن ذلك القناع حالما يسقطن في شباك الهوى»[2].

ساورتها الشكوك والظنون ففقدت القدرة على رؤية ما يجب عليها فعله أو تمييز الصواب من الخطأ. أغمضت عينيها لتنام لكنّ ريح الأفكار عصفت في رأسها، وأجراس صاخبة دقت منذرة إياها بليلة لا نوم فيها ولا راحة.

---

(1) رواية الأحقافي الأخير، محمد الشحري، ص73.

(2) رواية كهف آدم، يونس الأخزمي، ص206.

ظل كلام سعيد، الذي قاله لها في ختام السهرة، يتردّد في رأسها. سألها عن ضرورة عودتها إلى عُمان وتجاوز ما مرّت به.

- مهم جدًّا تستأنفي حياتك وتبدئي مرحلة جديدة. وضعك الحالي يشبه وضع اللي معلّق أسفل جسر لا هو يمشي ولا هو يطير. قال وعلى وجهه علامات الجدية.
- بيني وبينك هذا اللي أفكر فيه من يومين. لكن بعدني ما رسيت لي على قرار.

في سرّها تمنت أن ترى ما في قلبه. تحدّث عن حاجتهما لطي صفحة الماضي بما فيها من إحباطات وتجارب مؤلمة. عليها أن تلتفت لما تبقى من حياتها وحياة أطفالها وعليه أن يهتم بشؤونه ومستقبله. أخبرها أنه يعدّ النسيان نعمة، وأن عليها أن تنسى ما حدث مهما كان مؤلمًا بالنسبة لها، وأن تبدأ حياة جديدة بالكيفية التي تراها الأنسب لها. قال إن الأمر ينطبق عليه فلا فائدة من وقف الزمن على تجربة لم يكتب لها النجاح. أخبرها أنه يفكر في الزواج مجدّدًا ولمّح أنه وجد المرأة التي يتمنى أن تكون زوجته، ودعاها للتفكير بجدية بأن تحذو حذوه.

- هل تبادلك الشعور؟ سألته بخبث فردّ أن قلبه يخبره أنها ستوافق إذا ما تقدم لخطبتها. سرّها تلميحه هذا فبقدر عدم مباشرته في الكلام تدرك أنها المعنية.

حاولت أن تنام فلم تقدر. بقيت صاحية والظلام يلفُّ المكان حولها. هدأت الشوارع في الخارج، وثارت الأفكار في رأسها: واحدة تدفع بأختها، حسابات تشكّلت في مخيلتها تزن الأرباح والخسائر التي تنتظرها. كان جسدها مرهقا بعد رحلتها إلى ولاية نابل وتعرف أنه بحاجة للنوم لكن عقلها ظل يعصف بالأفكار. استرجعت كل لحظة جمعتها بسعيد منذ لقائها الأول به وحتى عودتهما إلى المرسى قبل عدة ساعات. قلبها يخفق بتوتر وهي تستذكر وجهه وكلامه وضحكته وابتسامته. رجل ناضج مثله هو من تتمنى أن تكون معه.

بعيدًا عن خفقات قلبها وميلها نحو سعيد أرادت أن تفكر بالمنطق. سعيد قريبي، جرّب الزواج من قبل مثلي، تركته زوجته السابقة لسبب لا يعلمه، وأنا جرّبت الزواج مثله وتركت زوجي السابق لأمر لا يُمكن التغاضي عنه. لا بد أنه رأى فيّ ما سرّه مثلما وجدت فيه من الصفات ما أحبها. ذاكرتانا واحدة تصب في مجرى واحد. من خلال سعيد سأعيد ترميم ما تهدم في علاقتي بعائلة «أولاد الحار» وبناء صلات أكثر عمقًا ومتانة، لن أنسى أنني نصف عُمانية ونصف تونسية، أجيد الحياة في مكانين مختلفين متناقضين في جانب ومتشابهين في جوانب أخرى. الآن أستطيع أن أحكم على طبائع الرجال وأقدر على القول إن سعيد الخيار الأنسب لهذه المرحلة من عمري، نضجت بما فيه الكفاية لمعرفة ذلك.

فكّرت في كيفية ما ستكون عليه حياتها إذا ما أصبح زوجها، في وضع أطفالها، هل ستتركهم مع والدهم أم ستتمسك بأن يعيشوا معها، هل ترجع إلى عُمان وإلى عملها. ماذا عن خطتها لكتابة أول رواية لها. ظلت على هذه الحال ما بين الصحو والغفوة حتى طلع الفجر فغرق جسدها مرغما في نوم عميق خرجت منه على صوت جدتها وهي تحثها للاستعداد للخروج مع ناصر وسعيد لتناول وجبة الغداء كما اتفقت معهم.

في تلك الليلة كان سعيد بن سالم يتقلب على فراشه يفكر فيما اتخذه من قرار بالارتباط بأميرة. فكّر أنها ستكون زوجة وصاحبة وصديقة وشريكة لحياته. لم يساوره الشك للحظة في أنه سيندم على رغبته هذه. هي من لحمه ودمه بمواصفات أنثوية رائعة وعقل متفتح متعلم وبثقافة واسعة. ألحّت عليه خواطر كثيرة ورغبة صادقة في أن يكون قريبًا منها ينظر إلى عينيها ويتأمل ابتسامتها وضحكاتها ويعب من رحيق عذوبتها ويتلذذ برؤية عنفوانها. قال في نفسه: هي امرأة رائعة، قوية، وأنا أحب النساء القويات. فكّر أن بعض الرجال يخشون الحياة مع امرأة قوية، ويخشون المرأة المثقفة المتعلمة، ويركنون للاقتراب أكثر لتلك النوعية من النساء اللاتي يقدّمن الخنوع، ويرضين بالاستسلام، ويتقبلن سلطة الرجل كأمر مسلّم فيه لا جدال ولا نقاش حوله، أو في أكثر الحالات تطرفًا يبحثن عمن يمارس جبروته عليهن ويستمتعن بذلك أيما استمتاع.

فكّر فيها كثيرًا من أول لقاء جمعه بها، وها هو يفكّر فيها أكثر بعد أن عرفها وتعرّف عليها وتعامل معها عن قرب. زادت خفقات قلبه فجرى الدم بقوة في وجهه وابتسم حين لاح في خاطره وجهها.

***

على شرفة علوية تقابل البحر مباشرة بمطعم **The Cliff** استقرت أميرة على مقعد وثير وأمامها ناصر وسعيد في انتظار وصول الطعام الذي طلبوه. للمرة الأولى تدخل المطعم، فأعجبتها إطلالته على البحر وتصميم الديكور فيه. «مكان مثالي لمحبي الهدوء والمناظر المبهجة»، قالت فيما تتنقل عينها حول المكان والهواء القادم من البحر يداعب شعرها ويلامس خديها. اشتغل الشابان أمامها بحديث هامس وكأنهما يسترجعان سرًا كتماه في قلبيهما. رأتهما في أوج السعادة. ملامحهما متشابهة كأي أبناء عمومة، لكن ناصر يختلف عن سعيد بشعره المنفوش المتموج وبياض بشرته وأنفه الدقيقة.

فرد النادل على طاولتهم طبق مقرونة ببوش البحر وآخر أصغر حجما به مقرونة كروفات، وطبق ريزوتو سمك السلمون المشوي وطبق السلطة المشوية بالتن وأطباق صغيرة ضمت الزيتون والحمص. ولأميرة فطيرة هامبورجر لحم بالجبن. وعلبتي كوكاكولا وعصير برتقال مليء بالثلج.

كانت شهية أميرة مفتوحة فشاركتهم الأكل من جميع الأطباق بعد أن انتهت من فطيرتها. في داخلها سعادة أنها أخيرًا قررت العودة إلى عُمان

على نفس الرحلة التي سيغادر فيها سعيد صباح يوم الغد. قبل ساعتين غادرت منزل جدتها وتوجهت إلى أقرب وكالة للسفريات، ومن حسن حظها وجدت حجزا على متن رحلة الخطوط الجوية القطرية المتجهة إلى الدوحة، لكنها قررت إخبارهم حين يجتمعون بالمساء لتناول وجبة العشاء.

باتت مقتنعة الآن أنها تريد أن تكون قريبة من سعيد، وأن «الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض هو أننا لا نعرف ما يخبئه لنا الغد.. ما يستحق أن نحفل به هو الحاضر وحده، هنا الآن»[1]. وعادت من جديد لتتأمل وجه سعيد وابتسامته.

في المساء وفي أول فرصة سنحت له أخبرها أنه يريد أن يتقدم لخطبتها فلم تستطع إخفاء فرحتها. ابتسمت بداية ثم ضحكت ثم ردّت أنها موافقة إذا وافق على شرطيها: أن يعيش أطفالها معها فلم يتردّد في الموافقة، وأن يساعدها في كتابة رواية تحكي فيها قصتها وتضع فيها الاقتباسات التي سجلتها من الروايات التي قرأتها بما يتوافق مع الرواية التي ستكتبها.

أخبرت جدتها بطلب سعيد وحين انفردت بناصر أخبرته. كلاهما سألاها إن كانت مقتنعة بالفكرة، ولكليهما قالت: أحببته منذ اللحظة الأولى لرؤيته.

***

(1) رواية أنقذني، غيوم ميسو، ص70.

قبل موعدها بخمس دقائق عند الساعة الثانية عشرة وتسع دقائق بعد الظهر، هبطت على أرض مطار تونس قرطاج طائرة الإيرباص **A350** قادمة من الدوحة وعلى متنها مواطنون تونسيون قدموا من عدة دول عربية وآسيوية، وعشرات السياح العرب والأجانب، وبعض الطلبة الملتحقين بكليات وجامعات تونس. بعد أربع ساعات من وصولها سيكون على هذه الطائرة مغادرة المطار في الاتجاه المعاكس، حاملة مسافرين آخرين عائدين إلى الدوحة، من بينهم سعيد وأميرة.

في تلك اللحظة كان سعيد وأميرة في الطريق إلى المطار. كان عليهما الحضور قبل ساعات من موعد الإقلاع لتجاوز طوابير الانتظار والإجراءات الأمنية الاستثنائية تجاوبا مع الوضع الأمني في تونس.

***

حلّقت الطائرة في الجو في نفس اللحظة التي ترجلت فيها تونس وأحفادها الثلاثة من سيارة الأجرة أمام منزل خديجة. قضت قرابة الساعتين في البحث عن حقائب سفرهم لتكتشف أن خطأ في إجراءات التسليم ارتكبه أحد العاملين في المطار. ساعدها سائق سيارة الأجرة في إدخال الحقائب إلى الداخل، فيما عقدت الدهشة لسان خديجة وهي ترى الأطفال يبحثون عن أمهم.

أغسطس 2021 – مسقط

شكر خاص

شكر وتقدير لأولئك الذين ساهموا في إنجاز هذه الرواية بأي شكل من الأشكال. من بينهم الأساتذة/ محمد النهدي، نزار بوزيد العبيدي، وطارق عبيدي ظاهري.

شكر خاص جدا للمرشدة السياحية التونسية «أميرة العبيدي» التي ظلت عبارتها: «أنا كنت نجمة في السماء وسقطت في تونس» تتردد في رأسي.

أميرة التي أوقدت الشرارة الأولى لفكرة هذه الرواية.

الذاهبون إلى تونس عليكم بمرشدة سياحية تمثل طيبة ونقاء قلوب أهل تونس.

للتواصل مع المؤلف:

هاتف: 0096899337336

تويتر: **adelalhamadani**@

مفردات وردت في الرواية

1..

- السحّارة: صندوق من الخشب على شكل خاص توضع فيه الأشياء عند تخزينها. جمعها سحّارات.
- الكنويطة: صندوق متعدد الأحجام كانت الأسر التونسية تحتفظ فيه بأموالها والوثائق المهمة.
- زربية قيروانية: سجاد يصنع يدويا من وبر الجمال والصوف، تعتمد على الأشكال الهندسية المختلفة وزخرفتها المستوحاة من التراث الإسلامي والرموز البربرية الأمازيغية، وتنسب هذه النوعية إلى مدينة القيروان.
- القطيف: نوع من أنواع الزرابي أو السجاد، يمتاز بصوفه السميك وألوانه التي يكثر فيها اللون الأحمر الداكن. مصنوع من شعر الماعز ووبر الإبل، ويحمل زخرفا مركبا، إذ تحاك النقوش داخل مربعات ومستطيلات.

2..

- طبق اللبلابي: أكلة شعبية تونسية مكونة من الحمص والكمون وقطع صغيرة من الخبز وبعض المكونات الأخرى. تشتهر كونها من الوجبات الشتوية.
- فطائر البامبلوني: فطائر تشبه الدونت، تتكون من طحين الخبز والخميرة والسكر والحليب الدافئ، تتوفر بكثرة في ضاحية سيدي بوسعيد.
- الكسكسي: من أشهر الأطباق في تونس وفي دول المغرب العربي. تختلف طريقة تحضيره من بلد إلى آخر. في تونس أكثر من 30 نوعًا من طبق الكسكسي بحسب مكوناته. يتكون عموما من طحين القمح أو الذرة تضاف إليه الخضار والمرق واللحم أو الحليب، وغيرها.
- طاجين تونسي: أكلة شعبية تونسية مشهورة. تختلف مكوناتها باختلاف أنواعها. تتشابه في طريقة التحضير، فبعضها يحتوي على اللحم أو الدجاج أو البقدونس. من أنواعها: طاجين باللحم، طاجين مرقاز سجق، طاجين مقرونة، طاجين بالكبدة، طاجين بالتونة.

- السلطة المشوية: طبق من أطباق المطبخ التونسي يتكون من الخضروات المشوية مثل الطماطم، الفلفل، البصل، الثوم. يتم شويها أو طبخها ثم تطحن ويضاف لها البهارات، كما يتم وضع التونة وحبات الزيتون وزيت الزيتون أو البيض المسلوق.
- السلطة التونسية: تتكون من الخضار المملحة كاللفت والجزر والفلفل وتزين بالزيتون والهريسة والبطاطا المقلية والبيض المسلوق وزيت الزيتون.

6..

- القفة السعفية: سلال تصنع من سعف النخيل أو من عشب نباتي وتستخدم لوضع المشتريات أو في المناسبات العائلية.
- علاقة العروس: قفة سعفية يملأها العريس بجميع أنواع العطور ويحملها مع الحلي إلى دار العروس قبل الفرح في يوم الكسوة.

7..

- الملية والحرام: الملية لحاف ذو ألوان كثيرة تلبسه المرأة التونسية تحديداً في الأرياف. والحرام لحاف تلبسه الفتيات وتشدّه بمشبكين ويكون ارتداؤها بألوان مختلفة بحسب المناسبات،

فالحرام ذو اللون الأحمر يكون في مناسبات الأعراس أو حفلات الختان.

- الطّقريطة: لحاف تغطي به المرأة التونسية جميع جسدها في كافة المناسبات، ويصنع من الحرير ويكون أبيض اللون.
- الجبة العكري: لباس يتكون من قطعتين من القماش ويكونان بلونين مختلفين مع بعضهما البعض، ويُطرَّز بخيوط ذهبية.
- الطريون القيرواني: من أفخم الألبسة التونسية، تمتاز به محافظة القيروان، يتكون عادة من بلوزة وسروال واسع، ويصنع من قماش المخمل ويطرز بخيوط ذهبية. ترتديه نساء تونس في حفلات الزفاف والختان.
- السورية التونسية: القميص، وهو أحد الأزياء التقليدية التونسية تلبس تحت العديد من القطع. توجد في تونس أنواع منها كالسورية الحامية، والسورية الجربية، والسورية المكنية، والسورية القابسية، والسورية الرفرافية، والسورية النابلية.
- الهرماشة الرفرافية: أحد الأزياء التقليدية التونسية لمدينة رفراف. تُطرز بخيوط الحرير والذهب والكنتيل.
- الفوطة أوالبلوزة: زي نسائي يتكون من جزأين. الجزء الأول يسمى البلوزة، والسفلى تنورة طويلة تسمى الفوطة، يبقى بينهما البطن عاريا، وهو لباس تلبسه العروس يوم الحناء.

- الكبوس الغارق: زي تقليدي خاص بالعاصمة تونس. يتكون من بلوزة وسروال واسع.
- السفساري: لحاف أبيض اللون يصنع من قماش الحرير أو القطن. يتم ارتداؤه خارج المنزل لتغطي به المرأة ثيابها الداخلية قبل الخروج من بيتها.
- مريول فضيلة: قميص نسائي يصنع من القطن يزين باللون الأزرق والبنفسجي. أصبح يلبس في جميع الأوقات وليس فقط في المناسبات العائلية.
- الخلخال: شبيه بالأساور لكنها تلبس بالقدم خاصة للعروس. يمكن أن يصنع من الفضة أو من الذهب وهو ثقيل الوزن.
- الوشوش الجربي: قلادة تونسية تصنع من الذهب أو الفضة وتلبس في الجبين والرقبة.
- الجبة: لباس رجالي فضفاض وطويل. يلبس فوق مجموعة من الملابس الداخلية. يصنع بعضها من الحرير أو من الصوف. لباس رسمي في الحفلات والمناسبات العائلية. في بعض المناطق التونسية هو لباس يومي لبعض الرجال.
- الكسوة: لبس رجالي يتم ارتداؤه تحت الجبة ويتكون من عدة عناصر: الصدرية، الفرملة، البدعيتان، المنتان.

- الصدرية: ثوب يلبس بالجزء الأعلى من الجسم، به فتحة مكان الكتفين والإبطين وأخرى مكان العنق. تكون رقبتها مطرزة، وبها جيب صغير مطرز على مستوى الصدر.
- الفرملة: قطعة رجالية ونسائية تلبس من الأعلى مفتوحة من الأمام. مطرزة من الجانبين والرقبة. بها جيبان داخليان لوضع الوثائق والنقود.
- البدعيتان: لباسان، الأول داخلي به جيبان مطرزان وشريط، والثاني خارجي وهي الأصغر، بها فتحة من الأمام وجيبان داخليان ورباط لشدها من الخصر.
- المنتان: يلبس فوق الفرملة. أكمامه طويلة ومطرّز من جهة المعاصم.
- البرنس: زي تقليدي للرجال يُصنَع يدويا من صوف الخروف أو الإبل. وهومعطف طويل مفتوح يضم غطاء للرأس. يستعمل بكثرة في الشمال الغربي والوسط وبعض مناطق الجنوب التونسي.
- الشاشية: طاقية حمراء توضع فوق الرأس تُصنَع من الصوف الخالص.
- القشابية: لباس تقليدي شتوي يشتهر في مناطق الجنوب التونسي. تُصنَع من الوبر والصوف.

- البلغة: تنتعل في الأقدام. تشبه الحذاء بدون خلفية لموضع القدم. تُصنَع بشكل يدوي من الجلد.

10..

- مقرونة شوابي: معكرونة حبار وتعرف بمقرونة السوبيا.
- مقرونة بغلال البحر: معكرونة تحتوي على قرنبيط وحبار وجمبري وروبيان وفلفل.
- مقرونة كروفات: معكرونة جمبري.
- برغل بالطماط: وجبة تحتوي على برغل خشن وبصل وطماطم وملح وفلفل أسود.
- الهريسة: أكلة حارة تحضر عن طريق عجن الفلفل الحار بعد تجفيفه وطحنه وإضافة المتبلات إليه. لا تؤكل منفردة بل توضع في الشطائر والطبخات.
- كلمار محشي: وجبة تحتوي على الكلمار (وهو أحد الكائنات البحرية يعرف باسم سمك الحبار ويشبه السبيط)، والطماطم والبقدونس والبصل والثوم المفروم والهريسة وزيت الزيتون والملح والفلفل الأسود.

- الفريكة التونسية: وجبة تحتوي على الكسكس والماء والسكر والزيت والمكسرات بمختلف أنواعها والحليب الساخن.
- كعكة الورقة: من الحلويات، تحتوي على الطحين واللوز وماء الورد والسكر والزبدة.
- المقروض القيرواني: من أشهر الحلويات في مدينة القيروان، يتكون من سميد رقيق يخلط بالزيت خاصة زيت الزيتون ويضاف إليه السكر وماء الورد.
- كعكة زيت الزيتون: من أنواع الحلويات، يحتوي على برتقال مقطع إلى نصفين وزيت زيتون وليمون ولوز أبيض محمص وبيض ومسحوق الخبز ومانجو مقشر.
- وذنين القاضي أو الدبلة: نوع من المعجنات تحتوي على الدقيق والبيض، يتم لف العجين وتقطيعه إلى شرائح وغمسها في الزيت الساخن وتلف بالشوكة، ثم يرش عليها مسحوق السكر وبذور السمسم.
- الصمصة: نوع من الحلويات يدخل في تحضيرها رقائق العجين، تعرف محليا في تونس باسم الورق المسلوق أو جلاش، وفي دول المشرق العربي باسم السمبوسة.

- اليويو: من الحلويات، تحتوي على الدقيق الأبيض والزيت النباتي والسميد والخميرة الفورية والسكر.
- المخارق الباجية: حلويات تشتهر بها مدينة الباجة، تتكون من عجينة السميد والطحين والزبدة والزيت والبيض، ويتم أحيانا إضافة السمن والعسل، ويطلق عليها المعذبة لمشقة صنعها.
- البوزة: من الحلويات، تحتوي على العجينة والسكر والحليب المركز، تقدم في أوعية خاصة تُزيَّن بالفواكة المجففة.
- قرن الغزال: من الحلويات، تحتوي على لوز مقشر وماء زهر الليمون والسكر وزيت فول سوداني وبياض البيض.
- سهرات السلامية: عروض فنية تحييها فرق الإنشاد الصوفي خاصة فرقة الطريقة السلامية، وهي عبارة عن مجموعة من المغنين ينشدون على ضربات الدف ابتهالات تمجد الرسول الكريم والأولياء الصالحين، وبعضا من أشعار الصوفيين.
- الزريقة: من الحلويات، تحتوي على اللوز المقلي والمهروس والجوز المقلي والمهروس وأوراق البريك المسلوقة وماء الورد.
- الجوارش: من الحلويات، تحتوي على اللوز والسكر وماء الورد وعصير ليمون.

- المحكوكة: من الحلويات، تحتوي على اللوز والجلجلان والزيت والسكر والعسل والسميد والبندق والزبدة الذائبة.
- الغريبة: من الحلويات التقليدية، تحتوي على السمن والسكر والطحين.
- البجاوية: حلوى تونسية تنسب إلى امرأة من مدينة بجاوة. تحتوي على اللوز المهروس والفستق المهروس والبندق والصنوبر والعسل.

11..

- كورس حكك: لعبة شعبية قديمة، مستلزماتها أوعية معدنية قديمة مربوطة بحبل من خلال ثقب الوعاء من الجهتين ثم تثبيت الحبال في الثقبين. يتم وضع الأرجل فوق الوعاء مع إمساك الحبل ثم المشي عليها.
- الزربوط: لعبة جماعية يمارسها الأطفال في الحواري والأزقة. عبارة عن أداة من الخشب ذات أحجام مختلفة تُصنَع على شكل حبة الكمثرى تربط بخيط رفيع يلف حولها.

- الكاليس: لعبة شعبية يمارسها الأطفال، تعتمد على لف حبل حول خصر الطفل، يكون طرفاه في يد طفل آخر، يقوم بعدها الطفل الأول بالجري وجر الطفل الآخر خلفه.
- البرتيتة: لعبة يمارسها الأطفال بصنع تسعة مربعات متساوية على الأرض، ويقوم الطفل بالقفز وفق إيقاع معين بما يشبه الإيقاع الموسيقي، بحيث تكون إحدى قدميه في مربع والأخرى في مربع آخر، وبعض المربعات يضع فيها قدميه.
- بهيم باديس: لعبة يمارسها الأطفال، إذ تنحني مجموعة منهم على وضعية الركوع، فيما يقفز الآخرون تباعا من فوقهم.
- بيوت شاش: لعبة يمارسها الأطفال بحفر مجموعة من الحفر الطولية ورمي كرة صغيرة حتى تستقر في إحدى الحفر وفق قواعد متعارف عليها فيما بينهم.
- الخربقة: لعبة شعبية تشبه لعبة الشطرنج، لا تختلف عنها إلا في اختلاط الحجارة وأسمائها وتنقلاتها.

14..

- القفير: إناء مصنوع من سعف النخيل يُحمَل في الأغراض.
- الثوج: وعاء مخصص لنقل الحاجيات على ظهر الحيوانات.

- الشت: غطاء هرمي يُصنَع من نوع معين من ورق النخيل.
- الكفتاجي: من أشهر أطباق المطبخ التونسي، أصوله إيطالية، يقدم مع الخبز، من مكوناته الفلفل والطماطم والكبدة والبطاطا واليقطين والبيض.
- أشجار الصبير: التين الشوكي.

17..

- طبق روز جربي: طبق من أطباق المطبخ التونسي، يحضّر عادة من الأرز واللحم والكبدة والحمص والخضار مثل البقدونس والسلق والبازلاء والجزر وغيرها.
- العلوش: الخروف.
- سلطة مفورة: من أنواع السلطت المناسبة لتخفيف الوزن، فالخضار فيه مطهية بالبخار، يمكن تحضيرها بتتبيلة من زيت الزيتون وعصير الليمون.
- سلطة أمك حورية: طبق من أطباق المطبخ التونسي، عبارة عن سلطة مكونة من الجزر المسلوق والمرفوس والمتبل بالتوابل والهريسة. سميت بحسب ما يُتداول في تونس نسبة لامرأة اسمها حورية كانت تصبغ شعرها بالحناء فيصبح لونه مثل الجزر.

- دراق مبلّط: كعب الغزال.
- الكرموس: التين.
- الدّلاع: البطيخ.
- الفولارة التونسية أو المحرمة التونسية: هي حجاب أو غطاء للرأس ترتديه المرأة التونسية، ويطلق عليه في بعض المناطق وشاح الكادحين.
- في كل حلّة علّة: مثل عماني.